
العوديسا الفلسطينية
خالد أبو خالد

The Palestinian Odyssey
The Poetry Works (part 2)

العوديسا الفلسطينية
الأفعال الشعرية (الجزء الثاني)

Khaled Abu Khaled

خالد أبو خالد

First Edition (2008)
All Rights Reserved ©

الطبعة الأولى (2008)
جميع الحقوق محفوظة (c)

Cover By : Nagham Halawani
Photo : Mohammad Hanoon

الغلاف: نغم الحلواني
صورة الغلاف : محمد حنون

Palestinian House of Poetry
Ramallah-Palestine

بيت الشعر الفلسطيني
رام الله - فلسطين



Tel : 2406956-2406957 Fax : 2406955
E-mail : ping@ping-palestine.org
Website : www.ping-palestine.org

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopy, recording, or any information storage and retrieval system, without the permission in writing from the publisher.

العهديسا الفلستينية

الأفعال الشعرية
(الجزء الثاني)

خالء أبو خالء

الجدال في
منتصف الليل

الوجه في الماء

(1)

أَكْتُبُ مَنْ ...

أَكْتُبُ مَنْ ...

... ..

(2)

أَفْقَدُ حَسِّي بِالْمَكَانِ
وَالزَّمَنُ

بِالآتِجَاهِ

وَالْمَوَاسِمِ

وَالْأَرْضِ .. وَالسَّمَاءِ

... ..

بَغْدَادُ فِي دَمِي مَكْتَبَةٌ

دِخَانُ

وَحَارَةٌ مَهْدَمَةٌ

وَطِفْلَةٌ مَحْتَرَقَةٌ

مَلْقَى عَلَى الرَّصِيفِ

مَرْمِيَةٌ عَيْونِي المَقْلَعَةُ

غَارِقَةٌ بِدَمِهَا

حبّيتي المغتصبة
وفي جبينني حافر الحصان القوي .

(3)

أشتاقُ للسَّيلة (1)

لجدّتي . .

وجدّي

مزقني الرّحيلُ

والمنفى

والخنجرُ القديمُ

والعباءةُ الكابوسُ

ونجمةُ المجوسُ

ومحنةُ البراءةُ

أواهُ كمُ أخشى الموتَ فجأةً على مدارِكِمْ

وحدي . . .

أسألُكمُ جميلةً

ومنةً

إن متُّ

إن ذبحتمُ بقيّتي

خذوا مرّرتي

وأطفئوها مرةً أخرى

للمرّة المليون . . أطفئوها
لكنّما
في عينِ قرّيتي . . .

(4)

أذكرُ فاطمةُ
جرّتها «العسليّة»⁽²⁾ الزرقاءَ
والمشوارَ بين العينِ والدارِ
وبين الحقلِ والبيدرِ
أذكرُ فاطمةُ
أنّا تلعثمُ السلامُ في عيوننا
وفراً . . .
صخرةٌ صرتُ على ناصيةِ الدّربِ
وجرّني الزّمان . . جرّني
ومدّ جثتي حديقهً في طرفِ الصحراءِ
فامتصّني الرّمْلُ . .
وغابت فاطمةُ .

(5)

تجرّحني
تجرّحُ إصبعي صوانةً

أَلْفُهُ بِخَرْقَةٍ مِنْ ثَوْبِي الْبَالِي

تَلْعَنِي أُمِّي

تَلُومَنِي

تَسْأَلَنِي

أَبْكِي

أَوَاهِ يَا أُمِّي . . .

يُؤَلِّمَنِي . .

تَنْفُخُ فَوْقَهُ . .

تَبُوسُهُ . .

تَلْعَنُ كُلَّ مَا فِي الْكُونِ مِنْ حِجَارَةٍ شَرِيْرَةٍ

أَنَا مٌ فِي حِكَايَةِ الْفَقِيرِ وَالْأَمِيرَةِ .

(6)

تَأْكُلْنِي الْعَتَمَةُ فِي شَوَارِعِ الْمَدِينَةِ الْمُضَاءِ

تُخَيِّفَنِي

تَسْقُطُ بِي

تَشْبِحَنِي

أَبْقَى مَعْلَقًا

مَمْلَحًا

أَجْفُ . .

أَعْدُو يَابَسًا

تلفظني لأعين مغلقة على الغناء . .
والنَّحِيبُ .

(7)

وقفتُ في واجهة الوادي
وخفتُ أن يأخذني للبحرُ
اختبأتُ تحت شجرة الخروبُ
بكتُ معي
بكى معي المطرُ
وقهقه الحجرُ .

(8)

حملتُ فخِّي فوق فخذي
وانحدرتُ
كان السَّهْلُ واسِعاً فَضَعْتُ فيه أَلْفَ عَامٍ
ضَعْتُ
وانطرحتُ عندَ بابِ بئرٍ
جفَّ من سنينٍ
منذُ شَحَّتِ السَّمَاءُ بالمطرِ
عدوتُ ظامئاً
وزلَّ بي القدمُ

في الصّدعِ
فاتترعتُ ساقِي المحطّمةِ
جررْتُها معي
وعدتُ دونَ فحٍ .
دونَ صيّدٍ .

(9)

مَشَى معي القمرُ
معلّقاً فوقِي
«قلّطني» (3)
وكانَ كلُّ واحدٍ، وحدَه . .

(10)

أوغلتُ . .
كانَ في الطريقِ غولٌ شعرهُ طويلٌ
يسنُّ في الصوّانِ نابهُ
سلّمتُ . . ردّلي :
- «عليكمُ السّلامُ»
لولا أنّك ابتدأتَ بالسّلامِ
قبلَ أن تخوضَ في الكلامِ
لما سلّمتَ أو عبرتُ»

أَرْضَعَنِي مِنْ ثَدْيِهِ

قَلَّمْتُ أَظْفَرَهُ

قَبَّلْتُهُ

ارْتَحَلْتُ . .

يا خَطِيئَتِي الأَخِيرَةَ . . الأُولَى

كَرَّرْتُ هَذِهِ الحِكَايَةَ البَلْهَاءَ فِي أَيْلُولٍ (4)

فَانهَزِمْتُ .

(11)

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يِقَاتِلُوا

وَقَفْتُ عِنْدَكُمْ وَصَوَّرْتِي عَلَى جِدْرَانِكُمْ طَرِيَةً

دِمَاؤُكُمْ لَمَّا تَزَلُ طَرِيَةً

فِي جَسْتِي المَقْطُوعَةِ الرَّأْسِ بِسَاحَةِ المَدِينَةِ

المَنْسُوفَةِ الجُذُورِ والقَمَمِ

دِمَاؤُكُمْ مَهْدُورَةً

فَأَدْرَكُوا دِمَاءَكُمْ . . .

(12)

أَمْضِي إِلَيْكُمْ هَادئًا . . مُتَّزِنًا

أَغْرَسُ فِي عَيْونِكُمْ أَصَابِعِي

لَا تَهْزَأُوا

أرتدُّ
أمضي نحوكم
أزرعُ في قلوبكم بيارقي
أفتحُ في صدوركم دربي
أعودُ طفلاً منعماً بالحبِّ . . والقسوة
مزقتموني
تلعبون بي
ويعتموني
أيها الذين استسلموا
وأيقنوا أنني انتهيتُ . . معذرة
خيبتكم
وما زال في من أرواحكم بقيةٌ
فقاتلوا .

(بغداد - 8/2/1971)

سيلة الظهر*

اسمحو لي أيها السادة
إن حدثتكم عنها
فإنني من يدها . .
القهوة المرة أسقتني
وصبت لي نبيذاً
أنصت لي . .
قبلتني
وعلى كتفي أغفت
واستزادني حكاياتي عن الطيرِ المسافرِ
في سماء النار
- يا طيري المهاجرُ -
حُطَّ عندَ الكتفِ لمحَّةً
خُذْ لعينَيها من العازفِ والنَّايِ « المعنى » (5) نعمةً
خُذْ . . وانتظرنِي
إنني أجترحُ الصَّيفَ الذي تعشقه أمُّ الجدائلِ
... ..
من جبالِ الثلجِ والمستنقعاتِ
صيفُنا الطالعُ في كلِّ السَّمَاواتِ
وفي اللَّيْلِ

وفي عزِّ النهارِ

نجمَةٌ ظهريَّةٌ ليسَ يراها

غيرُ مَنْ يسحقُّ حتى الموتِ

مَنْ يمشي ذبيحاً . . ويقومُ

آه . . يا أمَّ «الخلَّيلِ»

سيلةُ الظَّهرِ التي غنَّتها

«سيلةُ بلدنا

والدِّما مزاربها . . طولَ الزمنِ

وأولادها غرب وحزاني

وضايعين . . مشتتين

الصحرا عافتهمُ

وحاراتِ المدنِ

جاني عليهم بابها وبوابها» (6)

آه كم واعدتها . . في الصَّيفِ قادمُ

فانظُريني عندَ كرمِ التَّينِ

في «تلِّ العصافيرِ» (7) أراها ليلكيَّة

حُلماً . .

سيفاً . .

أساطيرَ الليالي . .

القهوة

التَّارنج . .

والعشبَ . .
الندى . . .
والنَّعَ . .

والبخورَ . .
والجمَرَ الشَّتَائِيَّ . .
الهوى . .
والشوقَ . .
رؤيا ليلكية
- يا صبيَّة
نحنُ مذُكَّنَّا صبيِّينَ نُذرنا
فانتظرنا . . .
صيفنا الآتي على سنبله
شَتَّتْ حَبَانَهَا السَّمْرَاءُ فِي الْأَرْضِ الْأَعَاصِيرُ
فهاجرنا
وصدَّتْنا المهاجرُ
أنتِ بعدَ البحرِ مرسى
وأنا في البحرِ
موجُ البحرِ
لا يرجعُ . . أو يخشى المخاطرُ
أنتِ يا مكحولةَ العينينِ

من زيتوننا الغافي على طفلين
كنا . . والتقىنا

يا لنا . . .

في بالنا كانت حكايات كثيرة
لم نقلها

هربت منا . . إلينا

فارتعشنا

إذ طوتنا يقظة النار على سهل الشمال
أه يا ربح الشمال

حملت هباتك الحلوة منديلي إليها
شارة حمراء في مفرقها . .

يوغل الركب خفيفاً . . فرحاً

عاد من دوامة المنفى

على أكتافه

ينبت الفولاد

والبارود

في طلعتة زفت حمامة

يا عروسي بعد عشرين رحيلاً

ورحيلاً

ورحيل

لا تُلوميني
ففي خَفَقِ الخُطى عشنا على مرِّ السَّنينِ
نتحدَّى السَّوْطَ بالكلمة
والحرِّبةَ بالصدرِ المُعرَّى
ونَموتُ

ويعوتونَ ونحيا . . لنقاومُ
أيَّ مَوتٍ . . جهلتهُ الأرضُ
لَمْ يَخْطِفْ من الفتيانِ أحلامَهُمْ
ولَمْ نَهْزَمْهُ في عرسِ المعاصِرِ
زيتنا الصافي اعتصرناهُ

اعتصرناهُ

اعتصرناهُ

اعتصرناهُ

على ضوِّ النُّجومِ الحُمُرِ
من حَبِّ العيونِ
آه يا متراسنا الصامدَ في وجهِ الخنازيرِ «الرديَّة»
والدُّمى المحطومةِ السِّيقانِ
والأذرعِ
والجبهاتِ

يا عرسَ الدَّمِ المنصوبِ في أرضِ اليتامى
مجدي الزنْدَ الذي قطعهُ السِّيفُ

لُمِّيهِ إِلَيْكَ
فَلَقَدْ كَانَ حَرِيصًا أَنْ تَظْلِي

يَا نَبِيَّةُ
إِنِّي أَعْطَيْتُ
لَكِنَّ الْبَقِيَّةَ . . .

فِي غَدٍ
«نَذِرْ عَلَيَّ يَا أَصِيلَةَ
الَّذِي ضَايَلُ
مِنْ إِيْدِيهِ . . . وَمِنْ عَنِيَّهِ
فِدْوَةٌ يَا حَلْوَةَ . . .

وَهْدِيَّةُ
وَسَامِحِيْنِي» (8)
إِنْ أَنَا قَصَّرْتُ عِنْدَ السَّحْحِ
فَالْحَبْلُ انْقَطَعُ
وَالَّذِي يَرِبْطُنِي بِالْحَبْلِ شَرِيَانِي
وَرَمَشِي
أَحْتَرَقَا
فَهْوَيْتُ
رَثْتِي مَشْبُوكَةً بِالصَّخْرِ مَا زَالَتْ
فَمُدِّي لِي يَدُكَ .

(بيروت - 1971)

«عُزِّيَتِ القصيدِة اليَتيمِة إلى سبِعة عِشر شاعِراً ادَّعاها كلُّ منهُم لِنفسِهِ،
وسبب تسميتها بذلك ، أن أميرة عربية آلت على نفسها ألا تتزوج إلا بمن
يتفوق عليها في الشعر والقتال ، فلم يتفق ذلك لأحد مدة طويلة ، حتى
سمعَ بها أحد الشجعان الشعراء فجاء يطلبها ، ومرَّ بأحد أحياء العرب ،
فأضافه كبير الحي ، وسأله عن حاله فأخبره بما هو فيه ، وأطلعته على القصيدة
المذكورة ، وكان ممن خطب الأميرة سابقاً ، فحمله الطمع على تحطيم رأس
الشاعر بحجر إلى أن مات ، وأخذ القصيدة وانتحلها ، وذهب ليخطب
الأميرة ، وذكر أنه كفاء لها فقالت له : من أي الديار أنت؟

قال : من العراق .

فلما اطلعت على القصيدة ، رأت فيها بيتاً يدل على أن قائلها من تهامة ،
فصرخت بقومها قائلة : الزموا هذا فإنه قاتل بعلي .
فأخذوه وعذبوه ، فأقرَّ بما فعل ، فرجعوا إليها به ، فأمرت بقتله ، فقتلوه . .
وآلت على نفسها ألا تتزوج بأحد بعد الشاعر المغدور» .

(مجلة البيان الكويتية - سامي الكيالي)

أبحثُ عن شاعرةٍ على الطَّرِيقِ
أطرحُ كَفَيَّ عبرَ غابَةِ الأيدي
تعودُ لي فارغةً تُثقلها هُمومي
عشرونَ عاماً ليسَ في عروقها أغنية
أبحثُ عنها في مواكبِ النَّحلِ
وفي الشَّقِيقِ
في الحَنُونِ
في الغديرِ
في لآلئِ النَّدى

سألتُ عنها
مَنْ تُرى يدُلُّني؟
«عطشان يا صبايا»
فَمَنْ يَضُمُّني؟
سواك يا شاعرتي الغائبةَ العيونِ عن عيوني
أشتاقُ أنْ أنامَ ملءَ خاطري
وأنْ تهددني
أشتاقُ غيرَ أنِّي
تأكلني ظنوني
يخونني يقيني
عشرونَ . . . واثنانُ
وأنتِ يا شاعرتي توهِّجي الحزينُ في ضميري

وأنت لو عرفتِ يا قصيدتي العَصِيَّةَ المِلاَدِ
أنتِ . .

أنتِ . .

مستحيلِي الذي طَلَبْتُهُ وَكَانَ فِي جِيبِي
أَيَّةً . .

وَكُنْتُ فِيهِ فَارِسًا

وشاعراً

توارثَ الرُّوَاةَ - يا حبيبتِي - غناءهُ

وقدَّمَوهُ - دونَ أنْ أدري - على يديكَ

فانتشيتِ . . صَحَّتِ :

- «يا مسافرين في البوادي

قُولُوا لِكُلِّ شَاعِرٍ تَرَوْنَهُ

مَنْ قَالَ مِنْهُمْ غَزَلًا يَعْجِبُنِي . . أَحْبَبْتُهُ

لَكِنَّ مَنْ يَقُولُ غَيْرَ مَا أَحَبَّ

قَتَلْتَهُ»

وَكُنْتُ يَا حَبِيبَتِي . . جَمِيلَةً . . وَحَاسِمَةً

قَتَلْتُ كُلَّ شَاعِرٍ مَزِيفٍ

قَتَلْتَنِي بِسَيْفٍ وَاحِدٍ مِنَ الْمَزُورِينَ

كُنْتُ آخِرَ الْقَتْلَى . . وَأَوَّلَ الْأَحْيَاءِ

يَوْمَ أَغْرَقْتُ عَمَّانُ

- يا حبيبتِي - بالمطرِ الجوريِّ والسَّنابلِ

أيلولُ يا مزارعَ الحرابِ والمناجلِ
عرفتُ فيكَ مولدي
حلَّقتُ عندَ رأسها على الشِّمالِ
أكلُ الطَّرِيقَ راعفًا
غرَّبتُ يا حبيبتِي ولمْ أزلْ مغربًا
برغمِ أنِّي خطوتُ شرقًا خطوتينُ
طرحتُ خلفَ ظهري المطعونِ جثتي على الجُثثِ
أعلنتُ مصرعي
ومولدي
بلا خَجَلُ

فلاقني حبيبتِي
على ضفافِ النَّهرِ موعدِي وفي الجبلِ
بالتَّينِ . . . والدَّوالي
بشجرةِ الزيتونِ، بالترابِ
بطفلي المذبوحةِ الرُّسغينِ
بدمعةِ الأحبابِ
والشَّهيدِ
والعذابِ

أقسمتُ بالشَّبَابِ في تقاطعِ الشَّوارِعِ
وفي مخاضةِ النَّهرِ
بالليلِ إذ يضيءُ في الأغوارِ

في عيونك المحبّة الحنونُ
أنْ أزرعَ الرأيةَ في مضاربِ العَجْرُ
وفي مدائنِ الحَجْرُ
وتزهريْنَ أنتِ . . يا حبيبتي
في أفقنا الخضيبِ قمرًا
لكم يضيءُ في دمي القمرُ
علّقتهُ على «نیشان» بندقيّتي
أطلقتُ
ففتحَ عمانُ برههً
وأغمضتُ في غفوةِ الجريحِ . . قريتي
يا سيلةَ الظهرِ
أيارُ بيننا
ولعنةُ «حزيران»
أيلولُ . .
والفاشستُ يذبحونُ شعبنا
ويأكلونَ لحمَ طفلنا الشّجاعِ
بيننا العواصمُ العاليةُ البنيانِ من عظامنا
وبيننا الفولادُ
والنيرانُ
والموتُ في عيونِ ربّنا المئةُ
الغارقينَ في المساحةِ الكبيرةِ

المنفى

مناجمِ الجُنُونِ
والخُمُولِ
والذَّهَبِ

أَجْتَازُ . . . يا شاعرتي
مُدِّي يَدِيكَ
يا حَبِيبَتِي . . .
يُدْرِكُنِي التَّعَبُ .

(بغداد - 1971)

كتابات على راحة الصبية السمرء

(1)

بيروتُ مطرُ

والصوّتُ

الصوّتُ

الصوّتُ

العابِرُ صدرَ الفجرِ

وخيَطَ الليلِ

وصدري

والشجرَ العاري

الأحجارَ

الإسفلتَ

الريِّحَ

النَّاسَ

السَّفَرُ الدائمَ

والأحزانَ . . . مطرُ .

(2)

أغرقُ في الظلِّمةِ تحت ذراعك
أغطسُ
أرسبُ
تخنقني أنفاسك
أنت دخانٌ في رأسي
بركاناً كنت
انفجرَ
وهداً على خاصرتي
أحرقني
لم أصرخُ
غاليةً كلماتي .

(3)

أصبر . .
أتحمل
.. لا أذكرُ
.. لا أعرفُ
.. لا .

(4)

... .. وانهدتُ ذاكِرتي
ما في الكونِ سوى غرقي
وذراعُك لا ينجدني .

(5)

أطفو فوقَ المطرِ
وفوقَ الغيمِ
انشرختُ حنجرتي
لكن ..

مَنْ يسمعُ حيفا إن غنَّتْ
من يقرأُ مستقبلها ؟

في «تخت الرَّمَلِ» (9)

وفي الكفِّ الأسمرِ
بعدَ رحيلِ العرَّافِ وفي شفتيه السرُّ
الإيقاعُ

الأعيادُ

البحرُ

ومَنْ؟ يا حيفا

يحملُ للميناءِ الصَّعبِ البسمةَ

والرأيةَ؟

مَنْ يُرْسِيهَا فَوْقَ الْكِرْمَلِ؟
إِنْ قَتَلَ الْبَحَّارُ عَلَى أَرْصَفَةِ الْمَدَنِ الْهَمْجِيَّةِ
مَنْ؟

(6)

مَنْ يَبْكِي . . فليصمتُ
هَذَا زَمَنُ الصَّمْتِ
الموتِ الأيلوليِّ
المكتوبِ
على حَجَرِ الْإِنْسَانِ الْأَوَّلِ
فِي عَمَّانَ
يَخُونُ الْأَبَاءَ الْأَبْنَاءَ
الأحفادَ
ويبتسمونَ على مائدةِ السُّلْطَانِ
ويعضونَ .

(7)

ناديتك
فاجأني أَنِّي وَحْدِي
فِي جَبَلِ الشَّيْخِ
جِرْحٌ مُفْتَوِّحٌ - فَوْقَ الثَّلْجِ - قَدِيمٌ

وحديدٌ

صدأً

قلبي . . . كرةٌ تتدحرجُ
تجذبها رائحةُ الدفءِ النَّائمِ
بينَ الخدِّ . . . وبينَ الكفِّ
غرقتُ

حلمتُ بأنِّي الدفءُ

«الغورُ»

صحوتُ

فكنتُ بعيداً عنك

وكنتُ بعيدةً

وكنتُ غريباً عنك

وكنتُ غريبةً . . .

(8)

افتترقتُ كَفَانَا قَبْلَ سَقُوطِ المَطَرِ
سكنتُ الحَدَّ الفَاصِلَ بَيْنَ الظلِّ
وبينَ النُّورِ

فأغرقتني

وذراعك كان قريباً

يبس ذراعِي تحت الماءِ

فَمَتُّ . . وَعَشْتُ
بَعْدَ نَجْمِ سَمَائِكَ
أَتَنَفَّسُ
أَلَهْتُ
هَا . . إِنِّي أَسْنَدْتُ جَبِينِي
حَدَّقْتُ
أَجُوبُ قَرَارَ الْمَطْرِ
لَوْهَلَةَ حَبِّ
أَطُولُ مِنْ عَمْرِ الْبَحَّارِ الْعَائِدِ مِنْ بَحْرِ الظُّلُمَاتِ
إِلَيْكَ . .

(دمشق - 1971)

الموتُ خَلْفَ البابِ

أطرقُ البابَ

هزَّني . . متُّ

طرقهً طرفتينُ

وانفتحُ

حارسُ الحيِّ غائبٌ

والقناديلُ

والنوافذُ

الوجوهُ

والخُطى

الريِّاحُ

والصَّغارُ

والمطرُ

- وعلبةُ الثَّقابِ في يديَّ -

حولَ جِثِّي نيامٌ

فَتَّشتُ في جيوبي

فَتَّشتُ في الجدارِ

والظُّلالِ

والفَراغِ

وانحنيتُ فوق رُكبتِيَّ
ما وجدتُ وجهيَ القديمَ
أين؟

أين؟

لم تُجِنِّي شفةُ الجدارِ
وظلَّ صوتي وحدهُ الحوارَ
والصدى

ولعبةَ الحصارِ

وارتمى مصدعاً

وشاحباً

ودارَ دورتين متعباً
وسارَ في الظلامِ - بعدُ - خطوتين -
وأطلق الرصاصَ
- مَنْ هناك؟

مَنْ؟

هوى ولم يزد بحرفٍ
وأوقف الشرطيُّ عابراً

... ..

مستفسراً

- مَنْ أينَ يا ترى القَتيلَ؟

ليسَ في جيوبه هويةٌ

وليسَ من سَكَانِ هَذَا الْحَيِّ

لَيْسَ . . .

- لَمْ يَمِرَّ قَبْلُ . .

- لَمْ نَرَهُ

وَأَوْمًا الشَّرْطِيِّ لِلصَّغَارِ

وَالكِبَارِ

وَالقَطَطُ

لَكِنَّهُمْ هَزَّوْا رُؤُوسَهُمْ

وَابْتَسَمَ الشَّرْطِيُّ .

(دمشق - 1971)

اعتراف

أَعْتَرَفُ
بَأَنْنِي أَخْطَأْتُ عِنْدَمَا قَوَّسْتُ قَامَتِي
وَانْهَرْتُ
هَذَا هُوَ السُّؤَالُ
أَعْتَرَفُ
بَأَنَّ مَوْتَهَا كَانَ عَلَى يَدَيَّ صَدْفَةً
وَأَنْنِي بَدَلْتُ طَاقَتِي
سَكَنْتُ فِي وَرِيدِهَا
أَسْقَيْتُهَا دَمِي
وَذَاتَ لَيْلَةٍ فِي شَهْرِهَا التَّاسِعِ
قَتَلْتُهَا . . وَنَمْتُ
أَيْقَظَنِي الصَّغِيرُ فِي مَتَصِفِ الطَّرِيقِ
خَذَلْتُهُ
قَفَزْتُ نَحْوَ قِمَّةِ الْجَزِيرَةِ
انْتَظَرْتُهُ . . اخْتَفَى
بَحِثْتُ عَنْهُ
كَانَ فَوْقَهَا يَمِصُّ ثَدْيَهَا
وَكَانَ مَيْتًا . . وَكُنْتُ . .

أعترفُ
قبلَ هنيهةٍ من موتِها
أُحبُّها
أبني لها قصراً
ومعبداً
أسخرُ الزَّمانَ
- يا أبي
قتلتُ . . فاحمني
مطارداً أنا
وخلفي الضحية .

(دمشق - 1971)

عن القمر الأحمر والقراصنة

أوصيتكم

مذ لوَّحتُ يدايَ للسَّفائنِ المحترقة

«البحرُ من ورائكم»

والزَّمنُ

الحصارُ

والرَّجوعُ

موتكم

لا تزرعوا رماحكم في البحرِ

ويلكمُ

أكلتمُ قلبي على الطَّريقِ

علقتُمُ رأسي مشهراً به في الوطنِ الفضيحة

وجشتي تحرثُ في عيونكمُ

تقلُّبها

تخلعُ من قرارها الرجعةَ والهزيمة

يا جوقَةَ الأمواتِ

حرَّمتُ عليكمُ الخُطى

والغربُ

والبصيرةُ

حرَّمتُ عليكمُ الأحلامُ بالمسيرةُ

وحُلِّلتْ لَكُمْ دِمَاؤُنَا

أَلَا اغْرُقُوا

فالقمرُ الأحمرُ في أكفنا التي تطيرُ في مدارِ الغدِ

والطفولة . .

ماذا أقولُ عن أحبَّتي القتلى

وعن أحبَّتي المحاصرينَ . . ؟

والكلامُ ميتةٌ . . تجيِّفتُ

. . . وأخنتُ

والأسمرُ الذي شنقتموه

في المدينة السَّمرَاءِ

والذي قتلتموه عندَ سورِ السجِنِ

والذي مثَّلتُمُ بهِ

نطقُ

- القمرُ الأحمرُ فوقَ بيرقِ القراصنةِ

يعبرُ من غمامةٍ . . لَعِيمةٍ

يصبغُها من لونهِ

ويهجمُ المطرُ

.

.

- ماذا يقالُ في قبورِكم؟

عن الذينَ زلزلوا عظامَها

- غداً سيكبرُ الصُّغارُ

- أجلُ

أوصيكمُ أنْ تعبرُوا دمي

قاتلتُ دونكمُ

أدرتُ نحوكمُ عيونيَ التي ما أبصرتُ

سوى الغبارِ في نهايةِ المدى

فُتلتُ

- ويلكمُ

صرختُ ردَّ صوتكمُ مع الصدى

خذلتنا

وهكذا حُكمتُ

- ماذا أقولُ للذينَ يحملونَ في صدورهمُ وسامنا؟

هل أبلعُ السكينَ؟

أم أبصقُ السكينَ في وجوهكمُ

يا قَمري الأحمرَ

يا هزيمةَ القراصنةِ

لن يصلوا إليك يا وسامَ جيلنا

وكلَّ جيلٍ

الموتُ للقراصنةِ .

(دمشق - 1971)

عمّان (72)

... وأخيراً

... ..

ها أنت تُرَدُّ أخيراً للأرصفة المأكولة

مقهوراً

في الذاكرة المفقودة

موجوداً

في قائمة القتلى

والمفقودين

أراك

وأبحثُ عنك

وتعبرنا الأشياءُ

ولا أتلمسُ وجهك

أو تعرفُ أنني أشتاقُ إليك

كما في الأيام الأولى

أو يوم الوقفة في الميناء الغارق في بحر الكلمات

وداعاً يوم لقيتُك

يا فرحي الغائب في النسيان

وأسألُ عنك

أراك . . أكادُ أقبلُ كتفك

ذيلَ ردائكَ
أجثو قربَ حذائكَ
أتنفسُ رائحةَ الأرضِ الغربيةِ . . والشرقيةِ
وأقبلُ فوهةَ الرَّشاشِ الحمراءَ
أكادُ الليلةَ أتعثرُ

يا ويلي . .

لا تلقاني الأرضُ
ولا تسندني الأذرعُ
أو حتّى أنتَ تغيبُ، وأسقطُ
أخسرُ خطواتي

أمشي للخلف على رأسي

فإذا حوصرتُ

أراوحُ . . أو أغفو

وأراكَ

أحبكَ

أحلمُ أنّكَ تاريخي

أو أنّي أنتَ

وأنَّ اليومَ غدٌ

عمّانُ وأنتَ

عمّانُ وأنتَ فدائي . . وميليشيا

أستيقظُ

أشرعُ صدري
ألقاكُ
وأضحكُ
نمضي
عمَّانُ ونحنُ على موعدُ
في جبلِ النَّارِ.

(دمشق - 1971)

كلمات لم تحترق

«على التلّة، وبينما كانوا يمثّلون بجثّة الفدائي طارق بعد أن أحرقوه . . عشروا
في بقايا النخاع على وريقة زيتون خضراء . .
وبرغم أنّهم تفحصوها جيداً، وتحت المجهر إلا أنّهم عجزوا عن قراءتها،
فألقوا بها على التلّة .
وفي ليلة خريفية حملتها الريح إلى الفدائي المعنونة باسمه، فقرأ ببساطة :
إلى أ . ف . .

وتابع القراءة . .

والمحُّ تحتَ جبينك أنّك ودّعتني
وانتهيتَ

استدرتَ

وخلقتني في الترابِ

وكومتته في فمي

لم أقلُ

لم أردّ تحايا الوداعِ

ابتسمتَ

وتابعتَ

لم تلتفتُ

كدتُ أحسبُ أنّك كالآخرينَ

الفجیعةُ أَنْكَ مَنْيَّ
وَأَنْيَّ بَدُونِكَ فِي بَرَهَةِ الْمَوْتِ
كَالْآخِرِينَ
أَعِيشُ . . وَحَوْلِي تَبْكِي النَّسَاءُ الْغَرِيبَ الْمَمْدَدَّ
وَالْعَابِرُونَ يَحَارُونَ
أَيَّ الْأَسَامِي عَلَى وَجْهِهِ يَكْتَبُونَ
وَاسْمِي تَخْبِئُهُ أَنْتَ فِي رَاحَتِكَ
وَتَمْضِي
عَلَى مَنْكَبِكَ تَشْدُ بِيَارِقَنَا الْحُمْرَ
فِي قَدَمِكَ السَّلَاسِلُ
تَابِعْ
فَدَيْتِكَ
فِي الشَّرْقِ أُحْرِقْتُ
خَذْ مِنْ رَمَادِي
وَخِيِّمِ بَعْمَانَ . . وَاعْبُرْ إِلَى الْغَرْبِ
أَطْعِمَهُ لِلرَّيْحِ
وَاجْبِلْ بِهِ الْأَرْضَ
وَاعْصِرْهُ تَحْتَ الْيُنَائِعِ
تَجْرِي دَمًا
يَا دَمِي . . أَنْتَ
فَوْقَ يَدَيْكَ دَمِي

وعليكَ
في مقلتيكَ
وفي قربتكَ.

(دمشق - 1971)

الجدل في منتصف الليل

(1)

تمتم لي في الشّهقة الأخيرة
أودعني ما لم يبح به في عمره القصير
لم تسمعوا
في وهلة انفجار الصوت
والدموع
لم تروا في مقلتيه الصحوّة القتيلة .

(2)

وظل مسجّي على ساعدي
أهلت عليه التراب
ولم أبكه
كنت وحدي
وكنتم تغيبون حولي في الطرقات الغريبة
وعلقت حزني على القبر
للمت عنه الحصى
وارتحت
عباءتي الدم
تحت إزاري أخفي بقاياهُ

حربته
وحزام الذخيرة
والبنديقه
والكلمات الجليلة .

(3)

تلفتُ لما انحدرتُ إلى السّفحِ
كانتُ منازلُكمُ في الحريقِ
وكنتمُ تنامونَ
والنّارُ تاكلُ أطرافكمُ
وقلبي على الجمرِ
جسراً يصيرُ
ولا تنهضون
وأخلعُ عن كتفيّ العباءةَ
ألقي بها فوقكمُ
وأعصرُ في قبضتيّ الدّخانَ
مواسمَ برقٍ
ورعدٍ
وزخٍّ مطرٍ .

(4)

تَحَلَّقَ حَوْلِي الصَّغَارُ
وعانقتهم . .
عانقوني . .
وأطعمتهم من صواني النحاسِ
وأطعمتهم من حزامي
ولمَّا رَسَى فِي المَزَادِ سِلاحي
اشتروني
وما ساوموا
خَبَأُونِي بِأضلاعِهِمْ
سَيَّجُوا سِرَّهُمْ
وَابْتَنُوا حَوْلَهُ قَلْعَةً
صخرها . . لحمهم
طَوَّفُوهَا بِبِحْرٍ مِنَ الدَّمِّ
فِي بَرَجِهَا رَايَةً
فَوْقَهَا نَجْمَةٌ
أوقدوها - فما تنظفي - من عيوني .

(5)

أَجِيءُ وَفِي جِبْهَتِي الشَّمْسُ
أولدُ فِي الغَرْبِ

والشرق

أغمر كل المحاور

تهوي جبال الحديد

ويختزل العمر

نكبر

تنمو على الصخر

والبحر

زيتونة مرج نار

ونور

وقوس قرح .

(6)

مرحبا أيها القادمون بكل المدائن

حطوا رحالكم . . ههنا خندق

يلتقي عنده - من رؤوس الشعاب -

حجيج البنادق

يا ويلهم

يجهلون التواريخ

لا يلمحون بريق الحراب

على الأفق

لا يسمعون البراكين

تهدرُ تحتَ الخطى

«يا هلا»

وامتطوا الرِّيحَ

نادى بكمُ صوتُهُ

عبرَ كلَّ الحناجرِ

هذي السَّهوبُ استوتُ

وانتحتُ للمناجلِ .

(7)

أقولُ لهمُ : أشنقوني

وبي مثلوا

زيقوني

فلي جبهةٌ لا تموتُ

ولي مولدٌ تحتَ كلِّ السُّقوفِ التي هدمتها القنابلُ

بكلِّ الظهورِ التي مزقتها الحناجرُ

وإنْ تقتلوني

فلنْ أنحني

وأنتمُ تموتونَ دُوني .

(8)

أقولُ لكمُ : أيُّها الزّاحفونَ

أنا بعضكم
حامل بين عينيَّ وسم الشهادة
ماروضوني
ولن يهزموني .

(دمشق - 1971)

تغريبةُ بني خولة

غرَّبي أيتها الريحُ التي تقلعُ من عينيَّ أحزانَ
المنافي

واحمليني

إنَّني الحزنُ الذي تلبسهُ الصَّحراءُ مذ كانتُ

وإنيّ - وطني المنفيُّ والمنفى - الملايينُ الجياعُ

شجرٌ يولدُ في اللَّيلِ

وفي الفجرِ - على النَّاي - يُبرعمُ

ودمًا يرمي على مدِّ المواسمِ

إيه والبتُّ التي أعشقتها

«خولة اسمها

وسيفها مكسورٌ

وحجولها

وحزامها بولادٌ

وعكتافها انحلتَّ جدايلها

يا حسرتي . .

ومطوِّقة بالبحر والصحرا

ومُسَمَّرة من سنين

من عشرين . .

من مئة . . وألفُ

حراسها حفنة حرامية وغربية
التفوا عبوها، وعمّها، وخالها
غربه
وشرقه

هبي دوري» (10)

غربي أيتها الريح التي تغزل لحمي
بسطاً

يركبها السلطان من بحر، لبحرٍ
واسحيني
- يسقط السلطان -

وابني قامتي

دوري

اطلقيني

مارداً أنفث من جرحي ناراً
ونيازك

أحرق الأخضر واليابس في الدرب إليها
فالتى أعشقها . . صاحت
«خذوني . . واشتروني

افتدوني يا رجالي

يا اللي أغلاكم فداني

مفتداي اليوم غالي» (11)

غربي في الشرق ميلاد كلينا
وكذا الصوت الذي أسمعهُ
يذبح الصوان
والليل

وقطاع الطريق

ويدي المشلولة الأعصاب
والكتف المهلّل

وجبيني ختموا ساحته «شيك» مياسم

ميسم أني خنت

ميسم أني عبد

ميسم أني مت

غربي إني - انتفضتم قبل ميلادي -

وبعد الموت أنهض

مارجاً في حبة الرمل

وفي الزيتون

في القمح

وفي الثوار

أصعد

«هللي . . وارخي على الديرة الجدائل

غندري بالدم

يا فخر الأصائل

جبهتكُ

وتحنجلي

شديت ظهري بالنشامي

والمهْرُ جبتُهُ معي

راسي على كفي ويدي منجلي

ويا ميجانا

لولا عيونك عاجلبل ما اطلعت أنا

صوبك عالقيبات (12) طَلِّي (13)

غربي . .

جيلاً . . على جيلٍ يرُّ

مقاتلاً بيني مقاتلُ

وانسجينا

خيمةً

ثوباً

وأعلاماً

وخبزاً

ودواءً

وحبالاً

نحنُ شرِّقنا

اغتربنا

وخسرنا

وخسرنا

وخسرنا

ونزفنا عظمنا ثمَّ وُلدنا

وولدنا

وولدنا

وولدنا

نحنُ الرِّيحُ التي نعتقُ

والغربُ

وخولة.

(دمشق - 1971)

مواويل بحرية^{٦٤}

غَنَيْتَهَا مَعَكُمْ - غَدًا - عَلَى الْبَابِ

يَشْتَاقُنَا السُّمَارُ

وَالْمَوَاقِدُ الْمَنْطَفِئَةُ

وَالدَّبِكَةُ الْمُقْطُوعَةُ السَّيْقَانُ

وَالْعَيْدُ . .

وَالْهَدَايَا

وَحَلَقَةُ الصَّغَارِ

وَالْحِكَايَا

يَشْتَاقُنَا الْحِدَاءُ

وَالْعَتَابَا

وَقِصْبُ «الرَّغُولِ»

وَالرَّبَّابُ

وَالشَّبَابَةُ

وَالْأَرْضُ

وَالْمَشَاعِلُ الصَّابِرَةُ الْمُتَنْظِرَةُ

وَأُمْسِيَاتُ الْأَهْلِ

وَالْحِصَادُ

- «يَاللِّي حَوَالِيكُمْ بَحْرُ

وَالْبَرِّ مَرَسَاكُمُ

شقا . . ومحرووم . . وملّوعُ

- «هيلا . . هيلا . . هيلا» (14)

يا بحر . . هيلا . . خي»

- تأمرني الرّيحُ أن أشدَّ الأشرعةُ

وأن أغيرَ الطريقَ

فالموانئُ اختفتُ

وانطفأَ الفنارُ

- يا بحارتي

فالمعدُّ مكتوبٌ على وجوهكم

أن تركبوا البحرَ

وأن يحبكم

أن تطعموا البحرَ وأن يطعمكم

وأن تكونَ النجمةُ الحمراءُ فوقكم دليلكم

وأن تنبجسَ الدماءُ في قرارةِ السفينةِ

وتوغلَ الدفةُ في الجليدِ والصخورِ

شدّدوا القبضات . .

والزنودَ

والقاماتِ

و«اكربوا» (15) الحبالَ

فالجبالُ في الشواطئِ الحزينةِ البعيدةِ

«بتنده على الغيابِ»

- يا راكبين البحرُ

والليلُ والغربةُ

يا عاشقين التعبُ

والموتُ

والفرحةُ

مدوّا إيدكم عالعبدُ

إحنا بنستنى

والصبرِ صابرُ معانا

الزمنُ

والشوقُ

والحنةُ

والجوعُ مصراً زغارنا

وزوآدته منّا

- هـيلا .. هـيلا .. هـيلا

يا بحرُ .. هـيلا .. خـي»

- تعرفنا دفاترُ البحارةِ العرقى

وذكرياتُ الحربِ

والقلاعُ

والسجونُ

والمطابعُ السريّةُ

وساحةُ الإعدامِ

في مقابرِ المدائنِ السَّيِّئَةِ

تعرفنا

في الوقفةِ الأَخيرةِ المقاتلةِ

بالصَّمتِ

والعيونِ

والإيماءِ المتبسِّمةِ

والصرَّخةِ العتيقةِ الملوَّعةِ

تعرفنا

ونعرفُ المخبوءَ خلفَ السَّمرِ الزائفِ في الأعيادِ

والمواسمِ العجفاءِ

والمقامرةِ

والرعبِ

وارتعاشةِ الجفونِ قبلَ الموتِ

خلفَ الأقنعةِ

ونقرأُ الطالعَ في جبينِ الطِّفلِ

والعذراءِ

والجزائرِ المبعثرةِ

وتقرأُ البروقَ خلباً . .

وماطرةِ

- يا أيُّها الرِّحيلُ في شتاءِ البحرِ

والأسى

وفي مساءِ الوطنِ الشرقيِّ
والغربيِّ

يا رفيقنا القديمِ

ضمّنا

ولا تخلنا في لُجّةِ المحيطِ

نقذفُ المرساةَ قبلَ اليابسةِ

- يا صوتها العابقَ بالترابِ

والليّمونِ

والزيتونِ

والدمِ الطريِّ

والسّينِ

والهوانِ

والزعتريِّ

- «يللي رحلتوا الصبحُ

قبل الشمسِ

والطيرِ

بندهَ عليكم بالوما

غصتُ حناجرنا

والهم هاددُ حيلنا

والسعد من بعدكم يابسُ

وهاجرنا

وسهولنا رمل

وحصى

وبورة حبايلنا

وقطايئنا

وخلايلنا

والدار قفرة، والمزار بعيد

وناظرنا

طلوا

حبايكم . . حبايلنا

هيلا . . هيلا . . هيلا

يا بحر . . هيلا . . خي

- تخبرني النجوم أن الطرق البحرية

تنسد مرة بالجزر الثلجية

ومرة بالليل

والضباب

والحيتان - مرة -

والخوف

والمسافة التي تقوم بين الكلمتين

لا . . نعم

لا . . نعم

وبالندم

تنسُدُّ . . . والسُّقُوطُ

- يا بحَّارِتي

اقذفوني في البحرِ - كلُّ ما يثقلها -

الشيَّبُ

والخمرُ

والأحزانُ

والجُثُثُ

وعلِّقوا العطشُ

فالرحلةُ المفتوحةُ الصِّدرِ لكمْ

عروا لها صدوركمْ

وأبحروا

في الزمنِ الآتي يُفْتَحُ الأعمى

وتعطي العاقر

- يا بحرُ . . . يا معانقِ الشيطانِ

والبحارةُ الشجعانِ

«والغلابا»

«دربِ البحرِ صعبةٌ

ورفايقكمْ

عالموجُ خلوا علامةً

مبيضةً منهم

طيرٍ طوى الجنحينِ وعالشطُ ما غنى

- « هيلا . . هيلا . . هيلا
يا بحرُ . . هيلا . . خيُ »
أقرأُ في العلامة الدلالة
أقرأُ في بقايا الخشب القديم
والصوّاري
عن سرِّ غرق السفائن الأولى قبيل البرّ
السرف في الربابنة
وفي الطواقم العاجزة المكابرة
- ينشقُّ عنا المدُّ
والأنواءُ
والإعصارُ
تنشقُّ عنا النارُ
والشجرُ المحطوبُ
والأحجارُ
والأسرارُ
والخطرُ
- « هيلا . . هيلا . . هيلا
يا بحرُ . . هيلا . . خيُ »

(دمشق - 11/12/1971)

هوامش :

- (1) السيلة : سيلة الظهر - قرية الشاعر .
- (2) العسلية : جرة صغيرة من صناعات غزة الفخارية .
- (3) رافقني بالعامية الفلسطينية .
- (4) أيلول الأردن .
- (5) لحن ريفي .
- (6) بالعامية .
- (7) مكان في القرية .
- (8) بالعامية .
- (9) بالمدلول الخاص بالتخطيط للعملية العسكرية .
- (10) بالعامية .
- (11) من المناحة الفلسطينية بتصرف .
- (12) جبل صغير يشرف على قرية الشاعر .
- (13) بالعامية .
- (14) المواويل من وضع الشاعر .
- (15) شدّوا بالعامية .

وشاهراً سلاسل
أجىء

«الإهداء إلى ناجى علّوش»

مواصلة الخروج على قرار التصفية

عَصِيَّةُ الْمَغْلَاقِ بِنَدَقِيَّةِ الْمَحَاصِرِ الَّذِي يَسْكُنُنِي

عَصِيَّةُ دَمْعَةٍ مِنْ أُحْبٍ؟

عَصِيَّةٌ بِسَمْتِهَا

كَلِمَتِهَا

يَجِيئُهَا الدَّمُ الَّذِي يَفِيضُ مِنْ جَبِينِهَا . . . وَمِنْ يَدِي

فَتَرْتَدِيهِ . . .

آه

ثُمَّ تَخْتَفِي حَيْبِيَّتِي

وَعَنْ حِجَارَةِ الطَّرِيقِ تَمَّحِي قَوَافِلَ الْمَسَافِرِينَ مِنْ أَحَبَّتِي

أَسْمَاؤَهُمْ

أَشْيَاؤَهُمْ

وَذَكَرِيَاتُهُمْ تَغِيبُ

- أَنْتَ وَحَدِّكَ الَّذِي صَادَقْتَنِي

وَلَمْ أَبْحُ بِسَرِّنَا

أَقُولُ:

لَنْ تَطُولَ جِلْسَتِي إِلَيْكَ

رَاحِلٌ فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي يَمُوتُ فِيهَا إِصْبَعٌ عَلَى الزُّنَادِ

يَا صَدِيقِي الشُّجَاعَ

لَنْ يَصَلِّيَ أَحَدٌ عَلَيْكَ فِي مَسَاجِدِ الْقُرَى

ولن يقول قائلٌ عن الذي جرى
والمرأةُ التي تبكي
ستبكي ليلةً
وترتدي السَّوادَ سنةً أو سنتينِ
سوفَ تفقدُ الوجهَ الذي تَعبتَ في ترميمه قَبيلَ أنْ تخسرَ
هَبَّتْ نَسْمَةً على جبينك المرهقِ
كانت يدُها في ذلكَ المساءِ تَرتوي من عَرقي
... وآه إنني أنهدُّ تحتَ قسوةِ الحنينِ .. والضحىُّ
لو مرةً ألقاكِ .. يا حبيبتِي
أراكِ لو ..
وأختفي
لو أنني أخترقُ الحصارَ مرَّةً
لكانَ لي ... ووطنٌ ..
مريرةٌ رائحةُ الحليبِ ... جثةٌ .. ودَمٌ
لا تبتعدُ
ينفضُّ عنكما الزَّحامُ
تخلو الساحةُ الآنَ من الرُّمَّةِ
وحدكِ أنزعتَ قَربَها
تسرَّبَ الغروبُ كالنَّدى إليكِ
فالتفتُ

واستدرتِ كالمحاربِ المهزومِ فوقَ الحربَةِ اللامعةِ النَّصلِ

سَطَعَتْ

أَيُّهَا الطِّفْلُ الَّذِي يَجُوعُ بَيْنَ الْجُوعِ . . . وَالْقَتِيلِ

رَمَلٌ سَادِرٌ

مَدِينَةٌ مَغْلُوبَةٌ . . . حُبْلَى

صَدَى

عَمَّانُ فِي حَيْفَا . . . قِصِيَّةٌ

وَنَخْلَةٌ مَجْزُوزَةٌ الضَّفَائِرِ

أَنْتَبَهُ . . .

- هَلْ يَخْسِرُ القَتَى الَّذِي سَاكَنْتُهُ جِلْدِي طَوَالَ العَمْرِ

كُلُّ شَيْءٍ؟

بَارِدٌ آخِرُ لَيْلٍ فِي شِتَاءِ العَامِ

نُجْمَةٌ وَحِيدَةٌ تَعْزِفُهُ عَلَى خِيُوطِ المَاءِ

ارْتَعَشَتْ ذِبَالَةُ الفَانُوسِ

مَا الَّذِي يَبْحَثُ عَنْهُ جَامِعُ القِمَامَةِ اللَيْلَةَ قَبْلَ أَنْ يَفْجَأَهُ

الصَّبَاحُ؟

تَصْعَدُ فِيكَ يَا حَبِيبِيهَا الأَرْضُ

المَرَاغِيءُ المَهْجُورَةُ

الأشْرَعَةُ

الحِجَارَةُ

الشَّمْسُ

الشُّطَايَا

القريةُ

الحرائقُ

الحبُّ الذي يغتاله الصَّمْتُ

الرَّصاصُ

الحبرُ

والمشانقُ

الدَّعوةُ للحوارِ بينَ القتلِ . . والأطفالِ

وظلَّت الشمسُ على شفيرِ الشَّجرِ العريانِ

إذ تسوَّلَ المرءُ دونَ حاجةٍ

وتابعَ الجباةُ شتمَ سائرِ المواطنينِ

لنْ يفتقدَ الباصُ الذي يمرُّ عبرَ حينا وجهكَ

إذ تتابعُ الإذاعةُ البرنامجَ اليوميَّ

دونَ أنْ تقولَ خبراً عن سيلةِ الظَّهرِ التي لن تخلعَ السَّوادَ

أو تكفَّ عن بكائها القديمِ

منذُ زمنِ القطيعةِ الخاسرِ أنتِ . . أو أنا

والحبُّ

وحدها تبقى على مشرحةِ الرِّيحِ

تحتَ ثديها يلعبُ بالمباضعِ المقامرونُ

- هل سمعتَ الصرَّخةَ التي تعبرُ لحمها إليك؟

- يحسبونَ صوتها في الورقِ اللِّعينِ

- أيها العشاقُ إنَّهم يُحاصروننا

وشاهراً سلاسلِي . . أجيء . .

استند الآن إلى المائدة المثقوبة السطح

وبل شفتيه بالنيبذ

انتشرت رائحة الحناء

والدم الجريء

والحصاد

نقر العزف زجاج كأسه الفراع

أن

ابتسم المسدس - الذي رافقه إبان موسم الأغوار -

دس في الطاحون طلقة

توقف الحوار

لم يعد يحتمل انتظاره الطويل

واصل الإحساس بالخسارة

الصوت الذي لاحقه

توقفت نبرته على الفراغ

أو على الزناد

بين ظله واليأس . . يضحك المقامرون . .

- امرأة مجهولة ترمي وليدها الجديد فجأة

تحترق اللقافة الأخيرة الآن على منفضة الفخار

- هل شربت نخبنا؟

- شربت نخبنا على دمي

اكتبَ آخرَ القصائد التي يقيمُها الرقيبُ في غيابِ وطني
يُقامرُ الذين بعثروا أشلاءهم

خسرت أنت يا أبي

ويا رفيقي الذي ما عادَ من رحيله الأصيل
طالَ موسمُ الذين يعبثونَ بالذي خسرتَ قبلَ أن يكونَ
تقلصتُ قبضتَهُ

أنحني يقرأُ فوقَ الورقِ المبعثرِ افتضحَ خدعةُ المقامرِين
إنه يغضبُ قبلَ أن ينهضَ حاملاً أسأهُ
بينَ إصبعيه الحبلُ
شده . .

فانفرجَ الستارُ عن شبَّاهه المسكونِ بالمؤامراتِ
لو يُديرَ وجههُ إليّ ما تركتهُ يطلُ

إنهم يجهِّزونَ للحريقِ الكتبَ

الخرائطَ

الأطفالَ

يُحبطونَ سديانَهُ

ويكتبونَ

- لا يمرُّ من هنا المرشدُ الفقيرُ

والمقاتلُ

الأسيرُ

يسمونَ في الشوارعِ الحمراء

إذ تخاطُ في عيونهم علامةُ العرَّابِ والشرطي . . . والسفيرُ
بالذي اغتالوه . . . قبل أن يمرَّ

ما الذي يُراد بالأسلحة التي تطلُّ في القاعاتِ؟

يا فصيلةَ السَّلامِ (1)

إنَّ خيلكم سمينَةٌ تنكرُ جوعَ أهلها

ذاكرةُ الدِّماءِ . . . لا تخونُ

اختبأ اللُّصوصُ تحتَ لونه في وهجِ العبارةِ

انطَلتُ عليه الخدعةُ العاديَّةُ

- انطويتُ

جرسُ الإنذارِ في يدي (الجرمق)

(الرمال)

بابُ عكا شرَّعَ على الجراحِ

أو لَمَ المقامرونَ

أبرقُوا بأنني خسرتُ

انفتحتُ مكاتبُ المطارِ

مَيَّزوا التذاكرَ التي اشتروا بالعطرِ

والحقائبَ السَّوداءَ بالوثائقِ الممهورةِ البيضاءِ

هل تختلطُ الرؤيةُ أم ينسحبُ الليلُ على النهارِ؟

تنغلقُ الأبوابُ بين الشكِّ . . . واليقينِ

الرَّهبةُ المقيمةُ التي أعرَفها

تنسلُ

يرتمي الآن على الرّصيف مُجهداً
والعرقُ المهذورُ نقطةً فنقطةً
يجفُّ قبل أن تشربهُ حبيتي
صبيّةٌ في جسد الصُّخور
فوق ساعديه الحلم الذي يسيلُ منه الدّم
فاجعٌ وعيٌ أولئك الذين يدركون باكراً
ويصمتون كالشهود في جريمة يحومُ حولها الجناةُ في أودية
القضاة

يدورُ بين الطَّلقة المشغوفة - اللَّحظة - الزناذ
لو أكف عن تساؤلي
أستسلم الآن على يديه
شدني إليه

راوح القرارُ بيننا
تتعب إذ تجيء أو تروح بين الدّم والإضبارة
الأسئلة التي تلاحقت
تأكلُ كالمنشار في الذّهاب والإياب عَظْمَهُ
واستأنف التّقل الرّتيب بين صدره . . وصدريه
وودّ لو يصرخُ
كنتُ واقفاً
يخجلُ أن تندّ عنه نائمةٌ
كأبرتُ

هل يظنُّ أنِّي خذلتُهُ؟

أوماً . . فاعتذرتُ

لم يعلِّقُ

واكتفى بأنْ تَجَرَّعَ اللَّيْلَةَ كَأْسَهُ الْأَخِيرَ

مَرَّةً خَمْرَةَ آخِرِ الْأَيَّامِ

إِنَّهُ يَتَابَعُ التَّحْدِيقَ فِي الْفَرَاغِ

وَاللُّوْحَاتِ وَالْكَرْسِيِّ

تَحْتَ مَرْفَاقِهِ الضَّحْكَةُ

الْحَوَارِ

صَمْتُ خَائِفٍ مِنْهُ وَخَائِفٍ عَلَيْهِ

شَدَّ حَوْلَ خَصْرِهِ حِزَامَهُ

وَكَانَ وَاثِقاً

بِأَنَّهَا تَكُونُ بِانْتِظَارِهِ وَحِيدَةً فِي قَلْعَةِ الْحَدِيدِ

أَبْحَرَ الْعَجُوزُ خَارِجَ الدَّائِرَةِ الَّتِي وَقَعَهَا الْمَقَامِرُونَ

بِالطَّبْشُورِ

مَا الَّذِي تَقُولُهُ الْجَرِيدَةُ الرَّسْمِيَّةُ اللَّيْلَةَ فِي الْمَرْبَعَاتِ؟

رُدَّ عَنْ وَاجِهَةِ الْأَحْزَانِ رَاحَتِكَ

تَفْضِحَانِ بَيْنَ الْمَوْتِ . . . وَالْوِلَادَةِ . . . الْغَرِيبَةَ

السَّقُوطِ فِي عَذَابِكَ السَّرِيِّ

أَنْتَ وَحَدِّكَ اللَّيْلَةَ مَرْهُقٌ كَحِزْنِهَا

طَاغِيَةٌ مُقَابِرُ الْأَطْفَالِ لِحِظَةِ الدَّفْنِ

تَجْمَعُوا . . . وتمتموا شيئاً . . . وغادروك
وحدك ارتميت هادئاً
كبرت مرةً واحدةً كالليلِ دونَ أرضِ
ضُمَّهَا إِلَيْكَ
ضُمَّهَا قَبِيلَ أَنْ تَغِيبَ
ضُمَّهَا مِنَ الزَّمَنِ الْجُورِيِّ . . . وَالْأَخِيرِ
يَنْعَقِدُ الدُّخَانَ هَالَةً ثَقِيلَةً كَالرُّعْبِ
يَصْعَدُ فِيكَ الشَّجَرُ الْمُبْرَعُ الصَّغِيرُ . . . وَالْقَدِيمُ
الْبَحْرُ . . . وَالصَّهِيلُ
الشَّوْاطِئُ
الرَّغْبَةُ
وَالْأَجْرَاسُ
وَالتَّوَقُّعُ
الْخَطَى
التَّارِيخُ
وَالْأَصْوَاتُ
وَالْمَحَارِبُونَ يَصْعَدُونَ فِيكَ بَيْنَ الْجِلْدِ . . . وَالْعِظَامِ
فِيكَ أَنْتَ الْحَلْمُ الْأَحْمَرُ وَالتُّرَابُ
وَالزَّيْتُونُ
وَتَحْتَ رَثَيْتِكَ الْأَنْهَرُ الْحَزِينَةُ
الشَّرْقُ

الشَّمَالُ

الفقراءُ الوطنُ الكبيرُ

أشهدُ أَنَّهُ موحَّدُ الآلامِ فيكَ

إِنَّهُ منفَاكُ

إِنَّكَ العاشقُ بينَ السَّجَنِ

والرَّصَاصِ

والصَّحراءِ

إِنَّهَا بعيدةٌ

قريبةٌ

تنهضُ خلفَ جبلِ الزُّجاجِ . . والأسى . . والماءُ

إِنَّ صَوْتَكَ العائدَ صَبَّ في وريدها

أشهدُ إِنَّهَا تصيحُ دونَ لغةٍ

خالدةٌ صرختها

خالدةٌ توقيعهُ الدِّماءِ في الأشعارِ

والصُّخُورِ

والطيورِ

والمطرِ .

قرطبة في هجرة صقر قريش

عندما سقط العالمُ العربيُّ على ظلهِ
صحتُ في البرقِ
فانشقَّ عنكَ بكاءً . . . وبدراً
وكانَ زحامُ الشوارعِ نوماً مريضاً
يحدِّقُ في الواجهاتِ . . . ويمشي
وكانت شظايا الدفاترِ تجرحُ وجهَ البساتينِ حيناً
وتجرحُني
والمقاهي تغصُّ بروادها
والحديثُ عن الليلةِ
الحالةِ
الوطنِ المستباحِ
وعن قصةِ الحبِّ . . . والحربِ
عن صدرِ بائعةِ اليانصيبِ
وعن أمِّ كلثومَ
والجسدِ المتعبِ الذهبيِّ
وعن ليرةِ للسَّجَّيرِ . . . والخبزِ
عن قصفِ عمَّانَ
والناسُ فيها يصيرونَ مشتتةً للوباءِ

ويندفعُ الدَّمُ تحتَ القَبَابِ

وتحتَ العَبَاءَاتِ

يشربُهُ الغَائِبُونَ مَعَ الشَّيِّ

وَالخَمْرِ

ثُمَّ تَلُو حِينَ مَا يَبِينُ أَشْرَعَةَ النَّارِ

وَالقِصْفِ - امْرَأَةً

حَلْمَاءً . .

وِخْلَاصًا

جَلَسْنَا عَلَى زَمَنِ طَارِيٍّ مِنْ زَمَانِ الصَّبَا

فَفَرَحْنَا

ابْتَسَمْنَا

وَدَارَ الحَدِيثِ القَصِيرِ عَلَى نَفْسِهِ . . وَصَمْتَنَا

فَمَا قَلْتُ شَيْئًا عَنِ الحَبِّ

أَوْ قَلْتُ شَيْئًا عَنِ المَوْتِ . . .

أَسْمَعُ صَوْتِي

- إِنْ خَذَلْتَنِي دَمَشَقُ

تَوَجَّهْتُ نَحْوَكَ بَعْدَ فِلَسْطِينَ . .

قَبْلَ فِلَسْطِينَ

فِيهَا

فَمَا خَذَلْتَنِي

تَنَاولْتُ قَهْوَتَنَا . . وَقَرَأْتُ الكِتَابَ . .

افتترقتُ عن الحلمِ
كان المساءُ حزيناً
وكان الشتاءُ يجيءُ إلينا على مُزنةٍ كالرَّمادِ
فنبتلُّ

ثمَّ نذوبُ كأنَّ لم نكنْ
والخليفةُ مدثرٌ بردتي
وشعاري على ترسه

أو على حافرِ الفرسِ الأعجميِّ
يؤرِّخُ صكَّ التَّخْلِ عن البندقيةِ
والشهداءِ

وعن تضحياتِ المليشيا
وعمانَ

في الظلِّ أوجعني وخزُّ صاريةٍ كُسرتْ
صحتُ . . ما انتبهوا

لوَّنتِ الدَّمُ وجهَ الفراتِ . . فما انتبهوا
في الطَّرِيقِ إلى سيلةِ الظَّهرِ (2) جمجمتي فرَّعتْ كتباً
وجسوراً

هوتْ قلبها أمس ألويةٌ

خلعتْ جندها في ثيابِ الصَّبَايا اللواتي هربنَ من الذَّبْحِ
- يا أيُّها النَّائمونَ على دمهنَّ

أنصتوا

إنني الدَّمُ يسكنكم انهرأ
مرّةً عندما القتلُ يبدأ
أخرى قبيلَ الولادة
فلتَحَسَّسْ شرايينكم دَورتي
بين موتي . . وبين مخاضِ العواصمِ
والنَّخلِ
أنسلُ
كانتُ دمشقُ التي ودَّعتني . . وما زلتُ فيها
تصدُّ عذاباتنا بالليالي الطَّوالِ
وبالحبِّ
مسكينةُ . . هربتُ شارتي
لهتتُ تتمنى عليَّ الرَّحيلَ إليك
وتنذرني أنَّهم يتبعونَ خطايَ
يسدّونَ كلَّ الدروبِ التي انفتحتْ بغتةً
قرطبةُ . .
آه . .
والمَدنُ العربيَّةُ تغطسُ في الدَّمِ
لكنَّ وجهك كانَ حبيباً
وكانَ بعيداً . . كما الشَّمسُ
كانَ قريباً
فلوَّحني وهجَّها في الصَّحارى التي أودعتني إلى النهرِ

كانتُ يدي تستطيلُ أصابعها
في الفضاء الذي بيننا
كنتُ أهوى
وأنحتُ في قاسيونَ الكلامَ الذي لم أقلهُ
وكلُّ الوجوه التي غادرتني في ضفةِ الغورِ
أرتادُ أرصفةَ النَّشراتِ
وأرصفةَ الذكرياتِ
هنا الصَّوتُ والبحرُ يختلطانِ
وينحلُّ صمتُ البنادقِ حولي
وينهضُ تشرينُ بوابتينِ إلى القدسِ واحدةً
وإليكِ . . إليكِ . .

- انتبه

- أين تمضي؟

- هنا القدسُ

تشتعلُ الأرضُ . . سكينَةٌ تتحولُ
ترسمُ أدخنةَ المدفعيةِ والدَّمَ خارطتي
للسَّهوبِ التي عرفتني
وأحببت فيها الطيورَ التي لا تهاجرُ
إني توقفتُ
أملأُ كفيَّ ماءً
وأشربُ

لِلصَّخْرِ ظَهْرِي
وَوَجْهِي جَنُوبًا
- فِلَسْطِينَ
تَنْصَبُ فِي دَاخِلِي
أَمْطَرْتُ
وَالرَّذَاذُ الْمُرْدُ يُغْرَقُ نَاصِيَتِي
وَعِيُونِي
وَمَتَعَبَةٌ رَيْتِي
فَالْحِصَارُ شَدِيدٌ
هَنَا زَمَنِي . . قَرْطَبَةٌ
لَا تَلُومِي الرِّيَّاحَ الَّتِي حَمَلَتْ جَسَدِي
- أَيُّهَا الضُّوءُ
إِنَّكَ تَشْبَهُ وَمَضَّ الْقَذَائِفِ فِي غُورِ بَيْسَانَ
لَا تَنْطَفِئِي
إِنِّي أَتَلَمَّسُكَ . . الْآنَ
بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَجَنٌ
وَدِبَابَةٌ
وَكَمِينٌ
وَبَيْنِي وَبَيْنَكَ جَنْدُ الْخَلِيفَةِ
وَالغَزْوِ
أَكْمَنُ فِي الظِّلِّ

لَكُنِّي إِذْ تَلُوحُ عَلَى الْأَفْقِ عَيْنَاكَ
أَرْبِحُ مَعْرَكَةً بِالْمَسِيرِ
وَلَوْ خَطَوْتَيْنِ
بِدُونِ الْجِيُوشِ الَّتِي ذَبَحْتَنِي
وَرَا حَتَّ تَطَارَدُ رَأْسِي بِأَعْلَامِهَا السُّودِ
لِحِظَّةٍ أَنْ كُنْتُ أَنْتَ تَمْدِينِ لِي أَرْضَ مِصْرَ لِأَعْبَرَ
نَحْوَ الشَّمَالِ الْبَعِيدِ إِلَيْكَ
وَإِنِّي بِصِيرٍ بِأَنَّكَ مِنْفَايَ
كَمْ أَنْتَ مَرَهَقَةٌ حَيْثُ أَنْتِ
وَكَمْ أَنْتِ صَافِيَةٌ
وَبَعِيدَةٌ أَنَا
الْعَطَشُ الْبَدْوِيُّ إِلَى الْمَاءِ
هَذَا صُرَاخِي
وَلَوْ أَنَّهُ الصَّمْتُ
مَحْظُورَةٌ كَلِمَاتِي الَّتِي خَبَّأَتْهَا حِجَارَةٌ «حُورَان»
فَاحْتَرَقَتْ مِثْلَ قَلْبِي
فَلَا تَبْكِنِي
قَدْرِي أَنْ أُسَمِّيَ ثَلَاثِينَ اسْمًا
وَلَا يَتَبَدَّلُ وَجْهِي
وَأَنْ أُتَنْقَلَ وَحْدِي
وَفِي رَا حَتِّي خَطُّ أَنْكَ مِنْفَايَ

أَوْ جَتِّي
فُرْطَبَةٌ . .
هل تصيرين لي وطناً؟
كيف؟
لي وطنٌ تعرفين مذابحه . .
حيثُ أهلي
وأمي تحلُّ جدائلها
وتغنيُّ لصقر قريشٍ
وتبكي عتاباً
لكلِّ الذين يعيشون حياً
يموتون فاجعةً
. . . وطني . . .
امتلاً الكأسُ
أشربُ نخبك
ها إنَّ قلبي يغادرني
بينما تفتحين ذراعيك لي
اقتربي
إنني أتعريُّ سوى من سِلاحِي
وشعري
وأخطو على البحر
أخطو

امنحوني لفافة تبغٍ
وعود ثقابٍ
فتحت ذراعي جرحي الذي نبشوهُ
فأغلقتهُ بالمرايا
توكأتُ فيه عليكِ .

تقاسيم على البندقية في ليلة العيد

... وإن كنت أنت ...

تناولت وجهي

لوثته بالجهامة ... والصمت

إنني تعودت

أدمنت أن أستعير الرّخام

- إشرابي قهوتي ..

شاركيني المرارة

في ليلة العيد .. لامست صدرك

أشرعت نافذتي

أغلقتها رياح الخريف

تداولت حلماً تخطى الكوايس

لكن صحوت

ارتديت قناعي .. سافرت بعض

الطريق الطويل

أحبك

لا ترجعي

تحت وجهي أبكي

ولكنني أتماسك قبل انهيار المشاريع ..

قبلَ احتراقِ الخرائطِ
والأهلِ
تومضُ كوكبةٌ من رفاقي
أودّعهم في الصّباحِ
وأنهدُّ من تعبي
يتساقطُ عنيّ الجليدُ
أظلُّ رخاماً يذكرُّ بالموتِ عينيكِ
- أدركُ لا بأسَ -

مقبرتي في حدودكِ
أدعوكِ باسمكِ أن تصعدي من خلالِ
أصابعِ كفيّ
ومن صداي

كيف أطرحُ جلدي على الماءِ
إن كنتُ لا أستطيعُ البكاءَ؟!
سأقلعُ عينيَّ إن كانتا من زجاجِ
قفي . .

حدّقي . .
إنَّ طاولتي تتأوّه تحتَ الجرائدِ
والشمعِ
والورقِ المتجمّدِ
والتبغِ

والشعر

رائحتي كالقطار القديم

أدخن

ها . . صوت فيروز يرتد عني

ومدفأتي اختنقت مرتين بقربي

يحاورني عبر هذي الليالي نباح الكلاب

انتهى العرض - أخرج

ترمي علي الأكاليل

تضفر فوق المناديل

لكن مندليك الذهبي يغيب

وأدفن تحت العمارات . .

لا تتعبي من حديثي إليك

تري هل تموتين . . وحدك . . مثلي

وهل تستعيرين وجهاً كوجهي إذا

ما التقينا؟

علي مفرق الطرقات . . التي فتحتها

السواعد كناً

تأبطت خصرك

أبطأت . .

أبطأت . . حتى تمر الحراسات

ثم عبرنا . . وعدنا

وكانت دمشقُ تثَّابُ ثم تردُّ علينا الغطاءَ
فنفرحُ . .

هل تذكرين المسافة . . والليل . . بين السُّفوح وبين النَّخيلِ
أحبُّك . . .

لا ترجعي

في (جنيف) المصائدُ

إنِّي أشدُّك نحوي إلى الأرض . .

فالأرضُ منك . .

وفيهما كبرتُ . .

وكنتُ تعرِّفتُ قلبك طفلاً عليها

وواكبتُ كيفَ تصيرينَ في سنواتٍ . .

صبيَّة

وكيفَ تصيرينَ بارودةً في يميني . .

وأشهدُ أنِّي عشقتك سرّاً . .

وأنِّي عشقتك جهراً . .

ولكنَّهم قتلوني . .

تقولين لا شيءَ . .

أفهمُ ما لا تقولُ الإذاعاتُ

يتتصفُ الليلُ . .

أنزفُ إذ يفرحُ الآخرونُ . .

وإذ يقرعُ الجرسُ الآن في بيت لحمٍ

ويُطلقُ كلُّ الرصاصِ الذي في المخازنِ

في ظهرِ أمي

ويُطلقُ في ليلِ بيروتَ . .

أنزفُ تحتَ الرّخامِ . .

مللتُ الكلامَ . . رجاءً

أُحدِّثُ نفسي . .

وأجدلُ مأساتنا

بينَ ليلي . . وصدري احتفالٌ يضيءُ

على شجرةِ العيدِ . . إنِّي تفرّستُ شيئاً

كجمجمتي . .

هل ترينَ صليبي وقوداً

ولحمي طعاماً

وخمراً دمي

آه . . أيتها البندقيةُ فلينسني جسدي إن نسيتك

هذا ذراعي يحملُ وشمك

والبحرَ

تلكَ حدودي . .

ورائحةُ البرتقالِ دليلي

وأضربُ في الرّمْلِ . .

إنِّي أناديك باسمك سرّاً . .

وأعرفُ أنّي أخطأ . .

هذا زمانٌ تخلفَ فيه الذين أضلوك عني
وأطبعُ فوقَ جبينك . . اسمي . .
وقبله . .

وإن كنت أنت التي دقت الآن صدري . .
معلقةٌ خلفَ بابي
سأفتحُ قلبي . . وأدعوك أن تدخلني . .
بينَ وجهي وبينني

المساحةُ واسعةٌ للحبيبة
نذري أن أجمعَ الطلقات التي خلفتها
المعاركُ فارغةً
ثم أملاها وأغني

على وترٍ شديدٍ بين جدائلِ يافا . . وعمانَ
يا وطني

إنها في يدي تجيؤك
فافرذُ ذراعك للنار
وافرذُ جناحك طارت إليك الحمامةُ
يا ساعدي . .

أيها المتيسرُ قبل الوصول إليها
انتفض . .

إن فولاذها ساخنٌ كدمي . .

والمسافةُ تتسعُ الآن بينَ الجليلِ وبينني

أنصتي

أنهم يذبحون صبيّاً على شرف الغزو

في ليلة العيد

ثم يعودون في صفحات الجرائد نصراً

ويتسمون . .

أنصتي . .

من يدقُّ . . ؟

أزحجُ عنك التفاصيلَ

هل سقطَ الثلجُ . . ؟

أوقدتُ صاريتي . . وخيامي . .

على الشطّ

لوح لي في المحابر

والدم . . كتفُ الجزيرة

أسندتُ كتفي . .

وراقصتُ بين أغانيك . . والموت . . حبي

فماذا تبقى

أردُّ لك الدينَ

هذا جيبني اسطعي حيثُ شئتُ

أحبُّك لو قطعوني . .

خذييني إلى العيد

أفقدُ قبل الوصولِ المواعيدَ

أَيُّهَا الْبَنْدِقِيَّةُ فَلْيَنْسِنِي جَسَدِي، إِنَّ نَسِيَّتَكَ
يَا نَجْمَةَ الصُّبْحِ
أَنْتِ يَقِينِي.

القراءة الثانية للنقش على الرصاصة الأولى

شتاؤك أنت من أحببتُ - خلف زجاج نافذتي - قرنفةً
مؤرقةً . . . وظامنةً . . . وتأكلُ حزنها
- يا ليلُ

هذا المدُّ يصرخُ بي . . .

ويأخذني . . .

إلى المطر الذي يشتدُّ فوق البحرِ محمولاً على زندي
وفوق الصبرِ . . .

بين الجمرِ

أشعلُ أضلعي

وأضيءُ تحت الهاجسِ المسكونِ بالسفرِ
الحقبةُ

أنت

رائحةُ من الليمونِ

والدَّفلى

الترابُ مألُ قافلتي

وأصمُدُ كلما أوشكتُ أن أبكي . . .

وقفتُ على شواهدهم

فقاموا . . . عانقوا الأطفالَ . . . وابتسموا

وكانت كل أيديهم تشيرُ إليكَ

- يا وطني

أحبُّكَ . .

آه . . من زمنٍ أساكنِ نبضَ من أحببتُ منفرداً سوى من

قهوتي

والليلِ

والطلقاتِ

تحتَ أظافري سقري

ونهرِ الدّمِ

. . . وأسألُ: كيفَ زاعَ الدربُ عن قدمي . . ؟

فدختُ . .

حضنتُ في الطرقاتِ أعمدةَ الهواتفِ

والوجوهَ

ونشرةَ الأخبارِ

كيفَ يبستُ . . ؟

هلُ تدرينَ . . ؟

كيفَ عصرتُ أعمدةَ الجرائدِ . . ؟

كيفَ أدركتُ . . ؟

انتفضتُ عليكِ . . تحتَ عباءتي . . ذبحوكِ

واقسموكِ بالأقلامِ

والكرباجِ

والسكين
والبارود
ما ساومت تحت الذبح
أنت خريطتي صخر
وبادية
وأنت شوارعُ المدن التي عبّدتُ من صَفدٍ إلى عَمَّانَ
أنت الحبُّ
... ناديني . . قُبيلَ الصّبحِ
مرّتُ قهوتي بالباب . . والشفّتينِ عصفورينِ دورينِ
ظلتُ مرّةً مثلي
معتقّةٌ دروبُ العشقِ
لا تبكي
ومعذرةً
أمدُّ إليكِ أحزاني
فضمّيني
ارتوي من طوفِ أوردتي . . الشتاءُ يصيرُ موسمنا
الذي لا ينتهي . . السفرَ الذي لا ينتهي . . الشوقَ الذي
لا ينتهي . . العطشَ الذي لا ينتهي . . الصّوتَ الذي لا
ينتهي . . الطرقَ التي لا تنتهي . . المنفى الذي ينتهي
الأرغول . .
ضمّيني

أشدُّ الخطو نحوَ الموتِ
وكانتُ قبلُ ساقِنتي إليكِ الرِّيحُ .
والخطرُ
ويومَ ولدتِ شكَّلي حديدُ السَّجِنِ
والشَّجرُ
وكان اسمي على شفَتِكَ ينظرُني
فأدخلُ فيه عريانا
وأنصبُ في المدى عَلمي . . وشاراتي . .
أحبُّكَ في خريِرِ العينِ
ذابَ دمي
وتحتَ ظلالِ داليةِ تعيشُ يدي
وبينَ أصابعي يخضرُ صدرُ حبيبتِي
تتوهَّجُ السَّبْطانةُ أنتبهي فتلكَ رصاصتي الأولى
وتلكَ قصيدتي الأولى
افرحي
ماردَّها قدرُ
وهذا رأسُ جسرِ النارِ
فاقتربي
سيزهرُ كلُّ هذا الموتِ . . في جفنيكِ
يشرقُ صوتُ أحبابي
ويسقطُ كلُّ من خذلوكِ

قبل وثيقة ملفوفة بالوهم

والأفيون

فارتعشي

هو المطر الذي تبكين

والحجر الذي تبين

فارتفعي

على كفي وارتفعي

يُحبُّك كلُّ مَنْ قُصِّفُوا على الشَّطِينِ أَنْتِ حَبِيبَتِي العِذْرَاءُ

وانتفضي

بكلِّ سِوَا عِدِّ الأَطْفَالِ . . يُولدُ قلبٌ مَنْ أَحْبَبْتُ . .

والفقراءُ . . قافلَةُ الشَّهْدَاءِ . . والشَّجْعَانُ حَتَّى

البحرُ

وتغرقُ قِربَ قرصِ الشَّمْسِ فِي البِوَابَةِ الشَّرْقِيَةِ السَّفِينُ

التي خَاصَرَتْهَا بَدْمِي

فِيرحَلُ عَن مَدَايِ الشُّطِّ

لكنِّي اخْتَزَنْتُ دُرُوسَ تَجْرِبَتِي

كُتِبَتْ بَعُودِ سَنِبَلَةٍ عَلى غِصَنِ مِنَ الزَّيْتُونِ

واللَّهَبِ الَّذِي يَنْصَبُ كَالرَّايَاتِ

والجبهاتِ

نصَّ وصيتي . . أَحْبَبْتُ

ضميني . .

رسوتُ عليك وسطَ الماءِ
.. وأذكرُ يومَ أَنْ خَطْنَا ملامحَ سترتي الكاكيةِ الخضراءِ
كنتُ سخيةً بالصمتِ ..
كانَ النهارُ صحوةً جامعٍ .. فعبرتُ ..
آه .. عبرتُ
واندفتُ عليَّ النارُ
والسفرُ
وصرتُ دليلَ مَنْ عبروا .. إليك .. أجوع طولَ الدهرِ
أكلُ بيننا الأحجارَ
والإسمنتَ
والألغامَ
والمذيعَ
والحرَّاسَ
تأكلني عيونُ الصمتِ
يصرخُ فيك صوتُ الدَّمِ
والأزهارِ
والشبابَةِ
الأسيانَةِ
انتفضتُ ..
رقصتُ معي
ومبهوراً

بعري الضوء بين يديَّ
ماتتْ غرِبتِي . . في برهة الميلاَد . . أنتِ بعيدةٌ مثلي . .
حفرتْ رصاصتي نقشاً بأسناني
يدومُ الطعمُ - رغمَ الجوعِ
يقرأُ عابراً الأغوارِ
والحاراتِ
والخيماتِ
ضوءَ النقشِ
أنتِ معي
وحولك يصهرُ الفولاذُ . . والزمنُ . .
وحولك تكبرُ الأشجارُ .

من دفتر فدائي في قوات العاصفة

يُروى عن الغريب ليلةً أنهمارِ الثلجِ في مدينةٍ تحنَّطتْ في

الكتبِ الصفراءِ

والجرائدِ الصفراءِ

أنَّهُ يصيرُ غيرَ قابلٍ للمسِّ . . أو للكسرِ

في واجهةِ الزجاجِ . . تشنقُ الليلةَ لعبُ الأطفالِ

صارَ لعبةً . . .

وانقطعَ التيارُ

ظلَّ وحدهُ معلقاً في عتمةِ المدينةِ . .

انطوى . .

وانفجرَ الصراخُ بينَ قلبه . . والليلِ . . مثلَ حشدٍ من حناجرِ

النساءِ في ماتمِ القرى . .

يذكرُ كيف . . ؟

.. ..

.. ..

جاءَ صوتُ الرِّيحِ حاملاً رائحةَ الأهلِ

تكسَّرُ الزجاجُ

انقطعَ الخيطُ الذي يربطُها بالخشبِ المحروقِ

اخترقَ الحاجزَ

قامتِ المرأةُ في طريقه . .

أزاحها . .
ومدَّ راحتيه . .
قدَّميه . .
لامستُ جبهتهُ العاصفة . .
انتهى إلى مسمعه خريزُ نهرِ الأردنَّ
العتابا
مهراً ولاً يخبُّ . .
اعترضتهُ حكمةُ الموتى
أدارَ ظهره . . ودارَ حولها . . فطوّقتهُ . . دارَ حولها . . مشى
كانَ حُضنُ الغورِ دافئاً
تحسَّسَ الرُّماتينِ
لمْ يعدُّ يرى سوى المخاضة التي تفرَّدُ صدرها
والأرضَ
خطوةً واحدةً في قاربِ المطاطِ
خطوةً واحدةً في الضفَّة الأخرى
الهشيرُ يحجبُ الرؤيةَ
والنجومَ
يقرأُ البوصلةَ التي صادقها . .
يأخذُ في يديه البندقيةَ التي يعشقها . .
يُعدها
يصعدُ فوقَ (الكترات) (3)

كثُرَتْ مَوَاقِعُ الْعَدُوِّ
وَالْأَسْلَاقُ فِي طَرِيقِهِ
يَزْحَفُ صَامِتًا
يَخَافُ بَعْضَ الشَّيْءِ
يَعْبُرُ الْحُقُولَ وَاحِدًا
فَوَاحِدًا

تَوَهَّجَ التَّرَابُ تَحْتَ قَدَمَيْهِ
وَقَعَ الْعَاشِقُ فَوْقَ الْأَرْضِ

.. ..
.. ..

وَيَكْتَبُ فِي كَأْسِ مَاءٍ ..
وَيَشْرِبُهُ ..
ثُمَّ يَصْحُو ..

يَحْسُ بُشْيَاءَ مِنَ الْبَرْدِ
يَنْهَمُرُ الثَّلْجَ

يَلْجَأُ نَحْوَ قِصَائِدِهِ
يَتَلَفَعُ أَوْرَاقَهُ .. وَيَنَامُ قَلِيلًا ..

يَشْمُ دُخَانَ الْمَوَاقِدِ
يَغْفُو ..

يُنُّ

يَصَادِرُ قَبْلَ الدُّخُولِ إِلَى الْحَلِيمِ

ينهضُ . .

يحتضنُ السَّلمَ الخشبيَّ

يجوعُ . .

فيأكلُ خبزاً . .

وزيتاً

وشيثاً يسميه غربتهُ

يتنفسُ بينَ الدُّخانِ . . وبينَ الحريقِ . . دماً لزجاً

ويعلقُ وجهَ حبيبتهِ في المساءِ الحزينِ

ويسكبُ خيطاً من الشَّايِ . . والدَّمِ

يصعدُ فوقَ ذراعيهِ . . معضلةً . . لا تُناقشُ في الضوِّ

والليلِ رجبُ . .

ولا شيءَ غيرَ الصُّعودِ

فيصعدُ

.. ..

.. ..

ينمو على الجدارِ فوقَ معصميهِ شجرُ الحديدِ

ممنوعةُ زيارةُ السجينِ

والقتلى

على بلاطِ الساحةِ القديمةِ . . النرجسُ صارَ جرساً يدقُّ

صارَ دفتراً . .

يكتبُ فيه اسمهُ الجديدَ

- هل يقول شيئاً قبل أن يغيبَ عن . . ؟

وقبل أن . . ؟

تشابكَ العَلِيقُ فوقَ الشَّرْفَةِ الغَرِيبَةِ . . الشَّمْسِ

وفي يديه الثَّمَرُ البَرِيُّ

هذا القَمَرُ الذي أَطَلَّ من خلالِ النَّافِذَةِ . .

ارتَمَى عليه

هل أَحَبَّهُ . . ؟

ارتعدَ الغَيْمُ . .

فَعانِقَتُهُ غابَةُ الزَّيْتُونِ

هذا المَطَرُ المَضيءُ بَيْنَ القَحَطِ . . والظلامِ . . شعرُها . .

الرَّيِّعُ

صوتُها

ووقعَ خطوها في قاعِ قلبه

وخطوه على قناطرِ الرِّصاصِ

والعذابِ

تبدأُ اللحظَةُ من قيوده . . وتنتهي . .

يُولدُ مرَّةً أُخرى

ويُحَكِّمُ اللَّيْلَةَ بالإعدامِ

لا يقولُ شيئاً . .

هزَّ رأسَهُ . .

تنبَّهتُ أعصابُهُ هنيهةً

أغفى على الجبال ...
وابتسم

...
...
...

ويؤخذ من بين عينيه
يطرح بين الموائد . . . والتبغ . . . والأحذية . .
ويسمع قهقهة فيصرُّ بأسنانه
يفتحُ الآن بابٌ . . . ويغلقُ
يسقطُ تحت الصرير . . . فيصحو . .
ويسألُ ماذا حلمتُ؟
انتبه . .

... فينام
يجرُّ على الثلج . . . والملح . .
يؤلمه جرحه . .
ثم يسمع موعظةً
كيف تبدو الحياة . . أليست . . ؟
يكادُ يجيبُ بصدق . .
فتحبسُ في حلقة الكلمات . .
ويرسمُ دائرةً في الفراغِ
يلوّنُ أطرافها بالتزييفِ
تصيرُ قوياً

وجبالاً

وروداً

يرى أنه يمتطي فرساً بين إربد . . واللد . .

يحمي بظل جناحيه رف العصافير

يفرد ما بين نجمين . . والثلج . . والماء . . كفاً

يشيرُ بإصبعه

ثمَّ يضحكُ

إذُ يعرفُ الآنَ أنَّ الذي قاله غزلُ

يثمرُ السِّدرُ قربَ المصبِّ

ويمحضهُ النِّخلُ بابَ جنين . .

وتثمرُ عنايةُ . . وحدها . . انتظرتُ

بين رأسِ المطلَّة . . والحوضِ . . (4)

يستحضرُ الآنَ طفلاً . .

وقبراً أبيه . .

يغمغمُ أنْ لن يكونَ لغيركُ

...

...

تداخلَ الحلمُ الذي يدورُ بين البابِ والشبَّاكِ والأوراقِ

والجدارِ

والتقويمِ

والأسرةِ

استراحَ القلمُ المتعبُ في الإصبعِ اليقظي
توقفتُ ساعتهُ قبيلَ موعدِ الحصادِ
ظلَّ شاخصاً . . . يعيشُ وهلةَ الإنصاتِ . . . والحضورِ . . .
لم تشرقِ الشمسُ . . .
ولكنْ . . . ظلَّ شاخصاً كالصورةِ الزيتيةِ
انتمى إلى الزَّمنِ التَّجمَّدِ النُّحاسِ عندهُ
يكادُ أنْ يصرخَ بالذي خبَّأهُ . . .
يخافُ . . .

ينشرُ بينَ الشمعدانِ والشوارعِ الخاليةِ . . . الصَّمْتِ
(يلد)⁽⁵⁾ نحوَ السقفِ جائئاً
تهدِّمُ الظلالُ فوقهُ . . .
يخونهُ لسانهُ . . .

يخرجُ بينَ العقلِ . . . والجنونِ . . . من عذابه . . .
وفي عيونه ينطفئُ البريقُ
يسبلُ الجفنينِ . . . تحتَ قسوةِ الرِّحَى
يطحنُ
- هل يموتُ القمحُ . . .
والزيتونُ . . . ؟

تنشجُ العروقُ في الصخورِ . . .
والجذورِ . . .
تطفحُ الآبارُ بالمياهِ . . .

والبتروْل . .
 والدمِ الشَّجِيّ . .
 بينَ النِّيلِ والفِراةِ . .
 بينَ شاطئِ الخَلِيجِ . . والمحيطِ . . اعتقلوه
 قتلوه . .
 ذوبَّوهُ بالأسيْدِ
 اشتعلَ المناخُ في الزنزانةِ الضيقةِ
 ارتحلت فيه . .
 صارت القصيدةُ التي شكَلتما . . دوريةً . .
 وصيلةً . .
 وافتتحَ التَّقويمَ . . بالرصاصِ . . مرةً أُخرى
 تواصلَ الحصارُ . .
 اختبأَ الأسي في خشبِ المقاعدِ اليابسةِ . .
 الأشجارُ هجرتُ أوراقها . .
 والكلماتُ عجزتُ . .
 هل يرتدي الغريبُ ثوبَ الحيوانِ الدَّاجنِ . . ؟
 الميتةُ . . ؟
 - هل يخلعه؟
 - هل ترتديه الغربةُ القديمةُ . .
 الأسئلةُ . .
 الحاجةُ . .

والضرورة . . .

المتاحفُ الغيبيةُ . . .

الأفقالُ . . .

ملصقاتُ موسمِ السَّيَّاحَةِ الطَّوِيلِ

والإعلانُ عن برامجِ الملهى

يقومُ . . .

يخلعُ الآنَ يديهِ عن قبيلةِ الأيديِ التي تضرَّعتُ على منصبةِ

الأعداءِ

تحتَ إبطه احتواكُ

موثلاً تصيرُ غابَةَ الرُّمَّانِ

فرَّ من غربتهِ إليكُ

... ..

... ..

... ولا يذوبُ الثلجُ

- هل أصغيتَ كيفَ أنتِ السروةُ تحتَ البَرْدِ

- هل عايشتَ رَعشَةَ العصفورِ . قبلَ فجرِ اليومِ . . .

ارتعشَ الغريبُ

قال شيئاً . . .

دسَّ في جيبه يديه . . .

قال . . .

لم يلمعَ جرحهُ

فما تعرّفتُ عليه الأعينُ التي ترصدهُ . .

بدا عليه أنه يبكي . .

مضى يرافِقُ الرصيفَ

كان الورقُ الذي يصبُّ في المنايعِ المشبوهةِ الليلةَ

يستحيلُ عملةً

وصحفاً

وطبعةً جديدةً من وجهِ أمه

خريطةً . .

تطرحُ في الحاناتِ

والتكايَا

- انتبهي

- يحبُّك الآنَ . . كما لو أنه الشمسُ التي تبوسُ وجنتيكِ

كلَّ فجرٍ . .

- انتبهي . .

يجيءُ غربةً . .

خذيهِ فوقَ الصَّخرِ .

الغريب يشدُّ سقوط الشجر في ضاحية المدينة

يسقطُ بينَ الليلِ والنهارِ الزَّمَنُ الخمريُّ
والسؤالُ . . خيمةٌ ثقيلةٌ تجثمُ فوقَ موعدي

يسقطُ هذا الشجرُ الأخضرُ

والزيتونُ

والأطفالُ

والظلالُ

والجدرانُ

فوقَ قامتي الشقيَّةِ السَّماتِ

اشتعلَ المدارُ

وانتظرتُ

في ضاحية المدينة . .

استقطبني الإسمنتُ

صرتُ ميتاً

وكانَ الخشبُ الذي يحمِلني يئنُّ

في ضاحية المدينة . . انتظرتُ

كانَ الفرِحُ طيراً مرهقاً ينامُ بينَ شفتي والشفقِ

الحزينِ

ساكناً

منزويًا . . تحت عقارب الساعات
كان بائعُ الفستقِ قادمًا من ذكرياتِ هربِ العبيدِ
- . . . آه . . حيفا
سقطَ الميناءُ تحتَ بيرقِ الغزاةِ
هاجرَ النورسُ
آه . . عبثًا في الهجرةِ القديمةِ انتظرتُ أن ألقاكِ . . أنْ
ولم أزلْ
أسمعُ بين الصمتِ والكلامِ الصوتَ - في دفاتري - الذي افتقدتهُ
في زمنِ المنفى
طلعتُ مثلَ القمرِ الغريبِ . . . والسَّحابةِ
وأمرتُ يداكِ
هل أقول الحقَّ . . ؟
كانتِ الرِّياحُ في يدي رهينَةً
أطلقتُها إليك . . . وابتعدتُ . .
كانتِ الشوارعُ التي ارتادها غارقةً بالليلِ
والدماءِ
والأسى القديمِ
تهتُ عنك
قالَ السائقُ العجوزُ باسمًا:
- هنا
وتهتُ في الزُّحامِ عن ملامحي

في منتصف الرصيف صرتُ محوراً يدورُ حولي النَّاسُ
صاحَ بائعُ الجرائدِ الصبيُّ معلناً عن آخر الأخبارِ
فاشتريتُ خيراً انفجارِ شحنةٍ في القدسِ
وانحدرتُ في طريقِ الصبرِ
وانتظرتُ

- أسألكَ اللَّيلةَ بعدَ كلِّ الصَّبْرِ . .

هل تفهمينَ غرْبتي . . والشُّعْرُ؟

هل تدركينَ السِّرَّ؟

- يا مرحباً

- يا أيُّها الحزنُ الذي يعشقني

رافقتني الزَّمانَ كُلَّهُ

كبرتُ تحتَ الجلدِ

في العيونِ

- مرحباً

- عمرتُ في سماءِ رحلتي

شاركتني الرَّغيفَ

والثَّيابَ

والسَّمَاءَ

والنَّهارَ

أيُّها الصَّدِيقُ

- مرحباً

- يا أيها الحزنُ الذي يجبلُني بالحزنُ
أذكرُ عندَ النَّبْعِ كانَ الوطنُ البعيدُ بيننا . . . يحبُّنا
وكانَ خلفَ الصَّيفِ
بعدَ البحرِ . . . والشَّوْطِ السَّوداءِ . . . والرَّحِيلِ
تسقطُ في يديكِ نصفُ برتقالي
فأنحني عليكِ هابطاً من قممِ الجبالِ للسَّهولِ
- مرحباً . . . يا موتُ

- يا صغيرتي وجهكِ بعدِ الموتِ لاحَ لي
وقبلهُ
قبْلتهُ

ونارَ في التُّرابِ اللُّغْمُ
صارَ صاحبي كبرتقالي . . . نصفينِ

يا حبيبتِي

وانحسرَ الغبارُ عنكِ
تُورقينِ مثلما أوركِ تحتَ القَصْفِ

والحصارِ

يا حبيبتِي

في المدنِ التي يحكُمها . . . يسحقُها التُّجارُ

- هل عرفتني؟

وهلْ

يُقتلعُ الشَّجرُ الذي زرعتُهُ

تجتاحني الغربيةُ ، والصَّقِيعُ بينَ برهتينِ تربطانِ الحبِّ
والوداعِ

- يا أيُّها الحبُّ الذي يهجرني

- يا أيُّها النبيُّ

- مرحباً

إلى اللقاءِ

في غدِ

يا أيُّها الحبُّ الذي يفقدني

أقولُ خذْ يدي

هنا . . .

تنطفئُ الأصواتُ والضياءُ

حولَ وقفتي

يغتربُ الذينَ يعتبرونني إلى شوارعِ المدينةِ التي تتسعُ

الآنَ على حسابِ الشَّجَرِ المقلوعِ

والتي تقلعني من حائطٍ . . الحائطِ

من موقفٍ . . لموقفٍ

أسقطُ مثلَ الشَّجَرِ الذي يموتُ

قلبي الحزينُ متعبٌ

- أيُّتها الفاجعةُ التي تلوحُ فوقَ الجبلِ الصخريِّ . . . رايةً

تنبَّهي

وابتعدِي

أهربُ عنك . . . تُقبِلينَ
إنني ابتهلتُ أن تكوني فرحاً
بكيتُ
أيُّها البكاءُ يا بوابتي إلى الهواءِ
جرّني على الرّبابِ . . جرّني
يا أيُّها البكاءُ
أنتَ صاحبي القديمُ
- كيف تبسمينَ
- مرحباً
- إلى اللقاء
ارتحلَ الذي توقَّعَ الزّمانُ أن يجيءَ حاملاً وعوده
وغابَ
- أين أنتَ؟
إنني أرشقُ بندقيّتي . . . ووردتني إليك
إنني أشبكُ في يدي يديك
أنتَ لي
واجهتكِ الليلةَ في النافورة الحورية التي ترشُّنا
فارتعشتُ قرارةَ الأشياءِ في طريقنا
وارتعشَ الجدارُ . .
والرّصيفُ
والزُّجاجُ

- أين تذهبين؟

افترق القلبان مثل برتقالتني نصفين
تحت الشجر المذبوح صار ساعدي

وبندقيتي

وجعبتي

نَزَفْتُ

لم يُضْمَدَّ جبهتي رفيقٌ

ذاب صوتي في فراغ الأفقِ

انتظرتُ . . .

كانَ النُّورُ مطفأً

رسوتُ فوقَ البرزخِ الذي يفصلُ بينَ النُّورِ والظلامِ

وقفتُ حافلةً

صعدتُ وحدي إلى الزَّحامِ

كنت . .

- أين؟

لم أُمَيِّزْ وجهك الحبيب . .

يا صغيرتي

توقفتُ

قفزتُ

كانَ معطفُكَ الكاكيُّ في مدى الطريقِ

لم تمكنُ قدمي من العبورِ شارةً المروور . . . والحراسُ

غبتُ في منعطفٍ
أسرعتُ
كانَ الوقتُ ليلاً
كنتُ يا حبيبتِي ملاحقاً
كمنتُ خلفَ الجسرِ
ضعتُ عن بصيرتِي
- يا أيُّهَا الذينَ تقطعونَ بيننا
أحبُّهَا
أموتُ مرتينِ في سبيلهَا
ومرَّةً حيثُ أنا
أفترشُ الكرسيَّ، والشوارعَ الموحشةَ التي ترفضني
- معذرةً

ساعتنا تشيرُ نحو آخر الزَّمانِ . .
يسقطُ الشُّهُودُ . . بعدُ
يسقطُ الرأسُ على صدرِ قتيلِ المدنِ التي أكرهها
وما ترجَّلتُ جثتهُ منذُ بدايةِ المذابحِ التي يعرفها الرواةُ
والمسافرونُ
ما تناولتُ قصتهُ بالصدقِ مرَّةً صحافةُ الإعلانِ
ظلَّ بينَ الأرضِ والسماةِ خارجاً عن غمدهِ
وعن يدِ الفارسِ
لا تقولي: كيفَ؟

تعرفينَ غرَبَةَ السُّيُوفِ
من هنا يَمُرُّ منُ الهَزِيمَةِ
انتصرتُ . . لكنْ
- أيُّها الرَّعْدُ الذي يملؤني
انتصرتُ

أُطلقُ رِعْشَتِي معَ الشِّتَاءِ
أَنَّ وَجَهَ مَنْ أَحَبُّ ظامِي إِلَيَّ
يا دمي

يا أيُّها الرَّعْدُ الذي يجتازني
يملؤني بالوعدْ

أرحلُ في جذوعِ الشجرِ القَتيلِ مَرَكَباً
أسافرُ اللَّيْلَةَ حاملاً عذابنا أَسْرَعَةً

للرَّيحِ ظهْرُها

وصدرُها للأَرْضِ

والرَّصاصِ

والنُّحاسِ

- هل عرفتِ . . ؟

حُوصِرَ الفَتَيانُ بينَ النهرِ والجبالِ

صَمَدوا

وصرتُ أقحوانَةً

سكنتُ راحتِكَ في مداخلِ القُرى

قرأتُ فيهما مصيرنا . . أنا . . وأنتِ بعدَ السبيِ والشتاتِ
عدتُ

لكن أنتِ تصعدين المدرجَ العصيَّ
والجبالَ

ما أدرتِ وجهك

انتظرتِ أن . .

أفقتِ بينَ الحبِّ والوداعِ

اصطدمَ السكونُ . . بالصدى

وظلَّت العتمةُ حاملاً الضوءَ

- مرحباً

تريثُ الكلامُ قبلَ أن أُجبلَ البصرَ المكدودَ في مواقعِ الخطي

تحاملتُ عيوننا على رائحةِ الشمعِ

انطفأتُ قبلَ أن أرددَ

أوصدتُ يدي على بابِ الصمتِ

ظلَّت شمعتي مُطفأةً

وانتابني الحزنُ الذي يعشقني

فغبتُ

- يا أيُّها الموتُ الذي يدهمني

فأجأتني ما بينَ لحظتينِ

يا أيُّها الموتُ الذي يوقظني بالموتِ .

هوامش :

- (1) فصيلة السلام مصطلح فلسطيني ، حيث شهدت الثورة الفلسطينية في الأعوام (1937-1940) تشكيل فصائل السلام المضادة للثورة ، التي ارتبطت بالانتداب البريطاني والأمير عبد الله ، وقامت بحملات إبادة وتطويق ضد قوات الثورة ، كما قامت هذه الفصائل بحملات تصفية تستهدف فلول الثوار بعد هزيمة الثورة .
- (2) قرية الشاعر .
- (3) الكثبان على ضفتي الأردن .
- (4) رأس المظلة والحوض مكانان في قرية الشاعر .
- (5) ينظر بالعامية البدوية .

بیسان ...

فی الرّماد

بيسان . . . في الرماد

يعودُ الشتاءُ على جسدِ الرمادِ
هنا موسمٌ للوقوفِ
«قفا نبك» من فرحة الموتِ
إنّ الدماءَ تواصلُ دوراتها في الترابِ
الينابيعُ عادتْ إلى النهرِ
والنهرُ عادَ إلى أمّه في الجبالِ
- فلسطينُ

لا الصوتُ يأتي

ولا بيننا موعدٌ

نلتقي كلما أبعدتنا المسافةُ

أو فرقنا السياسةُ

أو قربتنا البنادقُ

أو لهفةُ الفقراءِ

الليالي

الشتاءُ

الطريقُ التي عبّدتنا جسوراً على الماءِ

ورداً على الصخرِ

يا وردتي كم أحبُّ الشتاءُ

أغنيك

هل يذكرُ الشجرُ العربيُّ الحروبَ التي خاضها
والغصونَ التي استشهدتْ
والرؤوسَ التي أيتتعتْ
أقبلي

إن كَفَيْتِ تجوسُ ظلامَ المخيمِ عَبْرَ الخرائبِ
بيني وبينَ الهزيمةِ حربٌ
أرى أَنَّهَا أَحْصَبَتْ
لا تروُدُ المقاهي

ولا احتكمتُ في ظلالِ الذي روَّضَ النفطَ
والرملَ

والصعبَ

للغرباءِ

السماءَ التي فوقنا . . فوقنا

والمصيرُ الذي بَعَدْنَا . . . بَعَدْنَا

- يا حبيبي

- سأُنصِتُ إنْ قالَتِ الرِّيحُ ما أبطنتهُ على البُعْدِ

- يافا

- على الصدرِ رمَّانتي أزهرتْ

. . . . آه

واجتاحني وجهُها مرَّةً كالْحَقِيقَةِ

ثمَّ احتواني رمادي

المدينة . . كالموت

والوعر أنت

ولون شواطئ حيفا

وعنف محاور عمان

صدق زجاج الخليل

- ترددين بالعين

أفهم

إن الحديث الذي بيننا مزمن

كامن

والذي بيننا قاتل

وقتيل

بعينك سرّي

وأحبيت حشد الفصول

الشباب المزترّ بالنصر

صادقت حزني على وجنتيك

وحولته فرحة للصغار

البساتين

والبرتقال لهم

والتلال التي يحلمون بها في النهار

العصافير

والبحر

والعيدُ بين يديك

- انتظرني . .

وخذني . .

- عيونني عليك

وقلبي وحيدٌ

وصوتي يزورُ بالخبرِ

واللون

كلُّ الجرائدِ تدري

وكلُّ الإذاعاتِ

أدركُ

ها أنتِ أبعدُ من رؤيتي

- يا رفاقي

نهوضاً . .

يكادونَ رَغمَ الشتاءِ ينادونَ بالقحطِ

يحترفونَ الدهاليزَ

والقتلَ

والسيركَ من خلفِ ظهرِ المطرِ

وبينَ اليقينينِ فجراً ألاقيكِ

وجهينِ للشمسِ -

- يا با . .

- أراهنُ أنّي انفجرتُ

وأشعلتُ سهلاً فسيحاً من الفقرِ

للفقر

كلُّ الحرائقِ منَّا . .

وفينا . .

فها أنتِ بارقةٌ من ذراعي

وصوتي

ونحوك ودعتُ كلَّ المنافي

وقبّلتُ كلَّ المحيّنِ

عانقتُ كلَّ البلادِ

سأكتبُ ما لا تقولينَ

أو ما تُسرّينَ

حسبي أني قرأتُ الكتابينِ في الدمِ

والنارِ

أنّي عبرتُ الطريقينِ

خاطرتُ بالطلقينِ

وأنّي صحوتُ على «سيلة الظهر» بحراً

وليلاً

ويروي الفتى داخلي أنه قادمٌ

حاملٌ حبه باليدينِ

أحبّك مهما افترقنا

ومهما يقالُ

أحبُّكِ بيسانُ
لكنني حاضرٌ
قادمٌ

وغريب .

(دمشق - 1975)

أبو محجن الثقفي

لا وعدَ ... ولا توبة

عندما حطَّ بي طائري . . - تلكَ حيفا -

وهذي الجزيرةُ منفي

يعودُ الشتاءُ

يعودُ من البحرِ دونَ صديق

معي من بلادي وجهُ يفارقني مرَّتين

إذْ غادرتني الرياحُ الوحيدةُ . . في شاطئِ المتوسطِ

تبقى المراكبُ دونَ قلع

وتسكنُ في الماءِ . . ملحٌ

وجرحٌ

ونصلٌ

وصرخةُ أطفالِ يافا ...

وعمَّان . .

عند الرحيلِ

قال لي صوتها:

- كيفَ لو نلتقي . . ؟

- لم أعلِّقْ جناحينِ

إنِّي أحبُّك شيءٌ . . وأن نلتقي . .

... ..

إِنِّي فِي الطَّرِيقِ المدمَّرِ بَيْنَ العَدَوِّينِ مَا شَاءَتِ الحَرْبُ
والحُبُّ

وَجْهَكَ خَلْفَ النِّوَاظِدِ يَبْدُو حَزِينًا

شِتَاءً

يَسَاوِرُنِي البَحْرُ أَنَّا بَعْدَ النِّهَائَاتِ

بَعْدَ المَدِينَةِ

والموت

- أَهْوَا المَسَاءِ الكَثِيفِ . . ؟

- وَمَمْلُوءَةٌ رِثْمِي بالدِخَانِ

وبالقصف

مَزْرُوعَةٌ بِالشَّظَايَا سَفُوحُ الجَنُوبِ

وَبِنْتُ المَخِيمِ .

يَأْخُذُنِي الدَّمُ أبعَدَ مِن خِيَمَتِي . .

وَالبِلَادُ الَّتِي حَشَرْتَنِي

إِنِّي ضَيِّقٌ كَالصَّوَاعِقِ قَبْلَ الوَصُولِ إِلَى الصَّفْرِ

كَالشَّعْرِ

.. لا

وَاسِعٌ كَالجِرَاحِ الَّتِي لَا تَصَوِّرُ

أَلْهَثُ

بِوَابَةٍ نَحْوَ عَيْنِكَ تُفْضِي . . وَمَغْلَقَةٌ

إِنِّي وَاقِفٌ بَيْنَ عَيْنِي وَبَيْنِي النَّبِيدِ الَّذِي حَرَّمُوا

والعيونُ التي أزهرتُ في الشحوبِ
وأكرهُ أن أستديرَ

هُوَ البَحْرُ

- لا

قلتُ : لا

قلتُ : لا . .

والترابُ

ويهبزُ أبي مقعدٌ مُتَرَفٌ

والمرافئُ مَيْتَةٌ بين حلمي . . وبين الزجاجِ

المسافةُ تزدادُ طولاً

أرى وجهَ عاشقةٍ في الحصارِ

أرى غابةً من خيولِ عرايا

- انتفضُ أَيُّهَا الفارسُ الثَّقَفِيُّ

وكنتُ تناولتُ معصيتي في النهارِ

انثنوا عن مداخلِ عمَّانَ

أطفالها يُدْبِحُونَ . . وهمُ غادروها

وآن الآوانُ - صرختُ -

اتُّهِّمْتُ بِأني ثملتُ

وفي السجنِ كانَ النَّيِّونَ مثلَ الزناديقِ زُرُقَ الوجوهِ

- افتقدتُ رفاقَ السلاحِ -

صحوتُ على الجفْرِ

والقبو

- يا أيها الفقراءُ افتحوا كلَّ أعينكمُ

واعلموا

أنَّ من بينهم يخرجُ القاتلونَ

ومن بينهم أخرجونا . . .

كلِّما أوغلتُ تحتَ لحمي القيودُ

انتبهتُ على ضجَّةِ التابعينَ السكارى

الرصاصُ

الرصاصُ

ولا شيءَ . . .

بيروتُ ملائنةٌ باللصوصِ

الجواسيسِ

بيروتُ للراكعينَ على بابها

إنني خالِعٌ قفْلها في الصباحِ الأليمِ

يعودونَ حمراءَ العيونِ عناوينَ في صحفِ اليومِ

والقدسُ طفلٌ قَتيلٌ

وآخرُ ينهضُ في «كفرِ شوبا»

ولكنَّهم في التكايا

وتحت بطونِ البغايا

ولا شيءَ يبرىءُ جرحَ المقاتلِ

أو يغلقُ الطرقاتِ إليكِ

وَأِنِّي لِأَشْهَدُ

أَنَّ الدَّمَاءَ . . البَطُولَاتِ تُسْرَقُ

وَالْحَبِيزُ يُسْرَقُ

حَتَّى الرِّصَاصُ الَّذِي يُطْلَقُونَ سَدَى فِي الْفِرَاغِ . . حَرَامٌ

وَتَعْلَنُ أَرْمَلَةٌ تَحْتَ صَوْتِي

- لَنَا بَرَهَةٌ الصِّدْقِ عِنْدَ انْفِجَارِ النَّهَارِ عَلَى اللَّيْلِ

مُرِّي بِشَالٍ مِنَ النَّارِ وَالْكَلِمَاتِ

هِيَ الْحَرْبُ قَائِمَةٌ لَمْ تَزَلْ مُرَّةً مِثْلَمَا وَطَنِي بَيْنَ فِكِّ

الْحَيَانَةِ وَالْإِحْتِلَالِ

إِنَّ مَا يَقْتُلُ الثَّقَفِيَّ الْمَصْفَدَّ بِالزَّرِيفِ

وَالْمَوْعِظَةَ

أَنَّهَمْ أَحْكَمُوا حَوْلَهُ طَوْقَهُمْ

خَيْرًا وَسَيْفُهُ بَيْنَ مَوْتٍ . . وَمَوْتٍ

فَهَبَّتْ عَلَى صَدْرِهِ خَفَقَةٌ مِنْ جَرِيحٍ قَدِيمٍ

فَكُنْتُ الْخِيَارَ الَّذِي بَيْنَ مَوْتَيْنِ

يَنْشَقُّ دَرْبًا إِلَى كَرَمَةٍ فِي أَعَالِي فَلَسْطِينَ

نَجْدٌ وَحِيدٌ إِلَى الْقَلْبِ

عَمَّانُ

وَالنَّهْرُ

وَالطَّلَقَةُ الصَّائِبَةُ

وَهَا إِنِّي مَقْلَعٌ تَحْتَ بَارُودَتِي

والطريقُ البحارُ . .

والطريقُ الجبالُ

الطريقُ الصحارى

الطريقُ السماءُ

الفضاءُ

الجِيعُ

المقابرُ

والشهداءُ الطريقُ

الدفاترُ

أنتِ

- السلامُ على البحرِ روضهُ الثقفي

- مرحباً

قَبلي شفتي

إنَّ فيها كثيراً عن الحبِّ

والصبرِ

والسفرِ

السجنِ

أصمتُ

حسبي أن يلتقي اليا بس . . اليا بسة . .

يقرؤون الذي فوقَ سيفي . .

وبينَ العيونِ

الذي كنتُ خبّاتهُ تحتَ لحمي

النبيذَ

الجراحَ

وصوتي . .

وأطرحُ في القيدِ والحربِ قائمَةً وهيَ حربي

- ويا امرأةً كابدتُ زوجها في الحروبِ

ويا امرأةً ماتَ عنها وخلفها في الجنوبِ

ويا امرأةً زوجها الآنَ ليسَ يحاربُ

يا امرأةً في يديها المفاتيحُ . .

إنِّي أكابدُ للحربِ

إنْ تعطني فرساً قمتُ من ساعتي وَقَلْبْتُ الموازينَ

- صبراً

- ألا إنها في الخيولِ التي ما رمتني

تبادلني الودَّ . .

بالودِّ

إنِّي أشاركها عشقها للمعادنِ

والضوءِ

ها إنني كاسرٌ فوقها محبسي

فوداعاً

وداعاً

هي الحربُ مفتوحةُ العينِ ما أغمضتُ جوعها للبلادِ التي

هادنتها . . البلادُ التي حدُّها البحرُ

والفقرُ

والصبرُ

يا امرأةً خدرتها المقالاتُ دهرًا

فَظَلَّتْ عَلَى وَجْهِهَا نَائِمَةٌ

إِنِّي مُوْغِلٌ

حَارِثٌ

زارعٌ في رؤوسِ العصاةِ تفاصيلَ كلِّ الكرومِ التي

أثمرتُ

من سفوحِ الجليلِ

وحتى جرش .

بيروت - ليبيا - دمشق

(1973 - 1974 - 1975)

الرؤية بنظارة لنا

عارياً . . عارياً كالشجر

كالنوى

فازرعيني غداً

وانطري موسماً كالرجال

فشاهدتي موعداً للمطر

كنت قبل الرحيل . .

وبعد الرحيل تظلين ،

إن العناق الذي ما تبدل يوغل كالفأس في التربة المشرعة

. . واعلمي أن مرحلة من دمي «غربت»

أن مرحلة قادمة

والقيامة في وطن ميت ترتدي لحمنا

وهي محكومة بالحصار المركب

- إن القصيدة ضيقة والزمان -

وأنت مطالبة

ههنا مدن إذ يجوع بها الحاكمون يعدون مائدة من بينها

فلا يصرخون

الشوارع خالية

والنوافذ مطفأة

والنواصي معبأة

والوطاويطُ والغَةُ

إنَّهَا حَالَةٌ مِنْ دَمٍ وَبِيَاضٍ

- مَزِيحٌ مِنَ النَّوْمِ وَالْمَوْتِ

بَيْنَ الْمَلَامَةِ وَالصَّمْتِ

بَيْنَ الْعَوِيلِ وَبَيْنَ الْبَلَاهَةِ

بَيْنَ الصَّقِيعِ وَبَيْنَ انْتِظَارِ الرَّبِيعِ

وَبَيْنَ الْبَطُولَةِ فِي آخِرِ الْعَمْرِ وَالْمَاءِ

أَنْتِ تَجِيئِينَ . . .

عَبْرَ الْبِلَادِ الَّتِي تَحْمِلِينَ مَدْمَرَةً

إِنْ خَوْفًا يَرَاوَدُنِي

أَتَقَدَّمُ

تَتَحَدُّ الْآنَ ، أَعْطِيهِ يَغْدُو شَجَاعًا ، وَأَخِذْ مِنْهُ نَصِيبًا ،

وَيَنْفَتِحُ الْأَفْقُ عَنْ شَارِدٍ بَيْنَ مَوْتٍ

وَمَوْتٍ

أَحَاوِرُهُ

- حَيْثُ تَمْضِي أَقُولُ سَلَامًا

هِيَ الْحَرْبُ إِذْ أَرْغَمْتُكَ الدَّخُولَ إِلَيْهَا مَعَ الْمُقَاتِلِينَ

فَصَرْتَ مَعَ الشَّهْدَاءِ

وَهَا أَنْتِ يَا أَيُّهَا السَّاحِلِيُّ

الصَّدِيقُ

الرَّفِيقُ

تنادمُني في المساءِ
وثالثنا وطنٌ مغرَقٌ في المجاعةِ والعقمِ
إنَّ السنينَ انقضتْ دونَ خبزٍ وماءٍ
ووجهكُ في راحتيَّ
وقلبكُ في الذاكرةِ
أدورُ الحواري . . يعذبني أنني ما التقيتُك في البرهةِ القاصِرةِ ،
وأنتُ حينَ انتفضتْ . . رحلتَ
وكنتَ وحيداً سوى من همومِ الوطنِ
أقولُ لكُ الحقَّ
إنِّي بكيتُ
وإنكُ لم تبسّمِ
وإنَّ الذي طافَ في مقلتيكُ وفي الساعةِ التاسِعةِ
يطوفُ على المدنِ الطالِعةِ
هي الحربُ فاعلمُ بأنكُ أعلنتها بالرِصاصةِ
والصوتِ
ذاكُ خواءٌ
وهذا نداءٌ
يقولونَ : إنَّ البلادَ مروّضةٌ بالمشقَّةِ
والموتِ
إنَّ الصغارَ يموتونَ قبلَ الأوانِ
وإنَّ الكبارَ يموتونَ من ذلِّهمِ

والنساءُ حُبَالِي بِمَاءٍ
- إِنَّهَا حَالَةٌ كَالْحَوَارِ الْمَفْجَرِ بَيْنَ الْمَشَانِقِ - يَا أَمَّنَا -
وانعدامِ الهَوَاءِ
تَمْرِينَ وَالرِّيحَ أُسْنَةً غَبَّ رَدَّتْهَا بِالرِّجَالِ ذَوِي الرِّيحَةِ الْآنَ
بِירוْتِ قَاتِلَةٌ مَرَّتَيْنِ
وَمَقْتُولَةٌ مَرَّةً

إِنَّهَا الْآنَ تَنْهَضُ مِنْ مَوْتِهَا فَوْقَ مَوْتِي

وَمَوْتِ صِغَارِي

وَتَوْلِدُ وَاجِهَةً أَمْرَكَتُ عَرْضَهَا

وَتَخَطَّتْ بِأَسْعَارِهَا حَاجَتِي أَوْ دِمَارِي . .

المباني

الشوارعُ

والشجرُ الأجنبيُّ

وَأَنْتِ تَنْوِينِ

لَا حَارِسٌ فِي الْحَوَارِي

وَلَا أَحَدٌ فِي الْجَوَارِ يَقُولُ : نَعَمْتُ مَسَاءً

وَهَلْ تُعْرِفِينَ الطَّرِيقَ ؟

وَأَهْلُكَ فِي الْقَمْعِ فِي زَمَنِ وَاحِدٍ يُولَدُونَ

وَفِي زَمَنِ وَاحِدٍ يَمُوتُونَ

عَلَى رُقْعَةٍ وَحَدَّتْهَا الْبِنَادِقُ

وَالْقَمْعُ

والاحتلالُ

والوجهُ لها «ريحةٌ» والشعارُ

والمياهُ لها سحنةٌ والظلالُ

وأشعرُ أني وحيدُ

وأنّي أواجهُ غربتنا من جديدُ

ومن أيقنوا أنهم سادتي غادروني وعادوا إلى القافلة

ومن موقعي في الصفوف التي أسقطوا دورها

أتلّفتُ نَحَوَكِ ، والدربُ دربانِ

واحدةٌ للمنافي

وأخرى إليك

وما بين هذين - أمّي تقول - شعيرة

ومن لحمِ بيروتِ

والناصرّة

توالدتُ حتى غدوتُ ذراعاً

وما سورةً

في النهارِ نقاتلُ دائرةً تتكاملُ

ما بينَ معركتينِ نصيرُ لهم رافعةً

ومن موقعي أتساءلُ

- كيفَ القوانينُ مقلوبةٌ؟

يسرقون انتصارنا حيث نبقى عرايا سوى من دمائِ الذين نحبُّ

وعندَ قرارِ الهزيمةِ نغدو الذين انهزمنا

وهم أولُ العارفينُ

بأنَّ الذين يموتون بينَ الخليلِ

وبينَ الجليلِ

يمرُّونَ من خِانةِ المستحيلِ

- مباركةٌ قريتي والضفائرُ تُلَوِّى بأيدي الجنودِ

مباركةٌ عينها والجروذُ

مباركةٌ كلُّ أشجارها

والطريقُ الترابيُّ يحملُ آثارَ أطفالها

وأكوامَ أحجارها

والحرائقُ في الشارعِ الموصلِ الشرقَ بالغربِ

باركها طابعُ المُلصقاتِ

وباركها ليلُ حيِّ الفنادقِ

والثلجُ

والدمُ . .

من «حيِّ نَزَّالٍ» للأشرفيةِ تبقى المسافةُ واحدةً

والعدوُّ الموحدُ في «الياسمينية» (1)

في داخلِ الأرضِ

أو خارجي

إنَّني قادمٌ في ربيعٍ يجيءُ على غابةٍ من دم الفقراءِ

وأعترفُ الآنَ بينَ يديكِ بأنِّي تعلَّمتُ قبلَ لقاءكِ بعضَ البكاءِ

فأقبلتِ فاصلةً مميَّزتها عيونُ الصغارِ

الأحباء

قبل . . . وبعد كتاب القراءة

تقولين : لا . . . في سياق المذبح

ثم تمرّين والأرض قابلة للنمو

وقابلة للعطاء

وهاجسة بالشقاء

يدور التلاميذ حول الجنود

العيون لها صوتها

والسلاح الذي خبأوه حجارة

فتسقط لينا

وتورث نظارة للوطن

وتورث كراسه وقلم

وأنت مسلحة بالصواب البليغ

معطرة بدخان القنابل

مزهوة بالنحاس وهازئة بالذهب

أي شيء تضم عليه الأصابع بعد؟

الزناد؟

الأشعة

والرعدة الغائبة؟

إن ميراثنا معطف

وحذاء

وكوفية

يا حبيب الأرزقة

والجوع

والشعر

فليكن الآن عربي من الزيف

والوسخ المتراكم

والطحلب العربي

فيا أيها العرب الأبرياء

غارس شعراً

ومستقبلاً

أيها العرب الأتقياء

الدماء

الدماء

الدماء

العلم

على جسد كالقسم

سيعبر كل المساكين

إن فلسطين فوارة بالمشقة

والشوق

إن لم . .

فإن الحريق سيلتهم البيت

والمكتبة . .

هو الوقتُ يشحبُ حتى العمى

إن أردتَ البقاءَ أدخلني في كتابِ البدايةِ

في البدءِ كانَ العراةُ

والمطرُ الآدميُّ

وزلزلتَ الأرضُ زلزالها

وأخرجتَ الأرضُ أثقالها «عبرَ قرن»

تلوحُ في غابةِ الصوتِ كفاً

ولا صوتَ يسمعُ

في الصمتِ خلفتكِ الليلةَ انتظري

إنَّهم قادمونَ

ولستُ أكذبُ أخباراً من وقفوا

إنَّهم منهكونَ

البيارقُ تستبدلُ الآنَ بالأشعةَ

آه يا أيُّها المارقون - انتظراً على مكسرِ الموج -

إنِّي تخلفتُ عنكم

وراوحتُ فالأرضُ حاضتي

والحليبُ دمٌ

والدخانُ

ارتديني

فها إنَّهم من جديدٍ مضوا يكتبونَ المقالاتِ

إنْ تقرئني فافهمي أنَّ المقالات مفصَّحةُ القصدِ مهما
احتوتُ من شعاراتنا الساطعةُ
إنَّ ذاكرةً تستفيقُ على خدعةٍ كالتِي ولدت ذاتَ غادرةٍ
فَرَحَلْنَا

- إلى أينَ ؟

- في البحرِ غائلةً

والجزائرُ منحلَّةٌ في السديمِ

ولا حولَ للغرباءِ

الزنازينُ متخمةٌ

والمشائِقُ منصوبةٌ محوراً وصليبُ

- ما الذي بينهم في حوارِ المساءِ ؟

الذي بينهم جثةٌ للشهيدِ

تراحمتِ الأذرعُ الآنَ وانقضَّ في لحمه مخلبٌ يرتدي

بعضَ أثوابها

- هل أقولُ صراخاً ؟

- بلى

غيرَ أنَّ الكلامَ الذي قيلَ . . قيلَ

وها زمنٌ من صناعةِ أحذيةِ حرَّةٍ في عبورِ الجباهِ التي انزعتُ

بينَ مكةَ

والبحرِ

إني سأذكرُ هذا
وسوفُ أعزِّبُكَ بالعربِ البائدة
آه يا أنت
إنَّ الرمادَ جديرٌ بوجهينِ كانا على موعدٍ من زمانٍ قصيٍّ
يليقُ بكِ الآنَ أنَ تشرِبيِ نخبناً
فاصمديِ برههً . . بعدُ
أنَ تلديِ قبلَ وعدكِ كارثةً للقبيلةِ
أو تلديِ بعدَ وعدكِ كارثةً
فاحذري . .
إنَّ أتاكَ معَ الليلِ طلقٌ
وقوليِ تماسكتُ
واستنجدِي بدمي . .

(دمشق - 1977)

العبور نهاراً

- بدويةٌ

بدويةٌ والنخل يكوم في عينك البلح الأشقر

ينأى بالبدويّ الشارد

في فلوات الجوع

وفي بيداء العطش

يصيحُ

ويملاً صوت الصمت

نداءً

حباً للريح الغربية

للأرض السمراء

الحمراء

الخضراء

الأرض الغربية

- زغاريدنا . .

يا رداء السماء الفسيحة

حمراء لا تنتهي

أو تزولُ

ولا تعرفُ المستحيلَ

اصبغينا بلونك

كوني على النخل أرجوحةً
للعيون الحبيبة
ونخل ربوع قرانا
حقولاً من الورد
أحمر

- يا وجع العمر الطافح بالأوجاع
حكايتنا

واحدة الصفحة

والأسطر

والأحرف

والنقطة

والفاصل

واحدة بدوية

- عبرت إليك

وألقيت حملي على الشط

جعت

ظمت

تنفست ناراً على شفئك

وأشرقت في مقلتك شمساً

هم الأهل

والصحب

أنت
أنا
والصغارُ الظَّماءُ
العدارى
القبابُ
الشبابيكُ
عاشتُ
وعشرون ألفاً
وعشنا
- وبعينك نخيل يطفو
يبحرُ
يحملني
يضربُ مجدافاً
أجنحةً
في «شط العرب»
وطيرُ النورسِ
مسكينُ طيرُ النورسِ
إذ يتعبُ
يتعبُ
يغرقُ مثلي
لا يصلُ الوطنُ الغربي الأزرَق

خلفَ الليلُ
- وتُوصدُ عيناكِ
أبوابها المشرعاتِ
انكفأتُ
وجر جرتُ نفسيَ بينَ الخرائبِ
زحفاً
بلا راحتينِ
ولا قدمينِ
دفقتُ نزيفاً من الدم . . طفلاً
وتهرسني باهشاتُ الحديدِ
وتعجنُ لحمي بلحمكِ
ليس يفرقنا بعد هذا
ولا الموتُ
ذوبي بأعصابي الصابراتِ الشقيةِ
يا بدويةِ
- عيناكِ ملاذُ اثنينِ
أنا والموتُ
الموتُ
الموتُ
الموتُ
الغربةُ

خَلِّينَا . . اغتَالَ المَوْتَ قَبيلتِنَا

لَمْ يَنْدِبْهَا أَحَدٌ غَيْرَ الشَّعْرِ

فَخَلِّينَا

نَبْعِثُهَا فِي قَلْبِنَا

لَا نَحْكِي مِثْلَ زَمَانٍ

عَنْ أَثَرِ دَارِسٍ

بَدْوِيَّة

وَعْيُونُكَ وَعَدُّ قَبيلتِنَا

وَعَدِي

مِيحِنْتِي

- «أَوْف»

يَا عْيُونُكَ أَوْف

لَعْيُونُكَ أَحْمَلُ بَارُودَةً

لَعْيُونُكَ لِأَفْدي دَمَّاتِي

وَبَعْيُونُكَ أَفْتَحُ طَرِيقِي

وَأَخْذُ بِالثَّارِ

يَا عْيُونُكَ أَوْف

بَدْوِيَّة . . .»

- عَلَى بَسْطِ الجَمْرِ خَلَّفْتُ قَوْمِي

فَخِذًّا

وَبَطْنًا

ونهداً

تدوسهم الخيلُ صبحَ مساءً
تغذّي عليهم صقورُ العوادي
وتلك أصابعُ أطفالنا المرهفاتِ
وباءٌ

وأعينهم زينةٌ للأميرةِ
أسنانهم
شمعةٌ أشعلوها على الرفِّ
تحفةٌ

وحملها اليوم فوقَ جناحيه
للرومِ
في الجزرِ المظلماتِ
بشارةٌ

- الغربيةُ . . آه . . طالتُ
- ما عشنا فرحَ الأطفالِ
ولا شفنا عيداً

أو غنّينا

قلنا . . قلنا

وحكينا . . ونشجنا

أبكينا حتى النهرَ

وحتى الصخرُ

لا يبكي أحدٌ معنا
لا يبصرُ دمنّا
تحلمُ
لا تدري أنّ حصادَ العمرِ احترقَ
وصارَ رماداً في بيدرِها
لكنّ تطحنهُ
تأكله خبزاً يومياً
ليستُ تتبيّنُ طعمَ رغيفٍ معجونٍ بدمِ المستقبلِ
ليستُ
- وإنا غريبان
والرملُ يبتلعُ الغرباءَ الحيارى
إذ سلّموه المقلّيدَ
فغنيّ
انزعي عن سمانا عباءاتها المثقلاتِ
بدمِ الضحايا
- من منّا أبحرَ في فلواتِ الغربةِ أكثرُ؟
لا أسألُ
فالغربةُ إذ تولدُ في ذاتِ الغربةِ
تشرقُ حباً
ما الحبُّ سوانا
يا عيني

قولي
وتعالي
أعطيني خاتمك الفيروزيَّ
خذي عيني . . خذي
وخذي
وخذي
وخذي . . سيفاً
ورقيقاً . . للمدن الزرقاء هدية
بدوية
- أصرخُ بدوية
عينك عباةتنا المفرودة للفقراء
خياماً . . واحاتٍ للعطش
وللعطشانين
- «وارد عالمي»
خيال الزرقا
وارد عالمي
فرسه نشوانه
وارد عالمي»
- وأذكرُ يومَ عرفتك
قلت كلاماً عادياً
قلت

وكانت خيمتنا
صيواناً مترفةً . . . كانتُ
كنا قلنا شيئاً لم يجتز بحرَ السكتهِ
أذكرُ . . . بدويةً
وصمتُ . . . صمتُ . . . صمتُ
شربتُ عذابي
حتى انفجرَ بعينيك اليوم
الآن . . . الآن

هنا

يتعانقُ نهرُ زُفٍّ ونهرُ
في عينيك
شرعتُ سيوفَ البرقِ
ذبحتُ الحزنَ رقيقي
ألقيتُ به بعدي . . . بعدي
وجثوتُ أصليّ
- بدوية

لا رحل في الليلُ

على ديرتنا

لا رحل في الليلُ

واسقي العطشانة

بطلوعِ الشمسِ

لأرحلُ «في الليل»
- لماذا كنت . . وصرتُ
وأنت الآنَ غريبة؟
عصرتُ جيني
ولهاثي
متُّ
صحوتُ
عرفتُ بأنِّي أخيراً لقيتُك
أنَّ الصحارى صمتنَ
إزاء هتافي باسمكُ
وما عنك حدثنَ
أو قلنَ . . مرَّتْ
ومدَّتْ إليك يديها
توارتُ مع الشمسِ عندَ المساءِ
وغابتُ على شالها الليلكيِّ
فألقيتُ للغربِ وجهي
تناولتُ شمسي من الشرقِ
عانقتُ فيك جنينَ المطرِ
صحوتُ وفي مقلتيك دمائي
مرجانتان
حملتكِ فوقَ حزامي سلاحاً

عبرتُ بِكَ البحرَ
أصبحَ للسندبادِ رقيقةً
وما عادَ للسندبادِ عروسٌ على كلِّ شاطئٍ
وصارَ لعينيكِ
صارَ الرحيلُ
وصارَ الإيابُ
ولما تناولتُ كَفَّكَ أنتِ بكفي
ارتمينا بفيءِ الشجيراتِ عندَ أريحا
شباكاً تمرَّستِ الصيدَ
شدتُ إليها القمرَ
وفي قممِ السِّدرِ علقتُ سيفي
مزاراً
تحجُّ إليه القبائلُ من كلِّ فجٍّ و صوبٍ
ومنه بعينيكِ ظلي
أنا كلُّ فرسانِ هذي العصورِ
أنا كلُّ من قال شعراً
وغنَّى العتابا
المواويلَ
- «يا ليلُ
يا عينُ
أوف . . .»

- ومُذُكَنْتِ أَنْتِ وَسَامَ الْقَبِيلَةَ
يا ابنةَ عَمِّي
أنا عنترَةُ
وإِنِّي ذَكَرْتُكَ يَوْمَ الْمَعَارِكِ
والمَجْزَرَةِ
ومَنِّي تَنْهَلُ تِلْكَ الْحَرَابُ الَّتِي لَمْ أَقْبَلُ
وَقَاتَلْتُ
قَاتَلْتُ
حَتَّى سَقَطْتُ جُرِيحاً
وَعَاشْتُ جَمُوعَ الْقَبِيلَةِ لِلْمَرَّةِ الْأَلْفِ
ذَلَّ السَّبَايَا
وَهَدَّوْا خِبَاءَكَ
هَدَّوْهُ فَوْقِي
زَحَفْتُ إِلَيْكَ
صَرَخْتُ عَلَيْكَ
فَمَا رَدَّ غَيْرِي
انْعَطَفْتُ عَلَى صَافِنَاتِ النَخِيلِ
سَأَلْتُ الْفَجِيعَةَ
مَا رَدَّ غَيْرِي
قَلْبْتُ رُكَامَ الْجِثْثِ
لَعَلِّي أَعْرِفُ وَجْهَكَ

عينك
بين الوجوه
وبين العيون
فضاعتُ يميني
وضاعتُ عيوني
كأنِّي لمحتكُ
وغبتُ
وكنتُ جريحةً
- « يا ويلي عليهمُ
عتابا المجاريح
سالت مع السَّيلِ
جفرة كسيحة
ويا ويلي الحبايبُ
جدايلُ . .
جدايلُ . . »
- تعالي نمُدُّ جرحاً حملناهُ دهرًا
ونشربُ نخبَ ولادةِ عرسِ الصبايا
النخيلِ
وبيارةِ البرتقالِ
وزيتونةِ الدارِ
أم الربيعِ

تعالِي وهذِي يَدِي فِي تَضَارِيسِهَا
يُنَابِيعُ لَيْسَتْ تُصَبُّ سِوَى مِن يَدِيكَ
أَحَبُّ مَرَايَاكَ وَجْهِي
غَنَّ

فَدِيَتِكَ . . كَمْ أَنْتَ حَلْوَةٌ
سَقَطَتْ عَلَيْكَ شَهِيدًا
وَقَمْتُ
سَقَطْتُ
وَقَمْتُ
سَقَطْتُ

وَكَانَتْ قِيَامَتَنَا الْقُدْسَ
عَمَّانَ . . غَزَّةَ

وَالْمَجْزِرَةَ

وَيَا وَيْلَهُمْ هَبَّ مِنْ قَبْرِهِمْ
كُلُّ أَطْفَالِنَا

وَالْجُمُوعَ الْقَتِيلَةَ

- « يَا لَيْلِ يَا لَيْلِي عَيُونُكَ بَكَتْ

عَلَيَّ وَعَلَيْهِمْ

وَقَلْبُكَ بِكِي

وَعَمْرُكَ شَرِيَّتَهُ

بِعَمْرِي»

- أنا البدويُّ الذي أطلعتَه الصحارى إليك
فعاشَ يتيماً

كصَّابرةٍ فوق قبرٍ يتيِّمٍ

قديم

أنا القبرُ

خلَّفتني فيه حياً

لماذا؟

وفي الكونِ متَّسعٌ لكلينا

ونحنُ صغيرانِ

يكفيك مني بباطنِ كفك قبلةً

وحسبي منك ارتعاشٌ بظاهرِ كفي

عبلةً

وأمضي وراء الغزاةِ

أردُّ السبايا

وأفرحُ من شفقتك ببسمةً

ضريراً أنا اليومَ

حُطِّي بعينيَّ عينيكِ

دربي تعثرتُ فيه طويلاً

تلمَّستُ جدرانَه المغلقاتِ

بكيتُ

وأقعتُ في جُبِّ يوسفَ

ناديتُ . . يا إخوتي
وناديتُ ربِّي في حوتِ يونسَ
ما ردَّ ربي
ولا إخوتي
وكنتُ كأيوبَ وحدي
دونَ رفاقٍ يدلُّونَ للبحرِ خطوي
أنا ما ضللتُ إليك الطريقَ
اعذريني
إذا شيعتني الدروبُ التي قطعوها
كقلبي
التي حاصروني عليها . . وجرحي
فدرتُ
ودارتُ بي الريحُ
ألقتُ برأسي تحتَ حذاءِ اليزيدِ
ونصفينَ صرتُ
وما لمَّني قاتلي . . أو بكاني
وكلُّ المطارحِ لي كربلاءُ
وعيناك . . عيناكِ
مدُّ البحارِ التي لم يصلها شراعي الممزقُ
في النيلِ . . والنيلُ ما زالَ سفراً
سجيناً لدى الجانِ

في قلعة الحبشيِّ
وصغاءُ أنت انتظاري
الذي حاصرته جيوشُ النجاشيِّ
تسحقُ في سورها رثيَّ
معلّقةٌ جثّي في الفراغِ المدمّي
ممرّاً لعمّان . . وهي حريقُ

- «ويا شوق

ويا دندنات العتابا
ويا عابرينَ الدروب
ويا محملينَ الأسيّة

مدوا ضلوعي

مدوا عيوني

حمالة للجريح اللي قلبه علينا . . .»

- خذي بي بعينيك -

صيفَ سنابل

يا أغنياتِ المناجلِ

يا بدوية

انهضي في ذراعيَّ

رمحاً

وترساً

ووشمَ حمامةً

افرشي ريشها أسهماً
- اتبعوني
صعاليك كل القبائل
هذا زمان الصعاليك
مات زمان الأمير المخدر بالدم
صارت «عظامه مكاحل»
ويا نسل جيل الجواري
أضفروا شعرهن على الليل
غاب مشانق
- هنا نحن يا هند
أين بقايا القبيلة؟
أين انتصاراتنا؟
والسيوف التي ثلّمتها المعارك؟
أين الهلال فينا؟
يغازله الغرب . . يمشي إليه
على رأس جيش محارب؟
- تدلى اسمه يوم كنا ثريداً
ولحماً
وبرميل خمير
وأنبوب نفظ
وقرطاس فتوى

على طاولات الأمير

تدلَّى . . وماتَ

وكنا نحاربُ

على قمة في الشمال انتصبتُ

وعينيك . .

يا ساريات البيارق

- «ولولا عيونك ما اطلعت أنا عالجبالُ

ولولا عيونك

ما سافرتُ حربتي للمحالُ»

- وآه ، حبيبي . .

الحزنُ . . والموتُ . .

بكرًا حلمتُ بأنك

لكن . .

وكنتُ طريحتهمُ

غيرَ أنِّي

على طولِ دربي إليك . .

سقوطُ الحضارة

. . آه

وخرَّ الإله صريعاً

- «وزلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها»

بعمَّانَ

كلُّ المدائنِ عمَّانُ
كلُّ التواريخِ أيلولُ
أيارُ
والجلجلاتُ حزيرانُ
إني أدوخُ
فلا عن صليبي نزلتُ
ولا للسماءِ صعدتُ
ولكنني المعجزةُ
أنا الطفلُ في المهدِ كَلَّمْتَهُمْ
فازدروني
ولما كبرتُ بهم طاردوني
ولما شفيتُ لهم برصهمْ
عَمِيَهُمْ
وأحييتُ أمواتهمْ
سَمَّرُونِي
يهودا بريء
فكلُّ الملايينِ من لم يقاتلُ
ومن شاهدوني
ولم يفتدوني . . ومن قتلوني
ومن لم يخبرهمُ الصوتُ أنّي سلبتُ
جميعاً يهوذا

- انزعينا عن الخشبات
وخلّ المساميرَ فينا سلاحاً
يولدُ من خاصراتِ الجبالِ النهارُ
جيوشاً تدمّر موجَ التتارُ
وليستُ تصلّي
وليستُ تنامُ
وتزحفُ في لبناتِ البيوتِ
وفي ناصياتِ الشوارعِ
في محرقاتِ الصّفيحِ
وفي الموتِ . . . تزحفُ
عيداً من الرعبِ في كلِّ «حُمَر»
- «ويا ميجانا لك . . . يا ميجانا
من الغربِ نسَمُ هوا أحببنا . . .»
- شريدان
نكتبُ في الأرضِ سفراً جديداً
به الریحُ
والماءُ
نذرُ علينا
لكلِّ الذبائحِ منا
فمن فمنا انهلَّ صوتُ النبيِّ القليلِ
- تعالوا إليَّ

أنصتوا لي
فمن قلبِ قلبي الطريقُ
أبارككم إن عبرتمْ
وألعنكم إن فررتمْ
وأسخطكم إن تذبذبتم أو ضعفتُم
فمن قلبِ قلبي الطريقُ
انظروا حيثُ يمضي اصبعي
هناك انتظرتُ الجموعَ على القممِ السبعِ
عمَّانُ . .

يا قُمَّةَ الصاعدينَ إلى القدسِ
ملعونَةٌ يا عيونُ بنيتها
التي فتحتُ دونها . .
والتوتُ للوراءُ
تعالوا إليَّ اعبروا كلَّ جرحٍ بعنقي
بعينيَّ
كلُّ جراحي للعابرينَ جسورُ
وكلِّي نوافذُ
تعالوا إليَّ
اعبروا
واصمتوا مرةً بعدَ ذبحي
اصمتوا

واعبروني
وكونوا كما يوم قطعتموني
وشاركتم الرومَ أكل جفوني
وطحنَ عظامي
ودمي

ورأسي - هدية -

مسا حيقُ للمرأة العاهرةُ

أبارككم إن عبرتمْ

وألعنكم إن فررتمْ

وأسخطكم إن وقفتمْ

فمن قلبِ قلبي الطريقُ

- عبرتُ

اصعدي بي جبالِ المنافي

وعاماً

فعاماً

وجيلاً

فكلُّ المنافي لنا ووجدنا

أي منفى جهلناه عبرَ السنينِ المريرةِ

- يا أيها الميتونَ

انهضوا

جتتكم من قرارِ البطولةِ

جئتُ مُحَمَّدَ عَصْرٍ أَتَى
جئتكم
ويلكم
والهزيمة .

(البصرة - بغداد - 1973)

على الصليب

(إلى الشاعر الصديق فاروق شوشة)

(1)

يا مَنْ أتيتَ رَاكِباً على الرِّيحِ

من منابِعِ الرِّيحِ

والمطرُ

«على شواطئ المدينة الخرابِ»

قفُ

يا قادمًا رمى شباكه بلا هدفُ

وما عرفُ

بأنه يعمُ فوقَ كومة من الرمال والصدفُ

وحوله مزارعُ الصلْبانِ ترمي ظلّها

على السماء والبحرُ

يا قادمًا لقيته أقول : قفُ

سنونُ قد مضتُ

ملأتها

حملتها . . بقفُ

ولم أزل لكلِّ قادمٍ أصيحُ : قفُ

الرعبُ حيثما التفتُ

أينما ذهبتُ

كيفما غفوتُ
ويومنا بحيرةٌ من قارُ
نغوصُ فيها ذاهلينَ ، حائرينَ
حيثُ لا قرارَ
لا قرارَ
تجتزنا محاجرُ الغيلانِ
تميتُ فينا روضةَ الإنسانِ .

(2)

يا مرحباً فأنت ضيفنا ، ولن تعود
حيثك عاصفةُ
لفتك عاصفةُ
وقبلتك ألفُ ألفُ عاصفةُ
سحبتَ من بحارِ القارِ شبكتكُ
ألقيتها
سحبتهَا
ألقيتها
سحبتهَا
حبالها تعفنتُ . . تفسختُ
ولم تجدُ محارتكُ
أنا هنا على الصليبِ أرقبكُ

نصبتَ فوقَ كومةِ الرمالِ خيمتكُ
ورحتُ تعدو «تأثهاً على الخليج»
باحثاً عن المحارة التي حلمت أنها هنا
رثيتُ لكُ

فلا محارَ في بحارِ القارِ لا محارُ
وعندما رجعتَ كانتَ خيمتكُ
تشيلها عواصفُ الرمالِ
وصرتَ أنتَ مثلنا على الصليبِ
عينكَ عند شرفةِ الأفقِ
لكلِّ قادمٍ تقولُ : قفُ
هنا يعيشُ أكلو الإنسانِ شاربو دمه
هنا جزيرةُ الجرادِ واليهودُ
وههنا توقفَ الزمنُ

.....

يا ضيفنا ابتسم
صدورنا تجترُّ أغنيةً
جفوننا ترفُّ تحملُ ارتعاشةَ الحياةِ في قلوبنا
إلى المدى
إلى منابعِ الرياحِ والمطرِ
هلاً صمتاً يا رفيقنا
هلاً صمتاً

.....

.....

ماذا؟

سمعتُ أني غنيَّةٌ والرفاقُ أغنيَّةُ

رأيتُ أني

نزعتُ من يدي

مسمارَ جالدي

وأناك أنتزعتَ عنك ما يشدُّ للصليبِ قامتكُ

احملهُ فوقَ كاهلكُ

يا من تغدُّ في الطريقِ خطوتكُ

وقفُ . .

(3)

وقبل أن تقولَ يا رفيقنا الوداعُ

وقبل أن تنسى بأننا جياعُ

لنسمَةِ طرية

لبسمَةِ مليئةٍ بالنورِ

بالحبِّ يا هاجرنا

نودُّ أن نقولُ

غداً . . . وما غدُّ بعيدُ

.....

الثامنة

التاسعة

العاشرة

ثنتين بعدَ العاشرة

... ..

لَعَلَّكَ أَنْتَظَرْتَ أَنْ نَقُولَ مَا تَرِيدُ أَنْ نَقُولَ

لَكِنِّي صَمْتُ مُعَذْرَةٌ

الصمْتُ فِي مَلَامِحِ الرَّفَاقِ لِحِظَةِ الْمَخَاضِ مَأْثِرَةٌ

إِلَى لِقَاءِ

لَدِيَّ مِنْكَ أَحْرَفٌ حَزِينَةٌ مَبْعَثَةٌ

وَكَوْمَةٌ مِنَ الْوَرَقِ

وَمُحَبَّرَةٌ .

(الكويت - أيار 1963)

الهوامش :

(1) أحد أحياء عمّان .

(2) أحد أحياء نابلس .

أَسْمِيكَ بِحَرًّا...
أَسْمِي يَدِي الرَّمْلِ

بيروت 78

... وحيداً .. تسافرُ

وحيداً .. تعودُ

وحيداً .. تنامُ

وحيداً .. تموتُ

وبيروتُ مثقلةُ القلبِ مثلي ..

ومقفلةُ دونِ حلمي ..

تصادرُ من رحلةِ العمرِ

تبقى معلقةً في جدائلِ حبرِ المطابعِ .. والأسئلةُ

وفي باقة من زهور

وملصقتها .. لا يقولُ :

تردُّ إلى بعضها

وتركبُ في لعبة .. تتسلَّى على دمها .. في السقوطِ

وتنهضُ من دمها .. في القنوطِ

لأنَّ السماءَ التي فوقها

والروابي على قربها

والسهوب التي بعدها

والمدائنَ من حولها .. حجبتها الزيوتُ

وألغامها انفجرت في مواقيتها

بينَ طفلٍ . . وحرشٍ
فيلهتُ في صدرها الربو . . والعنكبوتُ

ويبروتُ

في قلبها . . جمرةٌ من ندى . .
وزنابقُ . . من شجرٍ مشرقٍ
من نخيلٍ . . وتوتُ
وشمعٌ حزينٌ . . كمستقبلٍ غامضٍ . . لا يُحدُّ
ومشتعلٌ عسلاً . . ومراثيٌ نحاسيةٌ
ويشكّلُ أحزانه في الحديد . .
ويوغلُ في شارعٍ من بريدٍ
يراكمُ أخباره . . في خرابِ المسافةِ
بين المقاهي . . وبين الرووسِ التي امتلأت بالصديدِ
وتمتدُّ عيني إلى زمنٍ مغرقٍ في الأفولِ

- أنشهدُ هذا ونمضي؟

ونمضي بنا دهشةً . . لا تزولُ؟

- وأينَ

الدوائرُ متعبةٌ . .

والتردي . .

وها نحنُ في فصلنا . . جاوزتنا الفصولُ

- وماذا ترى بين كَفِّي . . وشاراتها . . . ؟

- هامشاً واسعاً . . عسكرتُ فيه قواتهمُ

والهواءُ الدخيلُ

وأعشاشهمُ فقَّستُ بيضها

ثمَّ . . .

واختلطَ الطيرُ بالطيرِ

أيُّ الطيورِ التي نحنُ ؟

أو أيَّهمُ . .

دُلَّني . . دُلَّني . . يا حبيبي الذي ضاعَ منِّي -

- وأشهدُ

أنَّ التي متأخِّرةٌ ولدتُ

متأخِّرةٌ جاءتُ إليكَ

ومبكرةٌ ترحلُ

مسربلةٌ بدمها

لا يشيعُها أيُّ من الذين تفيأوا شعرها . . أو تدفأوا بنهديها

أو تقنَّعوا بوجهها . . أو زينوا بها صدورهمُ في الاستعراضِ الأوَّلِ

والاستعراضِ الأخيرِ . . -

وهذا الصباحُ الرماديُّ . . وردُّ

وبردُّ

وأنتَ تشيعُ جثمانكَ الآنَ

والوقتُ من ذهبٍ . . وقلوعُ

ومن قهوة مرّة
ووقوف على قبلة . . وولوع
وانحدارٌ على ورق لامع . . وخبوط
وبيت يشادُ على الرملِ
بيتنا من اللغو

واللهو
من عطشٍ جاهليٍّ . . ووجه ذليلٍ
هُوَ الوقت . . مائدةٌ من بيوتٍ
ومائدةٌ في البيوت . .
وأنت تحملقُ في غربة
مرةً في رماد المكان الذي خَلَفَ القصفُ
أخرى تعضُّ رمادَ السنينُ

وتحزنُ من غضبٍ
يا صديقي الذي كانَ من عطبٍ
وملامحٍ من خشبٍ
احتفلُ . . إذ تموتُ
ولوْحٌ : وداعاً
- وداعاً . . لأنك من كذبة صدقتُ نفسها
وارتدني

فكذبتُها . . واحتترقتُ على نجمةٍ

قل : وداعاً

فقلبي يوزع فضته . . ويجوع

- وأشهدُ

أنَّ الطائرَ الصعبَ . . الذي اقتحمَ عينيَّ تلكَ الليلةَ . . كضيفٍ

جاءَ وكضيفٍ مضى وأنه اختطفَ العتمةَ منهما في إيقاعٍ سريعٍ

. . وفرَّخَ مكانها شمساً . . أو صحارى

وفضاءً بلا حدود . . وفجيعَةً لا تتوقفُ عن الصمتِ . . ولا تطلقُ

الصوتَ . . أو تبلغُ

الموتَ

وأشهدُ

أنَّ لاشيءَ حولكَ . . لاشيءَ . . غيرَ العوسجِ . . وغيرَ البرزخِ

الموقوتِ . . والظلِّ

الذي بلا ظلِّ

وأشهدُ أنَّ شجرَ الصُّبارِ النامي في جهاتك . . الآنَ يملؤك . .

والآنَ يحتويك . .

وأنتَ تفجرُّ الأرضَ من سفحِ (ميتلون) إلى الوطنِ المتصحريِّ بين

محيطين . . والعالمِ . . أنتَ الجُسورُ التي نسفوا

والقرى

أنتَ منتشرٌ في الصدى

في الندى

والحجرُ

أنتَ أضرحةٌ لا تهاجرُ من حلمها
وتقاتلُ أعداءها . . بالقمرُ
أرحُ رأسكَ الآنَ من فكرة لا تضيءُ . .
فلا شيءَ غيرَ الزمانِ البطيءِ
ولا تنتظرُ
فالجناحَ الذي مرَّ . . ليسَ الجناحُ الذي قد يجيءُ . .

وغادرُ دواركُ
غادرُ قصائدنا - كائناً - وانفجرُ بشراً
فالدروبُ إلى «صفد» بينَ بحرينِ
هذا الذي يمنعونكُ
أو يهدرونكُ . . متّحدينَ علانيةً . . وطني . .
وهذا الذي في سوادِ عيونكُ . . والقمعِ
- يا وطني
وعليكَ السلامُ
عليكَ الحروبُ
وعبءُ الذي احترفَ القتلَ فيكُ
ومنكُ الهروبُ
فحيفا الطريقُ إليكُ
وأنتَ إليها الدروبُ
- وأشهدُ . . .

أَنَّ الْعِلَاقَةَ قَائِمَةٌ فِي جَنِينِ التَّوَقُّعِ بَيْنَ الشُّرُوقِ وَبَيْنَ الْغُرُوبِ
وَأَنْتَ . . . الْوَقَائِعُ تُكْتَبُكَ الْآنَ سِرًّا
بِزَيْتٍ . . . وَمَاءٍ
وَنَافُورَةٍ مِنْ دِمَاءٍ
تَرَجَّلُ إِذَا أَيُّهَا الْعَرَبِيُّ
وَوَاصِلُ خَلَاصِكَ فِي لِحْمِنَا
سَتَكُونُ . . . إِذَا كُنْتَ . . . أَوْ لَا تَكُونُ
تَرَجَّلُ بِنَا . . . غَابَةً . . . وَرَجَالًا
تَرَجَّلُ وَإِلَّا
سَيَنْهَشُكَ الطَّيْرُ مِنْ حَزْنِنَا السَّرْمَدِيِّ
وَكَنْ قَمْرًا شَاسِعًا كَالسَّمَاءِ
وَكَنْ مَا نَشَاءُ
فَإِنَّ الْجُرَارَ الَّتِي طَفَحَتْ . . . طَفَحَتْ
وَالصَّبَايَا . . . تَحْجَرْنَ
وَأَتَّسَعَ اللَّيْلُ حَتَّى غَدَا خِيْمَةً مِنْ خَوَاءٍ .

(بيروت - 1978)

حوار خاطف مع فتى فلسطين

(إلى محمود درويش بعد قصيدته المتنبي)

نتتهي يا فتى

حيثُ لا وقت للحبِّ

أو للسفرُ

نتتهي . . حيثُ سهلٌ من الحزنِ يبقى

ونهرٌ من الحزنِ يبقى

ولا شيءَ بعدُ . . سيبقى . . سوى

ميجانا

ميجانا

يا عذابَ الجبالِ

الرجالِ القريبينِ ليلاً

إليها

نشدُ الدمَ . . البحرَ . . والريحَ

والجمرَ في القلبِ

والجرحَ في العمرِ

لا نتتهي يا فتى

نتتهي

حيثُ لا وقت للوردِ

أو للحجرِ

عرسنا

والترابُ

يضيعان في كأس ماء من البحر

إنَّ الذي يستعيرُ برامجنا

الآن يرمي بها للكلابِ

ولللجائحةُ

نتتهي . . حيثُ لا نتتهي

صدأُ

ورقُ

رائحةُ

مرحباً . . إذ تجيءُ لفتحِ الليلةِ الذاكرةُ

هذه شمسنا واحدةُ

أرضنا

برتقالتنا واحدةُ

طلقةُ واحدةُ

والفضاءُ الفسيحُ بنا ضيقُ حولنا

ضيقُ يا فتى

فاكتبُ في المكانِ

ابتسمُ في الزمانِ

نتتهي . . حيثُ لا نتتهي يا فتى

أمطرتُ غيمةً في الكلامِ

ههنا فاصلٌ ننتهي عندهُ

ننتهي بعدهُ

نلتقي

حيثُ لا ننتهي

ننتهي في المدارِ البوارِ

والنهارُ دمٌ وارفٌ

مدركٌ بعضُهُ

واحداً . .

واحداً . .

عشرةً

خيمةً

مهجراً

معبراً

والصغارُ

والمسيرُ انتظارُ

ننتهي يا فتى

حيث لا وقتَ للسيفِ

أو للشجرِ

مرةً كأسناً . . خدعةً

كأسناً . .

هل ترى أنت مثلي صداقتنا العابرة

والحوار الذي بيننا

تعب . . واحتضار

هذه حربَةٌ وزَّعت نفسها بيننا

كسرةً

كسرةً

نجمَةٌ مرَّةً

أو وسامٌ

ضربةً . . ضربةً

فانتبه

قلت :

- فات الأوانُ

ونسقطُ بينَ الرغيفِ

وبينَ المسننِ للأرضِ

نسقطُ

والأرضُ واسعةٌ . .

وتضيقُ بنا

والسماءُ تضيقُ بنا والهواءُ

الهواءُ

متعبٌ صاحبكُ

متعبٌ قاتلكُ

متعبٌ ورقُ المكتباتِ
الإذاعاتُ متعبَةٌ
متعبٌ . . متعبٌ
فاعطني من يديك . . يداً
واعطني ريشتي
فالطريقُ العمى
والرجالُ الدُّمى يقطعونَ الطريقُ
والعتابا حريقُ
- ودّعيني . . غداً
ودّعني الراحلينُ
إنَّ قلبي يشيرُ إلى المقبلينَ -
هنا قبلَ أن يولدَ القمحُ من أمه . . ننتهي
قبل أن ننتهي
حيثُ لا وقتَ للطيرِ
والبرقِ
في صورةٍ واحدةٍ
ننتهي يا فتى
أينَ قبرُ الرجالِ الجماعيُّ
قف . .
أمك الآنَ بابَ المجالسِ
ترنو بصورتك الغائبةً

هل ترى يا فتى؟

أُنِّي دمعها

من عظامٍ

ولحمٍ

وضوءٍ

وأمشي إليها

تراها يداي . .

مغلقٌ بانبها زمنٌ . .

ينتهي

يبتدي

يرتدي صوتها

آه «يّه» . . .

أغيبُ وصوتي يغيبُ

وتغرقُ في بهجة الحزنِ أمي

وأغرقُ . .

تغرقُ في حفنة من ترابٍ

والعتابا دمٌ . . والشبابُ

يغطُّونَ وجهَ اليبابِ

العتابا دمٌ . . والشبابُ

سفنٌ من ورقٍ

والرجالُ علَّقوا

إِنَّهُ الْمَفْتَرِقُ

ننتهي يا فتى . . حيث لا ننتهي

يا فتى

مفجع أن أزورك سرّاً

ووحداً بالسرّ تأتي إليّ

- انتبه

- إننا وحدنا

لا تخف

- انتبه

- والجدار؟

- الجدار . . جدار

- هو السجن

- لا ، بل هو السجن

لا

- أو هو القتل

لا

- بل هو ال . . .

- وحدنا . . لا تخف

إنني مُنصت

...

- قلت ماذا . . فهمت

- . . .

- وماذا

- فهتمُّ

حرقة أيُّها الجبليُّ

الهوى حرقةٌ

والدويِّ

هو الموتُ سيَّانُ يأتي غداً

أو أتى . . .

يا فتى

إنَّه موعدٌ مشرَّعٌ للذينَ أتوا

والذينَ قَضوا

موعدٌ . . . يا فتى . . .

اشربُ قليلاً من الشاي

واشعلُ لفافتكَ الآنَ قبلَ الغروبِ

لنأتي إلى حيثُ نَصطادُ بعضَ الرصاصاتِ

هذا خلاصٌ

وأنَّ فلسطينَ غاليةٌ

يا فتى ننتهي . . . حيث لا ننتهي . . . يا فتى . . .

قلتُ:

- إنَّ تُعطني جرعةً من مياهِ «الشريعة»

رافقتكَ العمرَ . . يا صاحبي . .
متعبٌ صاحبكُ
إنما أنتَ بينَ عيوني
وبارودتي
موغلٌ يا فتى . .
فابتعدُ في دمي
واقترِبْ من دمي
حيثُ لا وقتَ للزيفِ
أو للضجرِ . . .
ننتهي . . يا فتى
حيثُ لا ننتهي
فانتظرنِي . .
انتظرنِي
انتظرِ يا فتى
وانتظرُ .

(دمشق - كانون أول 1979)

تلويحةٌ للوجهِ الآتي

مُرَّةٌ .. مُرَّةٌ قهوةُ البارحةُ

مُرَّةٌ .. مُرَّةٌ كاللقاءِ الأخيرِ

شارعٌ مرهقٌ .. والرصيفُ جبالٌ

خطوةٌ في المدى .. خطوةٌ في القرارِ

وأنا موعِلٌ .. موعِلٌ في الرمالِ ..

والوصولُ احتمالٌ

وردةٌ ..

شاطيءٌ

قاربٌ

قنبلةٌ ..

ويكونُ النهارُ

ربَّما ..

ربَّما ..

هذه حالةٌ للجسورِ .. النسورِ

الأراجيحُ مشتاقَةٌ للخطى

والخطى بينَ .. بينَ

والعناءِ الصباحِ ..

ساعةٌ من ورقٍ ..

ساعةٌ من دخانٍ .. وأخرى .. مبددةٌ

ساعةٌ من أرقٍ . .

وتضييعُ الطرقِ . .

ساعةٌ من قبورٍ . . تضييقُ . . . وتظلمُ

وهي تثرثرُ بالشعرِ . .

والحبِ . .

والكتبِ الراضيةُ

ساعةٌ . . سأمٌ . . وصديقٌ تساقطَ . .

ثمَّ تغادرني . . لأضيقَ وأمضي إلى ساعتِي

كانَ لي موعدٌ . . - إنَّ لي - «مُرَّبي» أو غداً

موعدي . . .

ورقٌ من حجرٍ . . .

لا يمرُّ المساءُ الذي مرَّ بي . .

أو يمرُّ السَّحرُ . .

أعطني قهوتي كلُّ شيءٍ يموتُ على ساعدي

ليلةً . .

قمرٌ

ملصقٌ

قلمٌ

محبرةٌ . .

وأنا شاهدٌ مرغمٌ . .

وسجينٌ الصدى . .

رَبِّمَا . .

رَبِّمَا . .

أنتِ مدمنةٌ للبكاء . . وميالةٌ للتنائِي . .

ومأسورةٌ باللُغَةِ . .

كنتِ نشوانةً بالهواءِ النقيِّ . . على شرفةِ الصاعقِ العربيِّ

ترفِّينَ كالجفنِ . .

أو كالعصافيرِ

مُرِّيِّ بأغنيتي مرَّةً

واشتريني من الحزن . . أو فاشترينا من الموت . .

حتميةٌ لا تناقشُ أنتِ . . ولكنها مقبلةٌ . .

- أيُّ هذي الجهاتِ التي أبدلتِ ناسها بالعبيدِ؟

- أيُّ هذي الجهاتِ التي أمحلتُ . . واستدارتُ

إلى موسمٍ للروى . . ؟

- كيفَ هذي الطيورُ التي عبرتُ . .

حلَّقتُ . . غادرتُ . .

خلَّفتُ جرحها واسعا كالنوى

مثقلاً كالزنابقِ . . بينَ الندى . . والجهيرِ . . ؟

- كيفَ يا صاحبي . . هاجرتُ . . ؟

- هاجرتُ . . ؟

واختفتُ في الرياحِ . .

غَيْمَةٌ مِنْ دَمٍ .. غَيْمَةٌ مِنْ غَبَارٍ ..

وَأَنَا غَيْمَةٌ فِي الدَّوَارِ ..

مَعْنُ يَا هَوَى فِي الطَّرِيقِ الَّتِي لَا تَوُوبُ

إِذْ يَطُولُ السُّرَى فَأَنَا صَاحِبٌ لِلدَّرُوبِ

وَأَطْرُوحْتِي أَنْنِي لَا أَضِيعُ

وَلَا أَسْأَلُ الْعَابِرِينَ - الْمَعُونَةَ - فِي الْمَدَنِ

الْوَاغِدَةَ ..

- مَنْ يَسْمَى الْجَمِيلَةَ اسْمًا يَلِيقُ .. بِأَسْمَائِهَا .. ؟

أَسْئَلُهُ ..

مَنْ يَقُولُ فِلَسْطِينَ .. شَقَّ إِلَيْهَا الثِّيَابَ ..

الْمَتَارِيسَ .. بِالْكَفِّ

وَالْجَلْجَلَةَ ..

وَأَنَا مَزْمَعٌ .. حَيْثُ لَا دَهْشَةٌ تَحْتَ جَلِيدِي

تَحَاوَرُ وَقَعَةً ..

أَوْ تَفْرُ

إِذَا حَيَّرْتَنِي الْمَفَاتِيحُ أَوْ وَاجَهْتَنِي الْغَرَابَةُ

وَارْدُ نَبْعِهَا ..

وَالْتَرَابَ

وَلَا أَنْتَحِي فَنَدَقًا

وَأَنَا مُعَلَى الْأَرْضِ صَفَةً

حَامِلًا بِالْبِلَادِ الَّتِي خَسِرْتُ نَفْسَهَا مَرَّتَيْنِ

مرّةً عندَ شطآنِها . .

مرّةً في الجبال . .

حالمًا بتلال من الخبز . . والأسلحة . .

حالمًا أنّها ربحت . .

- كيف . .

تنهمرُ المسألة . .

ثمّ ماذا ؟

وأستيقظُ الآن هذا المدى غسقى . .

والشوارعُ لا أحدٌ . . .

مدنٌ يعترّيها السباتُ مبكرةٌ في الرحيلِ . . .

ومغرقةٌ في العويل . .

- أن أن تومضي في الصهيل . .

صعبةٌ . . صعبةٌ ليلةُ البارحة

صعبةٌ كالعذابِ الضريّر . .

دفترٌ موحشٌ كالصحارى . . وكالليل . .

أو كانهدامِ الرجاءِ

. . ولا نخلةٌ في الدليل . .

حيثُ لا الوهمُ يأتي . . ولا أنتِ حاضرةٌ خارجي

كانَ ما بيننا أفقٌ معتمٌ

كانَ مستنقعٌ بيننا موحلٌ

شجرٌ لا يحبُّ الكتابةَ . . يسقطُ أوراقهُ

ويموتُ

كانَ ما بيننا معبرٌ كالأحاجي . .

وأبنيَّةُ جهمةٌ

دولٌ مبهمَةٌ . .

كانَ ما بيننا أنجمٌ من صفيحٍ

وقشٌّ

وذلٌّ

وداليةٌ بيننا - لا أقولُ الذي بيننا - جدولٌ وخريزٌ

نحنُ حينَ التقينا البدايةَ كانتُ تفجرٌ بالأسئلةُ

ثمَّ حينَ التفتنا إلى دمننا

فرقتنا الإجابةُ . .

راعفٌ مطرُ البارحةُ

راعفٌ كالحوارِ القصيرِ

- لا تقلُ مرحباً

- لا أقولُ الوداعَ

يومها كانَ وجهٌ حبيبٌ . . وخبزٌ قديمٌ يعودُ إلى الذاكرةِ

والطريقُ إلى بيتنا مطراً . .

والمدى عاصفةٌ . .

وعرفتُ الطريقُ

فاشترتني القرى قمراً للحدادُ

إنَّ قلبي يستحضرُ الآن وجهَ الصبيَّةِ
كنتُ قرأتُ لها الشعرَ
كانتُ حزينَةً

وهذا الذي كان يومَ افتراقنا
يعودُ شجاعاً كبوابةٍ للغناءِ
وها أنتِ تأتينَ مخضلةً في هواءِ حزينِ
كهذا الذي سوفَ يأتي إلى دمنا بالمرايا
وللفقراءِ ببعض الهدايا

وبعض الحكايا

ولا شكَّ . . . مدركةٌ أنِّي - صدفةٌ - لا أجيءُ . . .

حيثُ لا حلمُ

أو شذى

حيثُ لا السحرُ تعويذةٌ في يدي

غير أنِّي . . . أجيءُ . . .

مرهفٌ حدُّها كالشعاعِ الثواني

النداءاتُ مرهفةٌ

والهواءُ

وأنتِ

ولا بأس أن نحتمي بالمقابر، لو طاردتنا الحراساتُ
أن نلتجئ للعزاء، وأن نقتني أثراً من حريقٍ . .
وماءً . .

إنَّها بُرْهَةٌ . .

في الغيابِ القصيرِ مراراً كطعمِ الغيابِ الطويلِ
وهذا الخرابُ الذي حولنا لا يُدارى
فليسَ هناكُ خرابٌ جميلٌ

أينَ من يرتدي وجههُ في الزمانِ العسيرِ . . ؟
أينَ رمانةٌ حفظتُ قلبها . . ؟

نشوةٌ

ويدي

جرعةٌ عابرةٌ . .

غربةٌ . . غربةٌ رحلةٌ . . رحلةُ البارحة . .

غربةٌ كالرحيلِ المريرِ . .

حانةٌ من زجاجٍ . . وبعضُ المتعبين

وخسبٌ

ولحمٌ

ووهمٌ يوزعُ بالملعقة . .

وأنا صامتٌ كالمهرَّبِ أحفظُ وجهك عن ظهرِ قلبٍ

ولا أحدٌ مدركٌ أنه بيننا
يتناولُ كأساً ويفرغهُ
مرَّةً في دمي

مرَّةً في الزجاجِ

الشوارعُ معمِيةٌ

وأنا مزمِعٌ غيبةٌ لا تطولُ

ولا تنحني أو تؤولُ

إلى أحدٍ

خائفٌ بعدها . .

بالذي بيننا . . .

والذي يحترقُ . .

آن أن تمطري زهرةً من جبالِ الشتاء

آن أن تزرعي قبلةً

آن أن تبجري في العراء .

(1980)

للسيدة الكنعانية أرفعُ هذا النخب

للسيدة الكنعانية . . وجهٌ من شفقٍ . .
وقناعٌ من حجرٍ . . أثريٌّ
وجهٌ من ثمرِ الغيبِ ، ومن جارحةِ الطيرِ عصيٌّ . . وشهيٌّ . .
وعيونٌ مלאى بالعشق . . .
وحافلةٌ بطيورٍ تغتربُ إلى زمنٍ مهدورٍ . .
ويباب . .
ودخان . .
وضنى . .

للكنعانية سحرٌ عصيٌّ
ذاكرةٌ تختزنُ جوى . .
وهوى . .
ومآتم تتزاحمُ
وخبايا خاويةٌ من أحبابِ القهوةِ
والمهباشِ البدوي
عامرةٌ بالقصبِ . .
وبالسَّغبِ . .
وبالولعِ بتذكارِ الكارثةِ
وبالخوفِ من الإسمنتِ . . .
من الإسفلتِ . .

من الشجرِ العاقرِ . .
 والعبثِ . .
 وإيقاعِ الرقصِ . . .
 من الرغبةِ . . .
 والضجَّةِ . . .
 والأقبيةِ الرطبةِ
 والآلاتِ الحاسبةِ . . وأسواقِ العالمِ والشركاتِ المتعدِّدةِ
 الجنسياتِ . .
 الخوفُ من اليقظةِ والنومِ . .
 السيدةُ الكنعانيةُ لا تثقُ الآنُ بأيِّ ممنُ خذلوها بين الوثبةِ والوثبةِ . .
 لا تثقُ بأيِّ سلاحٍ أو جرحٍ يلمعُ . . . أو شيءٍ يلمعُ . .
 تعرفُ أن الصحرَاءَ تخادعُ . .
 لكن حينَ تجيءُ إليَّ تحذقُ غيرَ مصدِّقةٍ . . ونفِرُ إلى ضاحيةٍ
 ساكنةٍ . . تتقلَّبُ
 تسمعُ بعضَ الموسيقى . .
 تمشي . .
 تنشغلُ بترتيبِ المقتنياتِ الأجدى . .
 وتخطِّطُ لليومِ التالي . .
 تطعمُ عصفورينِ . .
 وتظلمُ عصفورينِ

وتشعر بالذنب ، وبالحب ، وتتسع الليلة للحلم
وتهتف ..

بين اللحظة .. واللحظة .. للذات وللقلب ..
يؤرقها الهاجس .. تقسم أن الدارة مغلقة .. تنفجر على عصبي
تتناثر تحت يدي ..

وتحت عقارب ساعتها
فأجمعها .. بين الرتتين .. وأسكنها قلبي .. كالعادة
حين تغيبُ وحين تعودُ على تعب .. وسنى ..
للسيدة الكنعانية شعرٌ مضفورٌ بالبين ، وبالمشطِ النفطي ..
ولها قلبٌ نبيٌّ ينزفُ مغفرةً ..
ويطيرُ ..

على شجن .. وأسى يتقطرُ في الحبر ، وفي المطرِ
يدي على أبوابِ معادلةِ الجبرِ
يعودُ إليَّ ..

بوجه كالخبزِ ...

وكالجوعِ ...

وكالنورِ ...

وكالفي ..

يا أيتها الكنعانيةُ

نخبك أرفعُ كأسِي .. وقرنفلِي ..

نخبك أرفعُ جرحِي للنجم ..

وقلبي للهيم . .

وصدري لفريق الإعدام
وأشربُ من «عين السيلة» * دمعاً
ونبيذاً

كدمي

كالجرس الآتي من برج القدس
دمي . .

كيف وجدتَ نبيذي ؟ . .

- كأسٌ تكفي . .

أثاقلُ فوقَ سحابِ كالقطنِ . . وأبكي . .

- استيقظتُ الطفلةُ نشوى بريقِ السكينِ
الطفلةُ تذبجُ . . . أو ترقصُ . .

أدعوها للنومِ . . تنامُ على كتفي . . تستيقظُ . .
تفتحُ عينيها . . .

وترى الكأسَ الفارغةَ . . . إلى النومِ تعودُ

وكفِّي تتحسَّسُ حزنك . .

يا سيِّدةَ الحزنِ - وصمتك - . .

يشربني . .

يحميني صمتك . .

أو يقتلني . .

يا سيِّدةَ الصمتِ الواعدِ . . والبوحِ

ويا سيِّدةَ السَّنواتِ الصَّعِّبةِ
والمطرِ الوردِيِّ الفوارِ . . الشاعرِ . .
فوري
إني في وجهكِ قدرٌ كالبحرِ المتوسِّطِ . .
كالنيلِ . .
وكالجبَلِ الكنعانيِّ . .
كصحراءِ النقبِ . . وكالسهلِ (العرابي)
وكالأرغولِ على صدرِ الدبكةِ
وكالصَّبْرِ أجِيئُكَ يا سيِّدةَ الصِّبارِ . .
وئيِّدَ الخطوِّ . .
وكالبرقِ . .
كحدِّ السيفِ
وكالدهشةِ . .
والشهقةِ . .
أنتِ غناءٌ يعبرُ بواباتِ العالمِ . . تطريزٌ كنعانيٌّ . .
ثوبٌ لا أبهى . .
يتكسَّرُ فوقَ تضاريسِ الدنيا . . .
يسطعُ قمرًا فضيًّا كقلادةِ أمي . . .
أو كوسامٍ يحمله الشهداءُ
أكتبُ من دمناءِ . . من حجرٍ يخضِرُ بأسدودِ، ويورقُ . .
من لؤلؤةٍ في بالِ الغواصِ البحرانيِّ الموصولِ . .

بقلبِ حبيبتِهِ . . وهو يقاتلُ سُمكَ القرشِ
ويصعدُ في صخبِ الموجِ إليها . .
أصعدُ . .

فوري . .

يا سيِّدةَ اللؤلؤِ . .

يا سيِّدةَ الأوسمةِ المرَّةِ . .

واتتلقِي . .

عرساً في البرِّ . .

وفي البحرِ . .

وفي الأمدِ البكرِ الطالعِ من نسغِ الزهرِ الشتويِّ . . .

وفي البرهةِ كالسيلِ . .

النجمُ يحاورُ نجمتهُ . . .

يا سيِّدةَ الأنجمِ . . .

— ماذا في الصحفِ اليومَ . . ؟

ماذا حلَّ بأهلي . . ؟

— انتفضَ الطلابُ . .

العمَّالُ . .

العلمُ يرفرفُ . . في وجهِ الرشَّاشِ . . الصبيانِ . . الفتياتِ . .

الشجرِ

— ولا وطنٌ يكبرُ في العربِ ، ويعبرها . .

إنَّ فلسطينَ الوطنُ . . الأقربُ

والأبعدُ . .

والاسم الحركي لهذا الوطن العربيّ
ولا ينهضُ من دمنا . . لا ينهضُ

يا سيّدي . .

استوطنَ منك شجاعتكَ القصوى . .

الفرحَ الآتي . .

الموَالِ المجرورَ . .

على أكتافِ المدنِ . . استوطنتكِ أيتها الكنعانيةُ . .

لا غربةَ بعدُ . .

ولا سفرٌ . .

يا سيّدةَ الفرحِ . . ويا سيّدةَ المساةِ . . .

امتألتِ كَفِّي بالعسلِ الجبلي . . وبالضوءِ الأسمرِ . .

يا سيّدةَ الضوء . .

اندفقي . . وأضيئي الأغوارَ . .

الشيطانَ . .

وبيسانَ . .

العتمةُ قاتلةٌ . . .

بعضُ الضوءِ . . وأطلع الأحيابَ دليلاً في الكتبِ . .

وفي الأرضِ . .

وفي الناسِ . .

وناراً

يا سيِّدةَ النارِ . .
 الفولاذِ . .
 الصخرِ . .
 وسيِّدةَ الشجرِ المترعِ بالخمِرِ الكنعانيةِ . .
 - أرفعُ كأسكِ . .
 نشربُ من كأسٍ واحدةٍ . .
 ونؤجِّلُ بعضَ بكاءٍ مرتعشٍ في القلبِ وفي العينينِ
 - الليلةَ بردٌ . . يا سيِّدتي . .
 - الليلةَ بردٌ فعلاً . .
 - ادَّثري . .
 . . . وعيونك متعبَةٌ
 - أخجلُ من تعبي . .
 - لا بأسَ . . ونامي بعضَ الليلِ . . .
 - رغبتُ ولكنْ
 آه يا سيِّدةَ الزيتونِ الكنعانيةِ . .
 ظلِّي وارفةً كالليلِ . .
 وكالمطرِ العاشقِ . .
 كالألقِ . .
 ويا سيِّدةَ الفجرِ . .
 الفجرُ امتشقَ البارودَ
 الغربيةَ . .

والعزلة ..

أسلحةً .. ومضى للحرب ..

الرحلة تزرعُ دربَ القلبِ عذاباً ..

وشباباً ..

وعتاباً ..

يا سيّدةَ الليلِ الوحشيِّ ..

العجريِّ ..

قميصي لو تدرينَ .. أحبُّ قميصك .. لو تدرينَ ..

نتبادلُ بعضَ الكلماتِ ، وبعضَ الصّمتِ ، وبعضَ التبغِ نجوعُ
فنأكلُ بعضَ الخبزِ ، وبعضَ الملحِ ، وبعضَ الحلمِ ، وبعضَ

القبلِ ..

الكتفُ إلى الكتفِ .. القلبُ إلى القلبِ ..

- الطبلُ الإفريقيُّ ..

الجازُ ..

الرشاشُ ..

القصفُ ..

اختلطَ اللحمُ ..

الأعصابُ احترقتُ والنومُ

ورفَّ حمامٌ في الأفقِ الغائمِ يخفقُ .. يهدلُ ..

ثمُّ يهاجرُ منسلاً ..

يتشردُّ في المدنِ القاصيةِ . .

الردة تذبحنا . .

نتدفقُ

- يا دمننا . .

- يرسم للعشاقِ دروباً

وبنادقَ

يا سيّدي

حينَ يودّعُ واحدنا الآخر . . يا سيّدي . . .

تفجؤنا التلويحهُ . .

ما نلبثُ نتلاقى . . ثم نُشردُّ . .

لكنّي في الجسدِ الكنعانيِّ أحلُّ . .

وفي شرياني الفرسُ الكنعانيُّ

يا سيّدة الخيلِ

تصيرُ الحمحمةُ صهيلاً . .

والخببُ طراداً

أتشقُّ رائحةَ الصّوانِ . . ويلسعُ عيني الشررُ . .

الأرضُ وأنت النارُ

أنا والأرضُ . .

وغاباتٌ للغارِ . . ونمضي . .

يا سيّدة الغارِ

سيّدتى . . .

إنَّ بذهنك شيئاً . . كالذكرى . . كالندم . . وكالخوف
. . كخاطرة عجلى . . قولي . . الدفلى سم . . وجميل زهر

الدفلى . . .

- لا شيء . . .

- على شفيتك الكلمات . .

القلق . . .

الأرق . .

الحذر . .

- الغضب . .

الطرق محملة بالليل . .

وبالشوك . .

وبالقار . .

وبالعار . .

انتبهي

- هذا الزمن العربيُّ القاتل . .

بائعُ وطنِ الثوار . .

وآكلُ لحمِ الثوار

- كم ساعةك الآن . .

- الساعةُ لا تعملُ بعدَ القصف . . .

انفجرتُ بيروت . . انفجرتُ نافذةُ

والزمن العربيُّ . . القاتلُ والمقتولُ . .
أنا . . والخيلُ . .

وأنت

- أحبُّكَ سيِّدتي . .

الفرسُ يُحملُ جرحكما . . ويغادرُ فوقَ تخومِ المدنِ . .
ويلقي ظلَّ عباةِته فوقَ الأنهارِ ، يسيرُ على خارطةٍ . .
من ورقٍ . .

ودمٍ . .

وسماءٍ . . .

- يا . . .

صوتُ حبيبي لا تفجعني . .

- أتوجعُ قربَ الهاتفِ . . أتلوغُ

- أو قربَ المذيعِ - اللعنةُ - لا يأتي الخبرُ العربيُّ - اللعنةُ - يتناولُ
بعضَ الكتبِ . . .

الأوراقَ . .

ويكتبُ . . يقرأُ سطرًا في التاريخِ . .

وتدمعُ عيناهُ . . يدخنُ . . تدمعُ عيناهُ

ويصرخُ في داخله . . الوهنُ . . الإحباطُ . . العفنُ . . الثورةُ
لا يأتيك . .

ولا تأتيكِ إليه . .

يُفرِّقُ بينكما الوطنُ الضيقُ

تجمعُ بينكما الغربةَ . .
يا وطنَ الحُبِّ أغثنا . .
القهرُ يبادرُ غلثنا . .
وحصادي صادره فُطَّاعُ الطرقِ . .
فلو أني سيّدتني قاطعُ طرقٍ . .
لقطعتُ عليكِ الدربَ إلى الغربةِ . . أو لقطعتُ عليكِ الدربَ
إلى اللغةِ الدارِجةِ . . .
الصحفِ اليوميّةِ . . والأسبوعيّةِ . . والمذيعِ الكذّابِ . . لو أني
سيّدتني . .
أقطعُ دربكِ . . وحدثكِ . . وأعطيكِ الجمرَ . . وبهجتهُ . .
لو . . .
لكنْ تحتَ رمادي مرحلةٌ ملأى بالموتِ . .
وبالصمتِ . .
وتحتَ عباءتِنَا الصّوتُ المختنقُ
ونمضي . .
نعزفُ . . نطلقُ لحنَ اللهِ الأرضيِّ رصاصاً . .
ونحاساً . .
عيوناً تلمعُ . .
- قولي شيئاً
- ماذا؟
يا عمري . . أنتِ يامتي الحرّةُ . . والبركانُ . . .

أودِّعك ..

وأنت مصيرُ العاشق ..

والحبُّ الدائمُ أنت .. الأزلُّ ..

الأبدُ ..

الواحدُ ..

والأحدُ ..

فماذا أعطيك ؟

الخاتمَ والنهرَ .. ؟ الخرزَ الأزرقَ .. ؟ والشعرَ .. ؟ الآهاتِ
؟ ..

-

البحرُ يجيءُ البحرُ ..

الشمسُ .. الأحرشُ ..

الجزرُ ..

المرجانُ

احتفلي يا سيِّدةَ البحرِ ..

ويا سيِّدةَ السفنِ ..

ويا سيِّدةَ الشمسِ ..

ويا سيِّدةَ الجزرِ ..

ويا سيِّدةَ الأحرشِ ..

ويا مرَّجاةَ سيفي ..

البحارةُ آتونَ .. يغنونَ ..

احتشدوا بينَ البحرِ . . وبينَ النهرِ . .
اشتعلوا . .

بينَ دمي . . ودمي . . تشتعلينِ . .

أنتَ تنادينني باسمي . . فاحذري

أتحدثُ كالمستقبلِ

كيفَ المستقبلُ . . ؟ كيفَ نصيرُ وكيفَ نكونُ . . ؟

- فليكنِ الآنَ الوعدُ المكتوبُ لنا بالوردِ . .

أو الليمونِ . .

أو الزيتونِ . .

المكتوبُ على ورقِ الزعترِ

والعشبِ البريِّ

المكتوبُ على الرملةِ . .

والرملِ . .

الصبرِ

العطشِ المعلنِ

والعطشِ السريِّ

فكوني كالبيرقِ معلنةً . . كوني . .

كالأرزةِ فوقَ الجبلِ الثلجيِّ . .

كبيتِ اللاجئِ كوني لي . . وأكونُ

انتظري وانتصري . .

لا يخشى عابراً نهر الأردن الغرق . .
ولا يخشى من يَمَّ شَطْرَ فَلَسْطِينَ المَوْتِ . .
يا سيِّدتي الكنعانية . .
سيِّدة الدَمْعِ . . وسيِّدة المَاءِ . .
الريْحِ . .
العاصِفةِ . .
الإعْصارِ . .
الصاعِقةِ . .
اقترِبي . .
إني أَلْتَمِسُ فولاذاً مشحوناً بالدمِّ . .
ونلتصقُ الآنَ
الصدْرُ إلى الصَدْرِ
انتفضي . .
أتلَمَّسُ وجهك
- من أنتُ . . ؟
أحبك أكثرَ من إغراءِ الغربةِ . .
أو إدمانِ الفرقةِ . .
إنَّ بلاداً جائعَةً للخبِزِ . .
وللحبِّ
انتشرتُ فينا . .
ومواقدنا اشتعلتُ للعيدِ القادمِ . .

والقاصرُ تتلوى بينَ رَغيفٍ

ورصيفٍ

وجدارٍ ..

ومدارٍ

فالصوتُ صدَى .. .

والموتُ مدى

ما بينَ الغيمةِ .. والأشجارِ

ما بينَ الخاطرِ والأنهارِ

الشوقُ .. .

التعبُ .. .

النورسُ

يا سيّدتى الكنعانيةِ ..

يا سيّدةِ الأنهارِ ..

الأجملُ .. والأروعُ .. والأغنى .. والأكملُ .. والأبهى

والأبعدُ .. والأقربُ

أنت .. .

وفيكِ .. الأغنيةُ

ترابٌ ..

ودمٌ

وندى

ماذا تتظنّينَ .. ؟! ابتداءً العدُّ العكسيُّ ..

- العاشرة . .

التاسعة . .

الثامنة . .

السابعة . .

السادسة . .

الخامسة . .

الرابعة . .

الثالثة . .

الثانية . .

الواحدة . .

الصفري . .

- انفجري . . انفجري . . انفجري

فالوقفه ضائعة سيدي الكنعانية . . .

ضائعة . . .

وسدى

(بيروت - 8/12/1980)

أُسْمِيكَ بَحْرًا . . أُسْمِي يَدِي الرَّمْل

أحبُّ القطارات . . البحر . .

مُدُّ عَبْرَتْنِي إِلَيْهِ . .

ومن لا يحبُّ يموتُ

أحبِّكَ

وكي لا أموتُ

وكي لا نموتُ احترقنا . . .

وكنا نسينا . . تفاصيلنا . . وافترقنا . .

ووجهاً لوجه . . ضحكنا . . بكينا . .

على مدن لا ترى . . أو ترانا

ولا غادرتُ نفسها . . للوطن . .

وهو من حولنا يختفي . .

يختفي . . .

- هل تقولُ الجرائدُ شيئاً عن الطقسِ

- لا . .

فالجرائدُ مقروءةٌ في المطابعِ

منشورةٌ في الشوارعِ . . بيضاءً . . بيضاءً

أو مظلمةٌ

ومشغولةٌ باللهاثِ . . المخابزِ . . والأرصفتِ

ومحتلةٌ بالعساكرِ كالقدسِ . .

مأخوذةً بالفراغِ المدنُ . .
وحاملةً بانتشارِ السياحةِ . .
مغرمةً بالسدى . .
راجفةً . .
وإنَّ كلَّ صوتي مثلَ السكاكينِ . .
غنيٌّ . . وغنيٌّ . .
لكي تألفَ الرعبَ . . والمذبحةَ . .

- سنعبُرُ . . .

جئتُكَ منذُ العِباءاتِ
والشعرِ
منذُ اختراعِ السجونِ
ومنذُ المحاكمِ
والذلِّ
جئتُكَ من صدأٍ
وسكونٍ
ودوامةٍ
واحتضارٍ
كعصفورةٍ خائفةٍ .

وأني أجيئُكَ من بيرقٍ كالجنحِ الوحيدِ . .

ومنذُ أفترقنا حملتكِ في صفحةٍ من نحاسٍ . . .

وفي صفحةٍ من حديدٍ . .

وفي صفحةٍ من صخورٍ

وفي صفحةٍ من غديرٍ . .

وفي صفحةٍ من دخانٍ . .

وفي صفحةٍ من كتابِ المسافةِ . . والسنديانُ

وفي لغةِ القُبْرِ

وفي حالةٍ من يباسٍ

وفي وَقَعٍ خَطَوِ على ورقِ الموزِ

أو في المخاضةِ

والبؤسِ

أو إصبعٍ

وزنادِ

وفي شاهدٍ من رخامٍ

وفي الصوتِ . . والموتِ - كُنَّا معاً - في صليلِ الحدادِ

ومالتُ بنا المركبةُ

إلى مطرٍ . . لم يصلْ . . أو وصلنا . .

- وها أنتِ . .

نخضرُ في الوقتِ . . والوقتُ من ليلكِ . .

وانتظارُ

ومن تعبٍ عاشقٍ

واحتمالٍ . .

ومن عنبٍ حامضٍ

من سؤالٍ . .

ومن ثلجٍ صيفٍ

ومن لحظة الانفجار . .

هنا القدسُ . . تأتي إلينا السهولُ . . .

فنأتي إليها كجرحينٍ في جرسٍ يعبرانِ الجبالُ

إلى القدسِ

والقدسُ . . من غبشٍ . . .

وحوارٍ . . .

وإن قلتُ :

- إنني أحبُّك -

قلتُ كلاماً أليفاً

وقلتُ كلاماً سخيفاً . . كثرثرةً في المقاهي

ويأخذُ كلُّ طريقه

لهذا . . .

أمزقُ حنجرتي مرةً بيدي . . مرةً بالعتابا . .

وأخرى بخاطرة مرةً . . أو بسيفِ الظلالِ . .

وثمة خوفٌ على النيلِ . .

ثمة عقمٌ أصابَ القرى .. والأصيلُ ..

وثمة أوبئةٌ فرّختُ في العواصمِ . . .

والماءُ فيها

ومنها يهاجرُ سكانها . .

ويقتاتُ من لحمها العربيّ الغزاةُ

ويأكلُ سجانها

ويحملك الصوتُ . . . كالصبرِ

- خذني . . .

كما تأخذ الريحُ أشلاءها . . وابتعدُ . .

وابتعدُ . . .

- هل نهاجرُ

أم أنت غائبةٌ

غربةٌ . . غربةٌ . .

أنت بيروتُ يا أيّها الوطنُ العربيُّ الملخّصُ

بالقتلِ ، والكلماتِ التي خاطرتُ بالرجالِ إلى حالةٍ . . بينَ . .

بينَ . . .

وكنت توجّستُ فيها . . ولكنّهم ضحكوا . .

وها نحنُ . . والقدسُ

لكنتي الآن في البحرِ

فارمي ذراعيكِ حولي . . أنتِ على سفرٍ

وأنا موعدٌ

والنساء اللواتي قطعن المسافة نحوي
رحلن وفي شعرهن القصائد مضمفورةً بالغبار
وتلك الحقول التي أزهرت بغتةً . .
قايضت حلمها بالقفار . .
وتغزل من يأسها أجنحةً . .

أسميك بحرًا
أسمي يدي الرمل . . أو جسدي
مقفل أول الحلم . .
قتل . .

وآخره مالح . .
ثم أصعد . .
وعر

وأن المسافة للقدس عمياء
عمياء . .

والبحر يفتح عينيه . . يأخذني
البحر نبض . . يجيء
ونبض يضيء
ونبض يعذبنا بالنداء
وأنت تشقن درباً إلى القلب . .
أنت معلقة بالخواتم . .

أنت معلقة بالرجاء . .
وتلقين للقدس نهراً من الخبير . .
جيلاً من الدّم
والكبرياء
فيغدو الحصى مطراً . .
يرتوي . .
والمنافي . . تصيرُ بلاداً . .
تزودُّ أشجانه بالعتاد . .
- أودُّ لو أبكي . .
- لماذا؟
- لأنَّ العصافيرَ تبكي . .
وبي رغبةٌ لا تقاومُ . .
- خذني إلى قلعةٍ من ضلوعٍ
إلى قمةٍ في الغمامِ
بطائرةٍ . . من حمامٍ . .
وخذني كطفلينِ . . سوفَ نكونُ . . فخذني . .
- كأيِّ سأكبي . . .
- كفى . .
سوفَ أبكي كناعورةٍ من عيون
فإنِّي حزينةٌ . .
- أودُّ لو أنِّي خلعتُ قميصي . . وجلدي . .

وعدتُ صغيراً
لأبكي .. وأبكي ..
- ستبكي إذاً .. فاجعٌ .. فاجعٌ يا بكاءَ الرجالِ ..
- لأنِّي ..
.. ومحميةً بالسناكي القصورُ
ومهدورةٌ في الرياحِ التلالُ
ومغدورةٌ بين وأدِ الصبايا - العيونُ - وجرَّ الحبالُ ..
ومسكونةٌ أنتِ بالياسمينِ .. وبالبرتقالِ ..

أتدرينَ .. ؟
هذا دمٌ من حجرٍ ..
وهذا دمٌ من ترابٍ
وعشقٍ ..
دمٌ من شجرٍ ..
دمٌ من حريرٍ
دمٌ من كلامٍ ..
وضوءٍ
دمٌ من ورقٍ
وهذا الذي تخلعينَ على شاطئيكِ عذابٌ وأحزمةٌ من لهبٍ
تنشرُّ أحزانها ..
وتطيرُ إلى جبلٍ من خيالٍ

ودمعٍ
وشمسٍ
وصوتٍ
وعشبٍ . .
وقتلى من الناسِ
والدورِ
والميجانا
والصورُ . .

ويقتربُ البحرُ . . .
تبتعدُ القدسُ عنَّا كسنبلةٍ أحرقوا حقلها
فتفتشُ عن شهقةٍ من رصاصٍ
وأجوبةٍ من غضبٍ
ونحنُ نحاصرُ بين السَّبَابِ
وبين التعبِ

تحدّث قليلاً

- تحدّثتُ . .

ماذا تقولين أنت . . ؟

- سأهمسُ أيّ بدونك كنتُ وحيدة

وأني أحبُّ النيذ . . .

وهذا المكان
وأرغبُ لو
وأودُّ لو أنّي أقبلك الآن . . لكن . .
. . . وأن الذي أدفأ القلبَ ذاتَ مساءٍ شديدِ البرودةِ
كان قصيدةً . .

- وماذا؟

- وأنّي سرقتُ طعاماً
وشيّئاً من الحبِّ يوماً
وملعةً من خشبٍ . .

وأنّي أخافُ اللصوصَ . .
وأخشى أبي . .
وأصيقُ بكلِّ الليالي الطويلة . . والزيفِ والموعظةِ
وأنّي أهدقُ في البحرِ من زمنِ التوقِ
أنّي أغني
وأدعوكَ . .

أنّ بلادي مضيعةٌ بين ظلِّ الغزاة . .
وظلِّ الندامة . . والشكِّ بالأمسِ - واليوم -
والغد
أنّي مبعثرةٌ بين نافذتي
والمرايا . .

وَأَنْتِي تَجَاوَزْتِ عُمُرِي جِيلَيْنِ . .
أَهْرَبُ مِنْ عَاشِقٍ - وَيَدِينُ . .
وَأَنَّ الْعَيُونَ الَّتِي فِي يَدَيَّ تَغَادِرْنِي مَرَّتَيْنِ
فَأَبْكِي . .

وَأَخْشَى الِهْمُومَ الصَّغِيرَةَ
- وَأَخْشَى أَنَا أَنْ أَمُوتَ قُبَيْلَ الْوَصُولِ إِلَى الْقُدْسِ
- لَا . .

- إِنَّنِي فِي الطَّرِيقِ إِلَيْهَا . . وَلَكِنِّي خَائِفٌ مِنْ بِلَادِ سَادَفُنْ فِيهَا -
غَرِيبَةٌ -

وَأَخْشَى عَلَيْكَ الْهَوَاءَ الْمَلُوثَ
أَخْشَى عَلَيْكَ الْمَدِينَةَ . .
وَأَخْشَى عَلَى طِفْلِنَا أَنْ يَمُوتَ
مِنَ الْحَبِّ . . أَوْ مِنْ شِقَاءِ الطُّفُولَةِ . .

وَفِي الْبَحْرِ أَرْوَقَةٌ مِنْ نَدَى . .
وَلِلْبَحْرِ بَوَابَةٌ فِي الْجَحِيمِ . .
وَفِي الْبَحْرِ أَشْرَعَةٌ أَغْرَقَتْ فِي النَّوَى
وَالرَّدى
وَلِلْقُدْسِ أَرْمَنَةٌ لَمْ تَحْيُ . . صَوْتَهَا -
وَالصَّدى

وها نحنُ - والحلمُ يكبرُ ألفاً من السنواتِ
الليالي تضيفُ إليه . .
تركبهُ

وهو يكبرُ في البحرِ . . والقدسِ
يتسعُ الآنُ للحبِّ
والشوقِ
يبقى صبيّاً

يغازلُ كتفيك . .
يركضُ من وجع . .
ويحوّمُ حولَ الفراشاتِ . .
تأتي إليه النوارسُ حاملةً أنجماً . .
ودمماً

طرقاً

ومباني

وحاملةً كتباً . . وليالي . .
وحاملةً قلماً . . ودفاترَ كالغيمِ ناصعةً
ثمَّ يطرُ من ماسةِ كالمدى
وأهتفُ للقلبِ . . من فرحِ . .
- نلتقي . .

وإن شئتَ هذا ذراعي . . قلبُ
- أقولُ لك الصدقُ . . بي رعشةُ

- كنتُ في مُقيمٍ . . .
كنتُ في طائرٍ ألبسوا ريشه قفصاً
حنَّطوا صوته . . .
ثمَّ غنَّي لسجَّانه ذاتَ يومٍ
ونامَ على صوته . . . فاختنفى
- ثمَّ ماذا؟
- تحسَّسَ أوتاره . . .
وانفجرَ . . .
- سأدعوكَ للرقصِ هذا المساءُ . . .
- قبلت . . .
فكلُّ البكاءِ . . . غناءً
وكلُّ الغناءِ . . . بكاءً

هو البحرُ . . . يأتي إذا . . .
حينَ نخرجُ للقدسِ . . . تدخلُ فينا
وتعدو . . .
فلا شيءَ يوقفها . . .
أو يردُّ لها وجهها . . .
فتواصلُ أوجاعها الأسئلة . . .
هنا القدسُ ما بينَ قوسينِ . . .

رَمَانَةٌ فِي الْيَدَيْنِ . .
وَنَافِذَةٌ فِي الْحِصَارِ
تَرَاوِحُ بَيْنَ الْحِجَارَةِ . . وَالنَّارِ
إِنْ وَقَعَتْ مَوْتَهَا . . أَشْرَقَتْ . .
وَهِيَ تَشْهَدُ وَجْهَ الدَّمَارِ
وَتَزْدَرِدُ الْمَدْنَ الْعَرَبِيَّةَ خَبِزًا يَغْمَسُ بِالْمَهْزَلَةِ . .
وَمِنْ زَعْفَرَانٍ . . وَنَارٍ . . طَرِيقُ حَبِيبِي
وَوَجْهُ حَبِيبِي . .
وَكَفُّ حَبِيبِي . .
وَصَمْتُ حَبِيبِي . .
وَصَوْتُ حَبِيبِي . .
وَشَعْرُ حَبِيبِي . .
وَتَعْرُ حَبِيبِي . .
وَلَوْنُ حَبِيبِي . .
وَمِثْوَاهُ فِي مَلْصَقٍ . . أَوْ بَكَاءٍ
وَقَامَتُهُ . . وَالرَّدَاءُ . .
وَمِثْوَاهُ فِي مَلْصَقٍ . . أَوْ بَكَاءٍ
وَمِثْوَاهُ فِي كَأْسِ خَمْرٍ . . وَمَاءٍ
وَمَأْتَمُهُ فَرِحُ فِي الْهَوَاءِ . .
وَفِي الصَّدْرِ . . وَالزَّنْدِ لِلْقَدْسِ صُورَةٌ

أَسْمِيكَ
ماذا تَسْمِيَنَّ هَذَا الصَّبَاحَ ؟
وهذا الوَطَنُ . . ؟
وهذا الَّذِي بَيْنَنَا . . وَالسَّمَاءَ ؟
وماذا نَسْمِي الشَّبَابِيكَ ؟
وَالوَرْدَ ؟
وَاللَّيْلَ ؟
وَالقَمَرَ الْعَرَبِيَّ الْحَزِينِ ؟
الْمَدَى بَيْنَ ضَوْئَيْنِ ؟
صَوْتَيْنِ ؟
هَذَا النَّخِيلَ الْمَسَائِيَّ ؟
وَالْبَحْرَ ؟
وَالكَلِمَاتِ الَّتِي لَمْ تُقْلُ ؟
وَالهَدِيلَ الْجَمِيلَ . . ؟
وماذا نَسْمِي الْيُنَابِيعَ ؟
وَالْأَنْهَرَ ؟
الْجَسَرَ بَيْنَ السَّنِينِ ؟
وَبَيْنَ الْمَحَالِ ؟
وماذا نَسْمِي مَدَارَ الصَّحَارَى ؟
وَرَفَّ الْحَبَارَى . . ؟
الشُّعَاعَ الظَّلِيلَ

وماذا نسمي الصواعق بعد انفجاراتها؟

والحريق؟

وماذا نسمي زماناً يجيء . . ويرحل في ذاته؟

أو يقيم . . ؟

وييني له منزلاً في العقيق؟

وماذا نسمي اختناق المناديل في البحر؟

والبحر . . والقدس . . وجهان يستفرقان الرحيل . .

هو البحر . . مر . . ومن نبأ كالطيور . .

ومن رحلة فاجأته

ومن سفر في العويل . .

هنا القدس . . ليست هنا . .

ويرد الرماد . .

- موزعة بين نبل النجوم . .

وموت الشتاء

معدبة بين . . بين

معدبة بين . . بين

معدبة بين . . بين .

(دمشق - 1981/12/19)

يا ميجانا صبراً . . يا ميجانا يا ريم

(إلى طفلي ريم في هجرتها الثالثة)

يا ميجانا . . يا ميجانا
وردٌ . . وقافلةٌ . . وبحرٌ
رمّانةٌ في الغيبِ
أو وعدٌ رماديٌّ . . لوردٍ لا يخونُ . . ولا يخبئُ وعدهُ
لكنْ يفتحُ في الظلامِ
وأنا أحبُّك منذُ أنْ عانقتني
في فاصلِ الحلمِ البريء . . وفي السلامِ
وأنا أحبُّك منذُ أنْ فارقتنِي
وأحبُّ نبضك في الركامِ
يا ميجانا . . للبحرِ أنتِ حبيبتِي . . وأنا
وللبحرِ النذورُ
للبحرِ حُبُّ حبيبتِي الحبلَى بطفلٍ ظلَّ يُقتلُ قبلَ أنْ يأتي إلينا
ثمَّ جاءَ مسربلاً بدمٍ . . ومصطليحٍ هجينِ
مُدَّ جاءَ مقتولاً على كفتينِ من شوكِ
ونافلةٍ . .
وطينِ
فترنَّحتِ كنتفي . . ولكن لم أفاجأ . .
يا ميجانا . . هذا سقوطُ القتلِ . .

هذي وقفهُ العِشاقُ في نعشِ القَتيلِ
وأنا المسافرُ مُدٌّ ولدتُ
وأنا المحاربُ مُدٌّ ولدتُ . . ومُدٌّ كبرتُ
وأنا المحاربُ إذْ أعودُ إليكِ في البحرِ الشريدِ

- يا بحرُ . . تشبُهني وأنتُ . .
يا بحرُ . . من صخبِ وصمتِ
يا بحرُ . . غنِّ الموتِ
يا بحرُ . . أنتِ الصوتُ
وأنا مشردُّك القديمُ . . أنا الذي لا بحرَ لي مُدٌّ كنتُ
وأنا الذي آتِي إليكَ . . فخذ يدي للبيتِ

يا ميجانا . . يا ميجانا
والبحرُ مرأةٌ . . ومرحلةٌ . . ومن رملٍ . . وقارِ
يا ميجانا يا دارِ
كلُّ الدروبِ إلى المنافي صعبةٌ . . كلُّ الدروبِ
البحرُ . . والطرقُ القديمةُ
البحرُ . . والطرقُ الجديدةُ . . والمدنُ
البحرُ . . والحزنُ المثابرُ . . والسجونُ
البحرُ . . والجزرُ الجميلةُ . . والسنينُ
البحرُ . . والعتَمُ

القناديلُ التي انطفأتُ على ظمأٍ
ولونِ الليلِ
والغيمِ الخريفِيِّ الحزينِ
وأنا . . وأنتِ . .
وسفرِ أشعاري . . وهذا الوردُ في كلِّ الفصولِ

يا ميجانا . . للبحرِ . . والسفنِ
يا ميجانا . . للنارِ
- ماذا تردُّ نشرةُ الأخبارِ . . ؟
ماذا سيلعبُ في الغدِ الأطفالُ ؟
هل أنتِ يا تفاحتي مكسورةُ الخدينِ . . والخاطرُ ؟
ماذا سيروى في غدٍ . . للغائبِ . . الحاضرِ
من يشتري منا ؟
دمننا . . ومن منّا ؟
يا ريمُ . . يا غربةُ
رفقاً بدمعِ العينِ
في طقسنا الماطرِ . .
يا ميجانا
- لا تبكِ في عينِ النهارِ
- إني أفجرّ دمعتي ولسْتُ أبكي
فاحتضني قبل أنْ

- رُدِّي العذابُ
وخذني أساورك الجميلة من دمي
- خذني معكُ
خذني معكُ
فالوردُ مقصلةُ الذي يرمي إلى البحرِ الخواتمُ
في الوردِ تختبئُ الكواتمُ
- والوردُ مندِيلُ المدينةِ للشبابِ
وأنا أحبُّ الميجانا
وأنا الترابُ
طفلي على قلبي . . وقلبي لا يموتُ
يا ميجانا . . الكتبُ التي احترقتُ
يا ميجانا . . الصوّانُ
يا ميجانا . . الشبلُ الفلسطينيُّ . . والنيرانُ
وأنا أحبُّ الزعترَ الأخضرُ
وأنا أحبُّ رغيفنا الأسمرُ
وأنا أحبُّك لو شقينا . . أو سعدنا
وأنا أحبُّك لو رحلنا . . أو بقينا . . أو قتلنا . .
أو . .
أحبُّك . . في المساءِ
وفي الصباحِ
وأنتِ نجمتي الشريدةُ . . أنتِ وجهي . .

والدليل إليك . . ورحبة مثل السماء
إني أحبك . . مثلما أحببتني
يا ميجانا . .

بحر . . وأغنية . . وغار
ويدي ملوحة لها . . المنديل من وجع
ومن حجر
وقهر

ووجوه أحبائي نحاس
ييست . . ويقترب الخطر
ييست . . وقد حان الوداع
ييست . . ويقتلع الشجر
خفق الشراع . . وبحرنا زمن يجيء بلا زمن
وأنا . . وأنت الآن لا منفي مودعتي
وأنا . . وأنت إلى الرياح . . ولا وطن
يا ميجانا . . ياريم
يا ميجانا . . يا ضيم
(دونك عجاج الخيل ملا مروجنا) . .
يا ميجانا

ردّي الرداء . . وواصلني الخطوات
لا تندبي . . من مات

مُدُّ ودَّعتني في جدائك القصائدُ صرتُ وحدي . .
كيف لا أبكي . . وتبكينَ

- وداعاً . . يا حبيبي

ووداعاً أيُّها الباقونَ في ليلِ المدينةِ

ووداعاً أيُّها الصامدُ في المتراسِ من بعدي

- وداعاً

- وودا . . عاً

- إنني أتركُ قلبينِ على الميناءِ

أو صبراً . . . وشاتيلاً

- وأنا أودعتُ قلبينِ إلى البحرِ

- اطمئنِّي

واطلقي اسمي على الأطفالِ

يا بو الميجانا

بيروتُ من عطشٍ . . وماءٍ

بيروتُ من لحمٍ . . وظاهرةٍ . . ونصرٍ . .

بيروتُ من همسٍ . . وأسئلةٍ . . ونارٍ . .

وفراشتي دُمها غبارُ

ويقالُ من زبدِ الجرازِ

بيروتُ لم تكذبُ

بيروتُ لم تلعبُ

بيروتُ لم تتعبُ
بيروتُ لم تهربُ
بيروتُ عاصمةُ الساحةِ كلّها . . لكنّها في البحرُ

يا ميجانا

إنَّ الطريقَ إلى بلاد لا ترى بحرُ

وأحزانُ

وعارُ

وتكونُ أضيقَ من مراكبنا شواطئها وأضيقَ من مراكبنا البحارُ

يا ميجانا . . منشورنا الأولُ

يا ميجانا . . خيالنا الأجمَلُ

يا ميجانا . . وطريقنا الأطولُ

يا ميجانا . . للجسرِ والأغوارُ

يا ميجانا للملح . . والثوارُ

يا ميجانا عمَّانُ . .

يا ميجانا

والبحرُ مشهدنا الأخيرُ . . البحرُ أعمى

والسفائنُ من جليدُ

ملحُ . . وتنهَّدُ الصواري . . والعيونُ

موجُ . . ولا موجُ . . وريحُ

لا البحرُ موجودُ . . ولا قلبي الجريحُ

يا ميجانا غنّي لأحبائي
يا ميجانا الراياتُ عُنّابي
يا ميجانا . . والريحُ حمرا . . والأصايلُ ميّجتُ
والبحرُ أعمدةُ الصحفُ
والبحرُ أذخنةُ وبيروتُ الحرائقُ
والبحرُ جثّةُ امرأةُ
والبحرُ أيتامُ على طولِ الطريقِ
يا ميجانا بدأ الحريقُ
يا ميجانا أين المفرُّ . . لن يراوح . . أو يراوغ . .
أو يفرُّ
يا ميجانا ولمن يَخونُ
يا ميجانا اشتعلَ الفتيلُ
والبحرُ فاشيٌّ . . ويغرقه الجنونُ
والبحرُ أفسى ما يكونُ . . وما يكونُ
والبحرُ يصرخُ والبياضُ
أصحو . .
وتنهمرُ الجرائدُ . . والمقاهي . . والرصاصُ . .
صبرا تخيّمُ في الجسدُ . .
وتردُّ لي صوتي . . وتعلنُ لأحدُ
باريسُ معتمةُ . . . وعيدُ
باريسُ من وردِ صناعيِّ . . ومن فنِّ محطّمٍ

باريسُ من علبٍ .. ومطعمٍ
باريسُ .. لا منفى .. وغربةُ شاعرٍ ..
وغربةُ فيها
ولا يُبكي عليها ..
باريس .. لا إلزا .. ولا الشاعرُ ..
باريسُ ماتت قبله وتموتُ
باريسُ تنسى أنها فيما مضى .. بيروت ..

يا ميجانا

- هل أنتِ خائفةٌ .. ؟

- بلى

- هل أنتِ نائمةٌ .. وبابك مغلقٌ؟

- كلا .. فلا أبوابُ

- ماذا يهزُّ الحيُّ؟

- قلبي وصوتُ القتلِ

- من يقتلونَ الآنَ؟

- عمِّي .. وجارتنا ..

- مَنْ يحرقونَ الآنَ؟

- طفلي .. وجدَّتنا

- مَنْ يذبحونَ الآنَ؟

- خبَّازَ حارتنا

يا ميحانا . .

صبرا تعيدُ صياغتي بيد . . وبالأخرى تقاومُ

يا ميحانا . . ليلُ الوطنُ

ليلُ . . . وأسلحةُ . . . وأبوابُ مغلَّعةٌ . . . ووقعُ خطي . . .

وهمهمةُ

وأطفالُ وموتُ

يا ميحانا

أيلولُ يفترسُ الطفولةَ مرَّةً أخرى

أيلولُ يحتلُّ الأبدُ

ويتلَعُ العواصمُ

وأنا أشدُّ من الجليلِ . . إلى الرصيفِ . . إلى الربيعِ

إلى الصقيعِ . . إلى الخريفِ

من الصحيفةِ . . والإذاعةِ . . للكتابِ

وللغيابِ

وأشدُّ أشرعتي إلى يافا . . وفي عقلي صنفدُ

لكنَّ أشرعتي تميلُ

وليسَ يحدثُ ما يخيفُ سوى الرحيلِ

إلى الرحيلِ

إلى الرحيلِ

يا ميحانا

أمر الدخيلُ

وهمُ الذينَ استسلموا . . وتفَرَّجوا . . واستقبلوني
دونَ أسلحتي . . وهمُ . .

يا أيُّها الفقراءُ . . لم تلدِ العتابا مثلَ صبرا . .

ميجانا

«يا ميجانا لك» . . يا شاتيلا . . ميجانا

طفلٌ على طفلٍ ينوءُ

وامرأةٌ . . لا تغتصبُ

ويموتُ في العرب . . العربُ

لكنَّما ظلَّ المخيمُ . . لا يموتُ . . ولا ينامُ

ويظلُّ يرفلُ بالدماء . . وبالحمائمُ

فالليلُ والدمُ يبدعانُ صياحَ أمِّي من بلادِ الميجانا

صبرا . . وشاتيلا يا عتابا . . . وميجانا . .

يا ميجانا الصِّبَّار . . والزيتونُ . . والكرمةُ

يا ميجانا الحنونُ . . والمرَّارُ . . والبسمةُ

يا ميجانا حبيبتي

ولشالها الأحمرُ

يا ميجانا . . للفجرِ بينَ عيونها . . وأصابعي

يا ميجانا للدهرُ

يا ميجانا . . للقدسُ

يا ميجانا لشهيدنا . . للزهرةِ الأبسلُ

يا ميحنا الحيّ الذي أففر
يا ميحانا . . القبر الذي أزهر

يا ميحنا
أفق . . . ومَسْعَبَةٌ . . وفي الجسد العويلُ
كلُّ النساءِ حملنَ بي . . . وحملنني
يا ميحانا . . كلُّ النساءِ . .
جرّي ربابك في الدّمارِ
ومرمري . . . ترفَ الوسائدِ . . مرمري
وارمي برعبك في قصورِ الرق - فأساً - واحفري قبرَ الممالك . .
والممالكِ
احفري . .
يا ميحانا . .
ها نحنُ . . من صبرا . .
العينُ من صبرا . .
والكفُّ من صبرا . .
والدمُّ من صبرا . .
والجرحُ من صبرا . .
والدربُ من صبرا . .
وطني الذي أحببته كانَ اسمهُ صبرا . .
ظلَّ اسمهُ صبرا . .

وعلى مشارفه نوادي القتل . .
وعلى منابره . . فتاوى القتل . .
يا ميجانا . .

يا ميجانا المدن الغربية
يا ميجانا المدن السلبية
ميجانا الأم الحزينة
ميجانا الدم . . والحبيبة . . والسؤال
لا تبكها . .

يا أيها الوطن المؤجر . . والمؤجل . . والمعار
يا ميجانا انتظري الندى
يا ميجانا . . ردّ الصدى
يا ميجانا تدرين
أنّ البنفسج رغم رفته يقاوم
يا ميجانا . . وأنا حزين
يا ميجانا . . للريم

ربما تفتش عن غزال . . والمدينة لا تجيب . .
وموحشة
ربما تفتش عن هلال في الليالي . .
أوتفتش عن محال
يا ميجانا

لُمِّي على جسدي البحارُ
لُمِّي من الشبكِ المحارُ
فالفجرُ عند نهايةِ الرؤيا . . . وأنت بلا قرارُ
«لولا عيونك عاجل . . ما اطلعتُ أنا» . . والنارُ
يا ميحانا الفقراءُ
يا ميحانا صدري
يا ميحانا الصحراءُ
يا ميحانا عصفورتي الدوريةُ السمراءُ
يا ميحانا الأسماءُ
يا ميحانا من صورُ
يا ميحانا صيدا
يا ميحانا الدامورُ
يا ميحانا بيروتُ . . يا بيروتُ
يا ميحانا فوري . .

يا ميحانا
كأسُ . . وعاهرةُ . . ومؤتمرُ . . وصوتُ
شيءٍ من العتبِ الصغيرِ
وتطفأُ الأضواءُ من حولِ الأميرِ
وأنا أراجعُ ما كتبتُ . . وما دفعتُ
عبثاً يجاهلُ رحلتي - ليلاً - دوارُ البحرِ

أو تأتي الطيورُ
وأنا أردُّ يدي إليَّ
يا ميجانا البحرُ الذي لا ينتهي أبداً
يا ميجانا البرُّ الذي لا يبتيدي أبداً
يا ميجانا مدنٍ مدمرةٍ . . ولا أحداً

يا ميجانا العشاقُ
يا ميجانا الأشواقُ
يا ميجانا . . يا بحرُ . . ردِّ الشوقِ
ردِّ البحرِ
- أين الأرضُ . . أين الأرضُ . . أين الأرضُ
فتجيشني رملًا . . وتثبت أنها كرويةٌ
وأنا أغازلُ برتقالةً . . .
ردِّي العباءةَ حولنا
فالبحرُ مفترسٌ
وبردٌ
خذني إلى زنديكُ
خذْ من حليبِ الوجدِ
فلربما ضعنا
خذني . .

أخافُ الورْدُ . . .
يا ميجانا الهجراتُ
يا ميجانا «من خَلَّفَ ما ماتَ»
يا ميجانا
شعرٌ . . . ومحبرةٌ . . . وبيتُ
حلمُ المسافرِ في الرمالِ . . . إلى الرمالِ
حلمُ المسافةِ بالوصولِ إلى القرى
حلمُ الجبالِ
حلمُ الذي يمشي إلى حيفا . . .
ويكتشفُ الدُّروبَ
حلمُ الذي أبدعتهُ من حلمك الآتي إليكُ
وليسَ يهربُ من يديكُ
حلمُ البنادقِ . . . والعرقِ
حلمُ الشجيراتِ الصغيرةِ بالثمرِ
حلمُ العصافيرِ الشريفةِ بالشجرِ
حلمُ السماءِ بصيفها
حلمُ النخيلِ
حلمُ الذي حملتهُ موجتهُ إلى غرفِ الفنادقِ . . .
والشوارعِ
والأصابعِ . . . والردي
ويصارعُ الآنَ العرقُ . . .

حلمُ اليمامة أن تطيرَ . . . وأن تحني ريشها بسماءِ صبرا

الميجانا

يا ميجانا

وطني . . بلا وطنٍ . . وتأخذني البحارُ

يا ميجانا مُرِّي

شفقٌ . . . وابتعدُ الترابُ

شفقٌ . . . ويقترُبُ اليبابُ

شفقٌ . .

وأنت جميلةٌ كسمائنا

وجميلةٌ كجبالنا

وجميلةٌ كسهولنا

وجميلةٌ

شفقٌ . . ويحترقُ المساءُ

فلا موانئَ

أو نجوماً

أو جسوراً

أو هواءً

يا ميجانا استعري

يا ميجانا انتشري

يا ميجانا لا تقبلي التوبة
يا ميجانا لا تُطلقي حزنًا بلا حربة . .
يا ميجانا الغربية . . .
شجرٌ . . . وسيِّدةٌ . . ونهرٌ
وأنا أحبُّ حبيبتِي . . وأنا الشتاءُ
« يا ميجانا لكُ »
تحت نافذة يدي تنموُ كدالية . .
ووين أصابعي المنفى
ووهمُ علاقتي بدمي . . وأنتِ على المدارُ
والبحرُ من تعب
ومن صخرٍ ضبابُ البحرِ
أو سجن . . . وحرَّاسٍ . . وبابُ
يا ميجانا الأُحبابُ
يا ميجانا . . لا تشتري المهزوم . . والكذابُ
يا ميجانا . . جيلٌ سيأتي بعدنا . . ويعيِّرُ الأحوالُ

يا ميجانا
ريحٌ . . ولؤلؤةٌ . . وناي . .
وحبيبتِي قمرٌ وحيدُ
قلبي على القمرِ البعيدُ
يدي على الجسدِ الحديدُ

يا ميحانا
بردٌ . . . ومفترقٌ . . . وليلٌ
والقلبُ من صدأ . . . وخيلٌ
وسلاسلِ البحرِ العصي . . . وأنتِ أبعدُ من يدي

يا ميحانا للبرق
يا ميحانا للرعْد
يا ميحانا لشتائنا القادم
يا ميحانا . . . للبحرِ أنتِ حبيبتي . . . وأنا
وللأرضِ الحصادُ
إنِّي أَحْبُكِ . . . لا يليقُ بنا الحدادُ

يا ميحانا
بردٌ . . . ومفترقٌ . . . وليلٌ
بردٌ . . . ومفترقٌ . . . وليلٌ
بردٌ . . . ومفترقٌ . . . وليلٌ

(باريس - بودابست - دمشق / شباط - 1983)

المسافةُ بينَ غريبينِ . . والفتى من رَمادِ

فليكنُ شجراً من تحيِّينَ . . أو مطراً . .

فليكنُ طائراً

وليكنُ قمراً من براكينَ تحضُرُ في الموعدِ المنتظرِ

فليكنُ سنبلةً

وليكنُ قنبلةً

وليكنُ وردةً

وليكنُ حربةً

وليكنُ قبرةً

وطناً فليكنُ

سفراً فليكنُ

وليكنُ محبرةً

. . وهو يبدو كمن جاء من شاطئٍ مثقلٍ بالسوادِ

لعبادةِ الشمسِ يرسلُ قبلتهُ

وينادي

يلائِمُ ما بينَ عكَّازِهِ . . والنجومِ

فتثقلُ أكتافُهُ بالهمومِ

آه يا نجمتي الذهبية . . كوني حبيبتَهُ

وليكنُ من وفاءِ

وصبر

ونار

وزيتونة

وتراب

وليكن حاضراً في الغياب

موغل في الندى . . موغل في العذاب

والرؤى معتمة

... ..

والتي أعلنت موعداً لم تجيء

والتي أغلقت بابها لم تنم

وارتدت حالة من سكون

ترامت إليه . . .

مرة في الصباح . .

مرة في المساء . .

مرة

بين . . بين . .

واختفت مرتين . . .

من يكون الفتى . . ؟

من يكون . . ؟

هادئ كدخان الغلايين

نجم وحيد . . ومتعب

ينامُ كراعٍ على حجرٍ . . . أو عصا . . أو وسادة زعترُ
مرغمٌ

والمدينةُ جوعى . . ونائمةٌ . .

وهوَ يحلمُ بالنوم . .

يمشي . . ويكتبُ . .

يرسمُ نوماً عميقاً . . جميلاً

ويلعبُ . .

ويفتحُ عينيه . .

لا شيءَ غيرَ الظلام . . وغيرَ الحطامِ

فيشعلُ سيجارةً

ثمَّ ينصتُ لليلِ

يسعلُ

يؤنسُ وحدتهُ بالسعالِ

ويحزنُ إذ تحتويه الظلالُ

ويدخلُ في لغةٍ لا تقالُ

إنَّه الآنَ يجمعُ أوراقه في يديه . . ويرحلُ في جلدهِ

وهوَ يكبرُ . . والبردُ في قدميه

فيشحبُ من ألمٍ . . وسؤالٍ

فليكنْ شارعاً ضيقاً . . ويطامى كثيرينَ

أَوْ فليكنَ عالِماً واسِعاً . . شاسِعاً كَالقِصائِدِ
والفَنِّ

والخِطوَةَ البِكرِ

والرِعرِشَةَ البِكرِ

والقِبلةَ البِكرِ

أَوْ فليكنَ جَسِداً وادِعاً كَالشَهِيدِ المُنَدَّى

مِن النَهرِ لِلبحرِ . . يِرِصِفنا . .

واحداً . . واحدًا

ليَقومَ وَيمضي . . مِِن البَحْرِ لِلبحرِ

يَلقي عَلينا السَلامَ

ويِرِشِقنا بِالحامِمْ . .

ها هُوَ الآنَ يَضْحَكُ مِِن ذِكرِياتِ الطِفولَةِ . . وَالعِشْبِ

يِرِتَدُّ طِفْلاً وديِعاً . .

ويَقْلَعُ لِلناصِرَةِ . .

كَمْ سِيبِكي إِذا عَذَبَتْهُ الحِبيبَةُ

أَوْ أوجَعَتَهُ الشَظايا . . وَأَنكَرَهُ الأَصْدِقاءُ

ويَخْجَلُ لو غازَلتَهُ النِساءُ

وتَضْحَكُ مِِنهُ الصِبايا

فِينَهَضُ مِِن حِزْنِهِ

ثُمَّ يَمِضي عَلى مِهلِهِ

ويعودُ إلى أمّه ذاتَ فجرٍ . . ليسألها المغفرة

مرّبي في الأصيلِ خجولاً كعينينِ من عسلٍ . .
واختفى في الزحامِ . .

كلوز البراري . . شقيماً . . ومراً
ويأكلُ من كمّه

حين يبكي على أمّه في الحوارِ
- أنا أشتريها بعمري . .

وأفدي شجيراتِها . . لتنام
مرّةً جيّته

مرّةً جاءني . .

والتقينا على مفرقٍ في الزوالِ
قال :

- إنّي مغادركمُ
قلتُ :

- أينَ؟

فقال :

- إلى الرملِ . . والبحرِ . . والريحِ . . والبرتقالِ
زهرتي ناظرةٌ

في مروجِ الشمالِ

قال هذا . . وعانقني . . وتسلّلَ عنيّ وغابُ

وخلّف لي دفترًا . . وربابُ
قلتُ للقلبِ همساً . . نشيداً . . وأطعمتهُ
- آه . . كونا غريبينِ عن لغةِ الصوتِ
كونا غريبينِ عن صورةِ الموتِ
كونا قريبينِ . . واختلطاً في دمي . . والنبيذُ
قلت : لا . . للمراسي الرخيّة . .
كونا على هجرةٍ دائمةٍ . .
أو فمرّاً بأسئلةِ البحرِ . .
مرّاً بأجوبةِ الذاكرة . .
قلت : لا . . للسدى . . والصدى . . والدَّويِّ
ومرّاً بقريتنا بين حينٍ
وقوسٍ
ومئذنةٍ
وقبابٍ
ومقبرةٍ
وسرابٍ . .
أو فكونا الإشارةِ بينَ الرحيلِ . . وبينَ الإيابِ
كعُنَّابةٍ برَعَمَتْ في الضبابِ

إنني الآنَ أكتبُ وجهيكما بالمواويلِ . . والریشِ
أرسمُ وجهيكما . . بالمناديلِ . . والموجِ . . أو بالبكاءِ

وأكتبُ اسمينَ لامرأةٍ . . . وفتىً . . . في الحدادِ
وأكتبُ لامرأةٍ . . . وفتىً . . . من سهادِ
ونارينَ لامرأةٍ . . . وفتىً . . . من رمادِ
- مرحباً يا فتايَ الشريدِ

- سأنشرُ غصناً من اللوزِ بينَ حبيبينِ

كي يعبراني إليَّ . . .

وأنصبُ بيتاً من الشعرِ كي يسكننا . . . وينا . . .

ونافذةً من سماءٍ . . . وصيفٍ . . .

ويختأ من الوردِ . . .

أبدعُ من جسدي جزراً لا تعدُّ . . . ودافئةً . . .

ثمَّ أطرحُ ثلجاً نقياً . . .

وكأساً من الخمرِ . . . لاثنينِ . . .

أخلقُ ليلاً قصيراً . . .

وسقفاً من البرقِ . . . كي يفرحنا . . .

إنني الآنَ أرقصُ للصبحِ بينَ ذراعينِ من ألمٍ لا يحدُّ . . .

وبحرينِ من تعبٍ سرمدِيٍّ . . .

فأجرحُ قلبي . . .

وأكتبُ في دفترِي شجراً عارياً . . . وسماءً

وحرَباً ستختَمُ بالنصرِ

وأكتبُ بعضَ الرسائلِ للأهلِ . . . في قريتي الجبليةِ

أشربُ ماءً .. فأعطشُ ..
لكنَّ نافذةً كالوطنِ ..
إذُ تطلُّ .. تمرُّ لي نسمةً .. وضياءً .. وكفًّا .. وغيمةً
وجد ..

فأفتحُ نافذةً في الحجرِ
قلتُ أزرعُ خرُوبةً في الطريقِ
وأطلقُ رفَّ الكناري الصديقِ
وأقفزُ للنهرِ .. بينَ شراع .. ومقصلة ..
فيراني العدوُّ الذي خلفَ ظهري ..
يراني الذي من أمامي ..
يراني الذي في ثيابي ..
فأسقطُ في المجزرةً ..

كان يرسمني صاحبي في الدروبِ التي أبعدتُ
رحتُ أصدعُ ..
طوبى لكم أيُّها الغرباءُ ..
وطوبى لصفصافةِ الحبِّ .. طوبى لهذا الشتاءِ ..
وطوبى لمن ودَّعني ..
وحلتَّ ضفائرها .. ثمَّ لم تلتفتْ خلفها ..
واحتواها الفضاءُ ..
وطوبى لكلِّ النساءِ اللواتي انتشلنَّ عذابِي مع الماءِ ..

طوبى لحزني . .
وللبحر . . طوبى . .
وللريح . .
طوبى لصحراء قلبي
طوبى لهذا المساء
وطوبى لفيروزتين . . ورمّانيتين . . وتفاحةٍ واحدةٍ
شمسناً واعدةً . .
والأغاني . .
فطوبى لمن قرأتني قبيل الكلام
ومن علّمتني القتالَ
ومن علّمتني الكتابةَ
وطوبى لمن أدهشت في هذا العجوزُ المجربَ
من أضحكت في طفلاً شديداً الغرابةَ
وطوبى لمن واكبتني إلى النهرِ
والجمرِ
والقهرِ
طوبى لمن عمرتني بها . . واغتنت بالفقير . .
وطوبى لهذي الصحارى . . وذاك النخيل . .
وطوبى لعاشقة في المنافي . .
وعاشقتها في الجليل . .
بعد . . طوبى لخاطرة تتحوّل في الصمت أرضاً . .

ووعداً . .

وسهداً . .

وخيطَ حريرٍ

فطوبى لنا أيُّها الفقراءُ

نداءٌ . . نداءٌ - نداءٌ نداءٌ . . . نداءٌ

جدولٌ من دماءٍ

أبحرٌ من دماءٍ

والتقطُ الصوتَ من رفَّتَيْنِ

وأرْمِي بِكُوفِيَّتِي فِي الْحَرِيقِ

وَأزْرِعُ أَجْنَحَةً فِي يَدَيَّ

وَأَمْضِغُ خَبْزاً قَدِيماً . . وَمُرّاً . .

وَأَحْمِلُ سُكْرَةً لِلطَّرِيقِ

فَأَلْقَاكَ فِي جَسَدِي تَخْبِزِينَ

فَنَقَاتُ مِنْ بَعْضِنَا

وَيَنَامُ الْهَجِيرُ

- هل ترى شتتاً - أنتِ والحبُّ - أنْ تدرِكانِي قَبِيلَ مَغَادِرْتِي ؟

هل أنا واهمُّ . . ؟

أم تراني أُغْنِي لِنَفْسِي فِي عَزَلْتِي ؟

أم ترى أنتِ قادمةٌ في الأغاني التي لم تقلِ بعدُ؟
أم في النهار الذي سوف يأتي
وفي الحلم العربيّ . . ؟
وفي المرأةِ المبهمّة . . - هل أتابعُ أسئلتِي؟ -
أم ترى أنتِ في سفرِ غامض . . كالمسافةِ بينَ غربيينِ في غربتِي . .
أم أنكِ موجودةٌ ضمنَ ظليّ . .
وبينَ جناحيّ .
أم أنتِ نرجسةٌ في شتاءِ
والحبِّ زُبُقَةٌ . .
وأنا مُشرَعٌ في يديّ

- هل أحبُّك؟
لكنَّ يافا تحبُّك أكثرَ مِنِّي . .
لأنَّك أودعتِ سرّاً اغترابك فيها بلونينِ من برتقالٍ . .
ودم . .

وكأسينِ من دمعتينِ . . . وهم
وأحببتُ فيها المغنيّ
- أحبُّك

من أنتِ . . ؟
هل كنتِ قبلَ ثلاثينِ
أم جئتِ بعدَ ثلاثينِ

من أين؟
هل من كروم الخليل . . ونبع من الشوق لا ينتهي . .
- أم ترى جئت من زهرة الحزن؟
- آتيك من أول الضوء عبر السراج الأخير . .
- وها نحن نُولدُ بعد ثلاثين . .
أو نلتقي . .
- والمرايا دمٌ . . يا حبيبي . . دمٌ
والمدن . .
في المدار الموانئ محروقةٌ والسفنُ
آه محروقةٌ . . والسفنُ . .
آه محروقةٌ والسفنُ . .
آه محروقةٌ . . والسفنُ . .

(دمشق - 8/1/1984)

رسالةٌ إلى ليلي الجنوب

تحيئكِ نجمتي كالطفلٍ . . . يا ليلي
ومن حلمِ الكتابةِ باللغاتِ
ومن دمِ القلبِ الجميلِ
وحلمِ ليلي لم يضىءُ . . أبداً
ومن رملٍ
ومسغبةٍ

وريشِ شجيرةٍ في الريحِ
من وجعِ شتائيِّ
ولونِ حمامةٍ ذبحتُ
ومن دوامةٍ
وضجيجِ قاطرةٍ
وظلِّ بكاءٍ

- أحبُّ البحرَ . . والصفصافَ . .
- أحبُّ الشعرَ . . والأصدافَ . .
- أحبُّ الليلَ . . والأعشابَ . .
- أحبُّ الرقصَ . . والصبَّارَ
- أحبُّ منارةً في البحرِ لم أرها
- ولم أرها
- وأرغبُ أن أعانقها

- وأرغبُ أن أراقصها
- أحبك .. خذْ يدي .. خذْني .. وخذْ فرحي ..
- حذارِ فإنني جبلٌ من الأحزان ..

تحيئكِ نجمتي يا ليلُ حبلِي من مدارِ النارِ
تحيئكِ نجمتي .. فجراً .. وعاريةً
سوى من وهجِ داليةِ فلسطينيةٍ
تأتي إلى عينيكِ .. من عينينِ متعبتينِ
أو سفنِ مغرّبةِ بلا ميناءِ
ومن ورقٍ يشكّلُ نفسهُ في الشوقِ
والزيتونِ
والدفلى
ويبحرُ في مساءِ الماءِ

... وشيءٌ بيننا ينمو كتنفاحةٍ
ولؤلؤةٍ
ويصقلُ كالأسى والماسِ
شيءٌ ساطعٌ كالشمسِ
نخلٍ واعدٌ .. ورذاذُ أمواجٍ .. وأغنيةٌ .. مدى .. مهرٌ بلونِ
الثلجِ .. يطلقُ نفسهُ في
المرجِ عاريِ الظهرِ مهرٌ جامحٌ .. هذا الذي .. ما بيننا يا ليلُ

.. والساحة

غابٌ من الأزهارِ . . . والحراسُ

.. ليلي

ونعبرُ شارعاً . . وحديقةً ما بينَ عاصمتينِ

أو نهرينِ من وجدٍ . . وقافلتينِ من تعبٍ . . . وخاصرتينِ من

غضبٍ

ونعبرُ بينَ مسألتينِ

أو سجينينِ

يربطُ بيننا جسرٌ من النارنجِ . . والأقمارِ . .

ونعبرُ نحوَ غابتنا

ونبكي برهةً . . ونسيرُ في جهتينِ

ثمَّ نعودُ أيدينا . . لأيدينا

فنفتحُ في المدى الثلجيِّ نافذتينِ

ونطلقُ نحوَ حزنِ الأرضِ . . عصفورينِ . .

.. وتأتي نجمتي يا ليلُ من مدنٍ معذبةٍ

ومن سيفٍ . . ومن لهبٍ

ومن خيلٍ محاربةٍ

ومن جزرٍ بلا أسماءٍ

هنا شجرٌ نحاسيٌّ

وشبهُ مدينةٍ . . وزجاجُ أغنيةٍ . . وأدخنةٌ . . ووجهٌ ساهمٌ

وأينُ ساقية . . وجوعٌ سادرٌ
وأريجُ زنبقةً
وزفرةٌ عاشقٍ في الليل . . والصبَّارِ
منديلٌ
وقنديلٌ

وموسيقى

ونخبُ أميرةٍ عجزيةٍ

وصديقة . .

وصديقٌ عمرٌ

نخبٌ من حضروا

ومن غابوا

ووقع خطيٌّ على الإسمنت . . مؤنسةٌ

ووقع خطيٌّ على الإسفلت . . موحشةٌ

هنا أصغيتُ بعضَ الوقتِ

ثمَّ قرأتُ بعضَ الشعرِ

بعدَ هنيهةٍ دخنتُ ربعَ لفافةٍ

وغفوتُ

كان الحلمُ بينَ عيوننا . . كالطيرِ . . أو كالحيلِ

ثمَّ صحوتُ

جاءتْ نجمتي . . . فبكيتُ من فرحٍ

ومن حزنٍ

وفرتُ من يدي . . يا ليلُ . . أنتِ حبيبتِي . . وجميلتي مُدُكنتِ
رفَّتْ نُجمتي في القلبِ وارتحلتُ إلى عينيكِ
من أعصابها تأتيكِ
من شجرٍ يكونُ نفسه في البحرِ
أو شوقٍ يجمعُ نفسه في الصبرِ
أو صدرٍ يردُّ الموتَ بالأصدقاءِ
ونحنُ الآنُ بينَ ضفيرةٍ من فضةٍ . . وشذىٍ . . وشبابَةٍ
وفوقِ ترابِ خاطرةٍ من العشبِ
وتحتِ سماءِ عاصفةٍ شتائيةٍ
وتحتِ شجيرةٍ قمريةٍ
وخريفِ أسئلةٍ رماديةٍ
وعندَ رصيفِ أغنيةٍ سديميةٍ
وقهوتنا
لها طعمٌ من الطرقاتِ
والأنهارِ
والغاباتِ
وأنتِ الآنُ بينَ قصيدتي . . وهواجسي . . ورمادِ أحزاني
ومقبلةٌ على قلبي
ومقبلةٌ لأسفارِ

ومن عطشٍ تَجِيئِكَ نَجْمَتِي كَالسَّيْلِ
أَوْ تَأْتِيكَ عَاصِفَةٌ عَلَى أَيَامِنَا الْغُبْرَاءِ
- يَا لَيْلَى -

وَيَا بَوَّابَتِي فِي الْغَيْمِ . . وَالصَّحْرَاءِ
رُدِّينِي عَلَى أَكْتافِ قَرِينَتَا
وَرُدِّي لِلنَّدَى عَطْشِي
مَسَافِرَةٌ عَيُونِي فِي الرَّدَى
يَا زَهْرَةَ الصَّبَّارِ

وَلِلْكَلِمَاتِ مَتَّسِعٌ مِنَ الْآفَاقِ فِي الْجُرْحِينِ
لِلْجُرْحِينِ مَتَّسِعٌ مِنَ الْأَعْمَاقِ فِي الْجَسَدِينِ
لِلْجَسَدِينِ مَتَّسِعٌ مِنَ الْأَشْوَاقِ فِي الْعَيْنِينِ
لِلْعَيْنِينِ مَتَّسِعٌ مِنَ الْآلَامِ فِي الْمَنْفَى
وَلِلْمَنْفَى عَلَى الْوَجْهَيْنِ . . نَافِذَتَانِ

أُحِبُّ سَمَاءَكَ الزَّرْقَاءَ

وَوَجْهَكَ فِي النَّدَى . . وَالشَّمْسَ

أَعَشَقْتُ اسْمَكَ الشَّرْقِي

وَهَا زَمَنِي . . يَجِيئُكَ مَرَّةً فِي الْعَمْرِ

أَرَشَقُ مِنْ سَنُونُوه . . وَأَغْنَى مِنْ ذُرَى الْأَعْصَارِ

مَنْ تَعَبَ الْكِتَابَةَ . . وَالتَّشْرُدُ . . نَجْمَتِي خَرَجَتْ إِلَيْكَ

وأنتِ وحدكِ مَنْ كَتَبْتُ لَهَا الْأَغَانِي مِنْدُ فَجْرِ قَصِيدَتِي . . أَوْ كَأْسِي
الأولى . . ومطلعِ غرْبتي
. . ودمي . . وأمطارِي . . وبعْدَ تشرُّدي . . أَوْ أنتِ وحدكِ من
حلمتُ بوجهها قمرًا . .
وفاكهةً . . وغابةً ياسمينٍ
خمرةً من ألفِ عامٍ
نجمتي خرجتُ إليكِ
وأشعلتُ شمعةً
ومدَّتْ بيننا طرقاً من الشجرِ الحزينِ . . وأنهرًا كالبرقِ
والمنفى كتابٌ مغلقُ الكلماتِ
والرملُ الحريقُ
زمني على صدرِ الطريقِ
يدي على القلبِ الغريقِ
دمٌ
وأفتقدُ الصديقُ
ليلٌ
وفوقَ مرارتي تمشي الجيوشُ
فأرتدي قدرِي . . وسترتي القديمةُ . . والمحابرُ
ثمَّ أعبرُ بين أسئلتي . . وبينكِ . .
ألفُ مذبحه
وبحرٌ

وارتحالُ حمامةٍ في صوتها
والرملُ
والمطرُ الحزينُ
وأنتِ
والسفرُ الملوَّحُ باليدينِ . . وبالبنادقِ . . والتلالِ
وصوتُ ذاكرةٍ من الليمونِ . . والقتلى
ويجمعُ بيننا دُمنا
وشيءٌ غامضٌ . . كعذابِ موجِ البحرِ . . أو كعذابِ سنبلَةٍ . .
ومرحلة
وشطٌّ ساطعٌ . . وضبابٌ أمسيةٌ
وأزمنةٌ بلا حدٍّ
وإيقاعٌ على قلبي . . أو جسدي
أو طيرينِ من شفقٍ
أصابتِ الطلقاتُ منها جرحاً مزمناً
- . . . - وأودُّ لو أبكي - . .
أحبُّك . . آه . . لو أبكي
اكتبي في الدفترِ العجريِّ صورتنا
نحبُّ القهوةَ العربيةَ السمراءَ
نهوى الخيلِ
والسفرَ العصيَّ إلى شفافِ الأرضِ
نعشقُ خمرها الورديةَ

نحلمُ أنْ نرَبِّي قِبلتِينِ حَمِيمَتِينِ . . وورِدَتِينِ شِجَاعَتِينِ
وَأَنْ تَكُونَ لَنَا الشَّوَارِعُ
وَالْحَدَائِقُ
وَالْمَعَابِرُ
وَالْأَزَقَّةُ
وَالْمَدَى

أَوْ أَنْ نَكُونَ لَشَمْسٍ يَافَا ضَوْءَهَا
وَنَكُونَ أَمْطَارًا عَلَى السَّهْلِ الْمَعْدَبِ
أَنْ نَكُونَ حِجَارَةَ الطَّرِيقِ الَّتِي ذَهَبَتْ إِلَى الْوَطَنِ الْفِلَسْطِينِيِّ
أَنْ نَعْدُو عَلَى الصَّخْرِ الْمَضِيِّءِ شَقَائِقًا
وَنَكُونَ مُوسِيقَى لِمَوَالٍ يَعُودُ إِلَى الْحَنَاجِرِ ذَاتِ يَوْمٍ
أَنْ نَسَاقُ بَيْنَ دَبَكْتَنَا وَعَرَسِ الْحَبِّ
- يَا لَيْلَى -

أَرْسَمِي فِي صَفْحَةِ الصَّفِصَافِ قِصَّةَ عَاشِقِينَ . . وَخَاتَمِينَ
وَصُورِي فَرِحًا بِمِينَاءِ يَجِيءُ إِلَيْهِ بِحَارًا
تَشَقَّقُ وَجْهُهُ مِنْ شِدَّةِ التَّحْدِيقِ فِي الْأَفْقِ الْمَسَاوِمِ
وَإِفْرَدِي لِحَبِيبِكَ الرَّحَالَ أَجْنَحَةَ الْفَرَاشَةِ
- مَتَعَبٌ -

وَيَعُودُ قَلْبِكَ مِنْ تَشْرُدِهِ
وَوَجْهَكَ مِنْ مَشَقَّتِهِ
وَآتِي الْآنَ

نجمتنا معلقةً على ظمأ
وتعدو بين خارطتين
بين شفاهنا . . والليل . . والأحراش . .
وأعدو بين أسئلة . . وأضرحة
وبين سحابة . . وحصى
وفي زمن رمادي
يمدُّ جناحه ومداه في رثي
لكني أشدُّ الحلم بالشفقتين . . والكلمات . . والجسدين
أصعدُ سلماً . . ويدين
أصعدُ باتجاه الضوء . . والعينين
أصعدُها جساً
فيهذهني تعبي . . ويأخذني السدى . . والليل

ولا تدرين أين نكونُ فيما بعدُ؟
أين نكونُ؟
والحلمُ الذي كبرتُ ملامحه . . وقامته . . يشدُّ رحاله معنا . .
وإذ تبكين . . يبكي القلبُ
ثمَّ يجرُّني للصمت . .
أو للموت
أدخلُ بين وجهينا
الجبالُ تردُّ لي سمتي

الصدى صوتي

الصدى عمري

الصدى طيرٌ . . وأسلحةٌ

وخبزٌ حزينٌ . . وندى

وأزهارٌ

وحبرٌ مطابعٍ

صدأً على الطرقات . . بينَ مدينةٍ منفي

وبينَ مسافةٍ قصرت . . وإنْ طالتْ

وبينَ الدارِ . . والأغوارِ

تحيئكُ نجمتي يا ليلُ -

يصعدُ للسماءِ البحرُ

يصعدُ في مدى عينيكِ أسئلةٌ

وأجوبةٌ

وأشعاراً

وأمطاراً

وضوءاً من نسيجِ الروحِ . . والأخطارِ

يملؤنا

ويحملنا . . إلى وقتٍ يبرعمُ نفسهُ في الخيلِ . . والأشجارِ

والدنيا على شفةٍ من الإبحارِ

مُدُّ كُنَّا على قطبينِ من أحلامنا . . والأرضِ والإصرارِ

إذْ نَمشي إلى قلبي . . وقلبك . . دون أن نلوي على جرحِ يساورنا

. .

ولا نأتي إلى وعدِ رماديِّ

وليسَ يفرِّقُ القلبينِ غيرُ الموتِ

- يا ليلي -

- أحبك -

فاصعدي جبلي

فبينَ عيوننا سغبٌ

وبينَ شتائنا . . والصيفِ . . مركبةٌ من الأشعارِ

وأذكرُ أنني يوماً أَعَرْتُ عباةَتي للنارِ

فأشرقَ حولي الرملُ

وأطلعَ زهرةَ الصَّبَّارِ

وأطلعَ غابةً . . ودماً . . وأسراراً

هتفتُ :

- حبيبي

يا أيُّها الفقراءُ

تلكَ عيونُها . .

وحبالُها

وسهولُها

ودروُبُها

من بين ألفِ صبيَّةٍ . . مَيِّزْتُها

ليلايُ

وأنتِ الآنَ أبعدُ من مدى الكفِّينِ والقدمينِ

أنتِ الآنَ بينَ الليلِ . . والصحراءِ

أنتِ الآنَ في أفقِ من الأنواءِ

أنتِ الآنَ بينَ العسفِ . . والإرهابِ

ولا أحدٌ سِواي . . وأنتِ يا ليلي

سيفتحُ مغلِقَ الأبوابِ . .

أحزانُ الأيامِ الأخيرة

أنتِ لا تدرينَ من أيِّ المواويلِ تَجِيئينَ إلى القلبِ . . فيكي
أنتِ لا تدرينَ في أيِّ العذاباتِ تَقِمينَ . .
ويأوي الوجدُ . .

في أيِّ المرايا ترحلينَ الآنَ . . من وجهي
وفي أيِّ المطاراتِ تنامينَ
ومن أيِّ القطاراتِ أنادي . .

- مرَّةً حلوى الدكاكينِ . . وأعشابُ البوادي

عسلُ الصبرِ

وأيامُ المناديلِ

وطيرُ الزعترِ الجبليِّ . . مرَّةً

فوداعاً

لحصادِ الشجرِ العاقرِ

والعرضِ الغبي

إيه يا عبادةَ الشمسِ . . وداعاً . . لمراسيمِ الجنازاتِ . .

وللقمعِ . . وداعاً

فدمي ينحلُّ في الغربةِ

والريحُ تضاريسُ دروبِ . . وقلوبِ . . لا تؤوبُ

وأنا أجتازُ عينيكِ إلى سمتِ الغروبِ

متعبٌ ترتاحُ في قلبي فلسطيني . . وأنتِ
بينما أفضي من الحزن . . إلى الحزن . . إلى برِّ الدفاترِ
شجرُ الكبريتِ في عينيَّ
وامرأة من الشمعِ المسلَّحِ بالمقاصلِ
إنَّهُ الميلاذُ في جرحِ سماويِّ
وأشجارٍ
وليلٍ
وعتابا

وترابٍ
إنَّهُ منفاي في جلدي . . وأشعاري . . ووجهُ دمي المغامرِ في
تفاصيلِ اليبابِ
أنتِ لا تدرين من أيِّ البلادِ أتيتُ
أو أيِّ البلادِ تريدني
وتردُّني
لشوارعِ الوهمِ المخاتلِ . . والسرابِ
فوداعاً
أيُّها المسكونُ بالتبعِ . . وبالخمِرِ الرديئةِ . . والخرابِ
ووداعاً . .
لطيورٍ خلعتْ أجنحةَ البرقِ
وللقهرِ . .
وغدرِ الأصدقاءِ

ووداعاً . . لجدار الكلمات

- إيه يا عبادة الشمس . . ويا رمانة الشعر . . أسمىك يدي
وأسمىك دمي
وأناديك إلي
أعبري جرحي . . ونادينني أربي
إنني آتية من مدن محرمة . . وقلبي
مشرع للضوء . .
والبحر مواويلي . . وأنت
جسد منكسر في الشمس . . والوقت رصيف
وأنا أمشي بلا ظل
ووجهي جبل يبحث عن منفى

وورد

ودوالي

وأنا أبحث عن منفاي . . والوقت خريف
ورقي يسقط في كأس نحاسي . .

وطاحون

وواد

وعصاب

وأنا أسقط في لون الغراب
عشبة من فضة الموتى . . ومن بوح العذاب

هاجسي . . ومض . . وكثبانٌ من الملح . . وحنظلُ
قادمٌ كالمعدنِ البارد . . والحزنِ
وكالخوفِ من الموت . . أغاني
وكالطيرِ الذي يسقطُ في البحرِ
وكالبحرِ الذي يخرجُ للبرِّ غريباً
آه . . كالماءِ الذي يرحلُ في الغيمِ بعيداً عن تخومِ العطشِ المكسورِ
بالوهمِ

أغاني . . كإيقاعِ رمادي . . على القمرِ
أو تأتي أغاني كأصداءِ العصافيرِ الذبيحةِ

سنةٌ أخرى . . وحيفاً لا تضيءُ
ليلةٌ أخرى . . ويأتيني الصقيعُ
لحظةٌ أخرى . . وينساني الحنينُ

وقميصي من زجاجِ مرهفِ الأعصابِ
والصيفِ بعيدُ

آه يا ذاكرةً من القمحِ

ويا طعمَ الحديدِ

لحظةٌ أخرى ومشتقتي ردائي

إنني أرتجلُ الآن التنائي

وأسميكِ سمائي . .

فخذي

- هل ينادي البحرُ أحزاني . . فأمضي
ربّما يقذفني الموجُ إلى الموجِ . . فأزهرُ
أيُّها البحرُ أعطني
فأنا الآن إليكُ
وأنا يا بحرُ أدعوكَ صديقي . . ورفيقي
حيثما تمضي اتّخذني

يا خليليَّ
ويا صوتي المدمّي
ذهبَ الجثمانُ للوردِ وحيداً
وتناولتُ من الوردِ الحجارةُ
ثم واصلتُ اغترابي . .
مرّةً أسئلتُ الصّبار . . والأرضِ . . وشطآنِ النعاسِ
مرّةً أضرحهُ الباقيينَ . . والنهرِ الحزينِ
إيه يا عبادةَ الشمسِ . . ويا زهرَ الأصيلِ
مرّةً ثرثرةُ الشارعِ . . والعمرِ
وطلعُ النخلِ
والوردُ . . مريزُ
مرّةً تلكَ المواعيدُ . .
ومرّةً قمرُ الصحراءِ . . والخبزُ . . وكأسُ الخللِ . . والماءُ
وتأتيني صباحاً . . ومساءً

فأوافيها على وعدٍ قديمٍ
كانت الصحراءُ توقاً . . وكتاباً
فغدتُ بئراً صديدياً
وصدّنتني إلى الظمأ الأليمِ
إنّني أومئُ للرملِ . . فيرتدُّ إليّ
عازفاً لحني الشجيّ
أيُّها الموتُ الذي يأتي على مهلٍ . . ولا يأتي تقدّم
إنّني أتيك يا موتي الحميمِ
فوداعاً
ضاقَتِ الأرضُ . . وأطفالي يضيّقونَ . . وأهلي
تاجروا بالريحِ . . والعتمةِ
والليلِ طویلِ
إيه يا عبادةَ الحبِّ . . طویلِ
وأنا أسألكَ الليلةَ عن عمرِ جميلِ
فأنا مشتعلٌ بالرغبةِ القصوى على حدِّ الصهيلِ
السماءُ
القصفُ
والموتى
وأشلاءُ فراشاتٍ على السفحِ

وزهرٌ برتقاليٌّ

ورمَّانٌ

وملصقٌ

وقعُ أقدامٍ على الصدرِ

وجنزيرٌ على صدرِ المخيمِ

ودخانٌ في مدى الساحةِ طينٌ راقصٌ . . حطبٌ يغني

وأنا أعدو على الشاطئِ مذبحاً . .

وأعدو . .

موغلاً في البحثِ عن ذاكرةِ الصيفِ الشماليِّ

وعن وجهي الشتائيِّ

وعن جدولِ ماءٍ

موغلاً في البحثِ عن قهوتنا المرّة . . والدربُ ضريراً

حجرٌ يشربُ من قلبي . . ويلقيني إلى البحرِ . . فأصحو

كأسي الآنَ وحيدةً

وعلى طرفِ الجرحِ كتاباتٌ

وآثارُ جناحٍ . . وجريدةٌ

وعلى الرملِ قصيدةٌ

وبقايا قلمٍ . . من ألمٍ

وشظايا شمعدانٍ

وأنا أبتعدُ الآنَ . . ويقصيني المكانُ

كلّما أدنو تغييبنَ

فمن أين الندى يأتيك من بعدي
ومن أيّ الصحارى . .
فجأتني زهرة الصبار في ثوبك أو عري العذارى
ورقي أعمى . . ومنفائي دمائي
آه من ذاكرة الرمل . . ومن جرح الرحيل
قاصرٌ كفي . . وقلبي لغة ضيقة الصدر
وفي عيني أحلام عن النوم
وعن طقس مطير
قاصرٌ خطوي عن جسر . . وباب
كلّما أدنو . . يضيعان . . فأبكي . .
آه . . يا جوابة الشعر الغنائي الذي يأتي مع الليل . . أغنيك
وأشفاق إليك
وأخبيك عن العصر الغبي
يا بلادي . .
آه من شمس . . وأيام . . ومحمل . . وطير
آه من وعد بلا جسد
ومن جسد بلا وعد
ومن زبد المساء
غابة - تنأى - من المرجان . . أغصان من القتلى
وأجوبة من الحجر الغشيم

إيه . . يا عبادة الشمس . . أخلّيك ورائي . .
وأوفيك أمامي . .
فوداعاً . . للمساء الحامض البارد . . والوجه المهدم
ولقاء . . لعذابات المخيم
آه . . يا ليل الغلابا
بالذي كان من اليتيم . . وكان
والذي أسرى بروحي للزمان . .
والذي أثقل كتفي طويلاً
والذي أبدع في القلب الموايل . . وأبيات العتابا
سوف أبقى الخالد . . العاشق
لكن القصيدة
خرجت عني . . وألقتني إليّ
وهي تغدو الآن كاللحن الوداعي الأخير
وهي تلويح يدي
حيث لا شيء على أفق الدماء
وأرى الموجة في محبتها . . محض هباء
ولذا أسألك الآن العزاء

جسدي منسلخ عني . . وأسمائي

وأحبابي

وتاريخي

وقبري

وأنا منسلخُ الوجهِ عن الزيفِ
ومشتقُّ من القتلىِ الجماعيينَ
مشتقُّ من الشقيقِ . . والصبَّارِ
منشقُّ على الزمنِ المساومِ
وأنا الآن صبيُّ
وأنا الآن نبيُّ

وأنا الآن أناديك . . فرديني إليَّ
رافعاً صدري إلى صدر النهايات البعيدة
حيثُ ألقاك . . وتلقانا النوارسُ . .
والفوارسُ . .

إنَّ ما يبعدها الآن عن الرحلةِ للموجِ المسافاتُ
وما يفصلنا الآن المراتُ
فغني لي . . لأنهُضُ

- أن أن نبتديَ الخطوةَ من صفرِ البداياتِ
ومن وهجِ الشمسِ . . وحتى المستحيلِ
أن أن نشعلَ في العتمِ القناديلَ
وأن يبتهجَ الفخارُ . . بالخميرِ
وأن

أيُّها الخارجُ من رحمِ التوابيتِ . . ومن عصرِ الياسِ

أُيُّهَا الْخَارِجُ مِنْ غَمْدِ التَّجَارِيِبِ . . وَمِنْ جَرِحِ النَّحَاسِ
أُيُّهَا الْخَارِجُ مِنْ دَوَامَةِ الْعَقْمِ . . وَمِنْ حَدِّ الْمَقَاصِلِ
أَنْ أَنْ تَخْلَعَ عَنْكَ الْعَوْسَجَ الْمَرَّ
وَأَنْ تَحْرَثَ فِي الْبَرِّ
وَأَنْ

أَنْ تَصَدَّ اللَّيْلَ عَنْ خِيْمَتِكَ الْأُخْرَى . . الْجَدِيدَةَ . .
أَنْ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ طَوْقِ الْحِصَارِ

- آه . . يَا نَجْمَةَ أَحْزَانِي . . وَلَكِنْ
لَيْتَ لِي وَجْهًا مِنَ الْعَاجِ . . أَوْ الْمَعْدِنِ كَيْ يَخْفِي نَزِيفِي
لَيْتَ لِي قَلْبًا مِنَ الْقَشِّ . . فَأَرْمِيهِ إِلَى النَّارِ
وَلَيْتُ

لَيْتَ لَوْ يَخْرُجُ لِلَّيْلِ النَّهَارُ
فَارِسًا مَوْتَلِقَ الْعَيْنِ . . وَوَضَاحًا
وَلَيْتُ

لَيْتَ لَوْ تَنْهَمُرُ الشَّمْسُ عَلَيَّ وَجْعِي . . كَمَا تَأْتِي إِلَيْكَ
غَيْرَ أَنِّي . .

أَنْتِ لَا تَدْرِينَ فِي أَيِّ الْيُنَابِيعِ تَصْبِينِ . .
وَمِنْ أَيِّ الْجَرَاحَاتِ أَغْنِي . .
مَدْرَكًا مَا تَطْرَحُ الْمَأْسَاةُ فِي حَلْقِي . . وَتَخْفِيهِ . . وَحَقْلِي

مدركاً ما خبأتُ بالأمسِ
أو أَلقتُ على جسدي . . وعمرى . .
مدركاً لونَ العباءاتِ
وأحزانَ المساءاتِ
وما طعمُ الحرائقِ

أنت لا تدرينَ عنِ ومضِ السكاكينِ على العنقِ
ولا تدرينَ ما ظلُّ المشانقِ
آه . . لو تقرأني الرؤيا على بوابةِ الشعرِ . . وفي عمقِ المداخلِ
آه . . لو يورقُ وردُ الصبحِ
أو تغدو الزنابقُ
زورقي الطافي . . على مدِّ المناجلِ
آه لو تأتينَ في الحلمِ إلى حلمي
وفي قبلتنا الأولى . . على شرياني الصاعدِ في جبالِ الوجدِ
لو تلقينَ بالضوءِ الذي في نجمةِ الأحزانِ . . في دربي
ولو أنِّي أبادلُكَ اللآلئَ . . بالسنابلِ . .
إيه يا عبادةِ الشمسِ . . ويا شمسي . . ويا قدرَ المقاتلِ
لا تقولي إنني أَلقي بكِ اليومَ إلى الفوضى
وإن قلتِ وداعاً
فعلى مدِّ المرآثي . . عانقِ البحرُ الشراعا
وأنا أمنحكِ الليلةَ من جرحي النياشينِ . . وأمضي

أرتدي من شجرِ العَلِّيقِ . . إكليلي
ومن صدأِ الصَّحاري
أرتدي جلدي . . وأقتاتُ مُصيري . .

- أيُّها العابرُ في صمتِ الإذاعاتِ . . تمهَّلْ
وترجَّلْ

المدى مستنقعٌ
يا أيُّها الطالعُ من إيقاعِ موتانا . . ومن جوعِ المخيمِ
المدى مستنقعٌ
يا أيُّها القادمُ في الآتي . .
المدى مستنقعٌ . . مستنقعٌ . . مستنقعٌ . .

(أيار - 1985)

توقّعاتُ الولادةِ الثانيةِ

تلقتُ . . . كانتَ عصافيرُ قلبي ترفُّ . . . وتحملني نحوَ أعشاشها . . .
ريشُ أجنحتي حجرٌ
والمساءُ يكثفُ عتمتهُ في رغيبي . . .
أحاولُ حلاً لمسألةِ الطيرِ . . . والأرضِ
حلاً لمسألةِ الشَّهدِ . . . والوردِ
أخلطُ بينهما
وأحاولُ أن أستبينَ العلاقةَ بينَ امتحانِ الرياضةِ . . . والفيزياءِ . . .
وبينَ امتحانِ الدماءِ
فأكسرُ شاهدي . . . بينَ ظلِّ على شجرِ الانفجارِ
وظلِّ على المائدةِ . . .

تلقتُ

كانتُ رمالُ الحرائقِ تعبرني . . . ورمالُ البحارِ تحاصرني
والشتاءُ يديرُ إلى القلبِ كتفيه . . . مبتعداً
يتأبطُ امرأةً
خلتُها امرأتي
أو هيَ امرأتي
غيرَ أن المسافةَ . . . والتعبَ العسجديَّ . . . يحولانِ بينَ عيوني . . .
وبينَ الشتاءِ الذي يأخذُ الآنَ قلبي إلى الصيفِ . . . أو يأخذُ الآنَ

رَأْسِي إِلَى السِّيفِ . .
أَسْتَرْقُ السَّمْعَ . . لَا شَيْءَ
مَوْتُ يُوزَعُ أَبْنَاءُهُ فِي الْمَكَانِ . .
وَرَفُّ الْعَصَافِيرِ . . مَخْتَنِقٌ . .
بَيْنَمَا يَسْتَدِيرُ الزَّمَانُ . .
وَيَبْدَأُ طَقْسُ الرَّهَانِ

يِرَاوِدُنِي شَجَرُ الزَّيْفُونِ . . فَأَصْغِي لِرَائِحَةِ الْعَطْرِ ، أَقْطِفُ
وَهُمَا . .

وَحَزناً أَسْمِيهِ فَاكْهَةً . . وَنَهَاراً فَسِيحاً كِبْلُورَةَ الرِّيحِ
أَكْتُبُ بِالزَّيْتِ وَجِهَيْنِ مِنْ مَاءِ شَائِعَةٍ . . وَسؤالاً يَدُورُ أَطْرَافَهُ فِي
الْفِرَاغِ

هَذِهِ امْرَأَةٌ تَتَوَارَى عَلَى مَهْلَهَا خَلْفَ بَابِ الرِّحِيلِ الْمُبَكَّرِ
وَالانْتِحَارِ . .

هَذِهِ امْرَأَةٌ تُغْزَلُ الْآنَ ثَوْبَيْنِ مِنْ تَعَبٍ قَادِمٍ . .
وَتَعَبِيٌّ خَوْفَ الْقَطِيعَةِ فِي خَاتَمِ كَاذِبٍ . .
وَتَحَاذِرُ أَنْ تَكْسِرَ الْكَأْسَ . . فَوْقَ بِلَاطِ الْمَخْدَةِ
تَخْشَى مِصَارِحَتِي بِالْحُرُوبِ الصَّغِيرَةِ . . وَالرَّعْبِ
وَهِيَ مَبْعَثَرَةٌ بَيْنَ رَغْبَتِهَا فِي الْعِشَاءِ الْأَخِيرِ
وَرَغْبَتِهَا فِي الْفِرَارِ

هذه امرأة من جزيرتها . . وهي لا تشبه الكونَ
أو تشبه اللون . . أو تشبه الأمنياتُ
هذه امرأةٌ . . وحدها . .
وهي تختزنُ الحبَّ - في نجمة القلب - والحربَ
وهي التي ليستُ امرأةً كالنساء . .
ولكنّها منحنتني مدى العمر . . أجملَ ما في النساءُ

ولا شكَّ أنَّ المحارات تنتظرُ البحرَ
والبحرُ ينبثُ لؤلؤةً . . ويلوحُ للبرقِ
والبرقُ منشغلٌ بدموعِ تلملمُ حباتها في غيومِ الصدى
والغيومُ تواكبُ حزنَ السماواتِ بالقربِ من شجرِ السّدرِ
مرّتْ طيورُ الأغاني . . وألقتُ عليّ سلاماً حزيناً . . وغابتُ
- ولا شكَّ أنّي دخلتُ إلى جسدي . . في المساءِ
وبعثتُ أسئلتي في الهواءِ
ونمتُ قليلاً من الليلِ
بينَ السكينة . . والاختباءِ
ولا شكَّ أنّ التي أشعلتُ قمري . . مهرةٌ شلعتُ نفسها من مدارِ
الخيولِ
فأورقَ في عرفها النبضُ مرجَ شمسٍ

تَلَفَّتُ . .

كَانَ الشِّتَاءُ يُجْمَعُ أَوْرَاقَهُ . .

وَيَغَادِرُ فِي صَخْبٍ . . وَرَدَاءٍ مِنَ الْقَصَبِ الْعَصْبِيِّ . .
تَلَفَّتُ

لَا مَهْرَةً فِي الْبَرَارِيِّ

وَلَا شَجْرِي يَانَعُ

وَالصَّحَارَى . . تَجْرُ الصَّحَارَى . . إِلَى خَيْمَةٍ فِي الصَّحَارَى . .

وَلَا شِكَّ أَنِّي نَهَضْتُ

وَأَشْعَلْتُ مُدْفَأَتِي . . وَكَتَبْتُ رُمُوزًا تَسِيرُ إِلَى عَالَمٍ خَلْفَ ظَهْرِي

وَنَازِقَةً فِي نَشِيدِي . .

وَتَحْتَمِلُ الْأَسْئَلَةَ

كَانَ فِي غُرْفَتِي صَوْتُ امْرَأَةٍ فِي إِطَارٍ

وَكَانَ عَلَى دَفْتَرِي صَدًّا . . وَغَبَارًا

عَلَى زَمَنِ الظِّلِّ أَرْجُو حُجَّةً مِنْ دِمَاءٍ

وَفِي كِتَابِي سَاعَةٌ لَا تَدُورُ . .

وَبَيْنَ الشَّبَابِيِّكَ . . وَالصَّمْتِ . . أَسْقَطُ أَقْنَعَتِي . . وَاحِدًا . .

وَاحِدًا

وَأَحَاوَرَهَا . .

بَيْنَ نَبْضَيْنِ . . نَبْضِ الْمَكَانِ وَنَبْضِ الزَّمَانِ

فَتَنْحَلُّ . . أَوْ تَتَحَوَّلُ مُثْقَلَةً بِالنَّبَاتَاتِ . . وَالْجَمْرِ

تنهضُ في لعبة غامضة
وتسحبُ منِّي عروقي . . إلى لغةٍ شاردةٍ

هنا نحنُ . .

- ماذا تحبينَ؟

- خمراً . . وزهراً . . وماءً

- ماذا تريدِينَ؟

- بيتاً . . وشمساً . . وحريةً . . وهواءً

- ماذا تقولينَ؟

- إنِّي أُحبُّكِ . .

- سيَّانَ

فالحبُّ . . والموتُ . . وجهانٌ للتَّجربةِ

وإنَّ قلتُ : لا . .

قلتُ في الحبِّ موتٌ . . وفي الموتِ حبٌّ

وما بيننا قبلةٌ . .

وما بيننا قصةٌ أحرقتُ نفسها بينَ خوفينِ . . ثمَّ استراحتُ على

عرشِ أحزانها . .

وبكتُ ندماً . . وتستكتبُ الآنَ فوقَ الجدارِ

الأزاملُ . . بعضَ التفاصيلِ . . ثمَّ تنامُ . . وقد هدَّها تعبُ

القافلة . .

تُرى ما الذي يتمزَّقُ في سقفِ جمجمتي؟

وطن؟

أم ترى هونسغُ الفراشة في عتمة الشرنقة . .
ترجلُ من الحزن . . يا سيدي الحزنُ وأطلق سراحَ الدموعِ وربّتْ
على كتفي . . إنني أرتدي كفني . . واعترف لي بأنك أنتَ
رصيدي الذي ظلَّ قيدَ التداولِ في ساحةِ القلبِ . . والعمر
مُدَّ علمتني القراءةَ مكتبةَ الرملِ . . مذْ صادرتني الطحالبُ قبلَ
بلوغي سرِّ النحاسِ

وبوابةِ الماءِ . . مُدَّ أرهقني ملاحقةُ الرعبِ للصمتِ . .
والزنبقِ البلديُّ . . ومُدَّ صارَ كتفي يوازي العتابا . .
وأسوارَ عكا . . وأغصانَ خرّوبةِ السهلِ . .
مُدَّ ملأتني التقاويمُ بالصبرِ . . والمرِّ . . والأغنياتُ . .
تعرفتُ من قبلُ وجهك في وجهةِ الشعرِ . . كانت قصيدتنا دائماً
من جريدِ النخلِ
وأشريعةِ النهرِ . . كُنّا على طرفي قوسها توأمًا وأنيبًا يلوونُ تفاحةً
كالبلادِ ،

ويمنحُها نكهةً من دمٍ . . وسباتُ

تباركت يا سيدي . .

مهرتي فرحٌ . . فترفّقْ بها . .

واتنُدْ قبلَ ملعبها . .

وتحوّلْ إلى زمنِ خارجِ السنبلَةِ

مهرتي غزلٌ . . واشتعالُ البحيراتِ في الموسمِ البكرِ

قل مهرتي قبلةً . . . وصباح
فغادرُ مداها إلى حالة الاختفاء
وغادرُ جدائلها . . . أيُّها الحزنُ . .
إني أحملك الآنَ عبءَ الإقامةِ في الروحِ . .
فاحملُ بقاياي . . وارحلْ إلى جزري . . وابتسمْ لي إذا جاءكَ
الشعرُ
واكتبْ سلاماً . . إليها
سلاماً . . وحباً أعلِّقهُ تحتَ قلبي
وانتظرِ الجلجلةُ . . .

- لماذا . . لماذا ؟
- لأنِّي أرى الأمرَ مختلفاً
- كيف ؟
- أسألهُ . . فيجيبُ
- بماذا . . ؟
- بخافية لا يراها سواه . .
ولا تتجملُّ بالضوءِ . . أو بالتعازي
ولا تقبلُ الأسئلةَ
- أحذرُ من خائفٍ يرتديكَ
ومن سحبٍ لا تريكُ الطريقَ إلى جوهرِ المرحلةِ . .
- أحاولُ أن أتبيِّنَ خيطَ المسافةِ بينَ النخيلِ . . وبينَ الصفيحِ . .

فينشرُ بيّني وبينَ الرسائلِ في أولِ العمرِ وقعَ الكتاباتِ أضرحةً . .
وسفوحاً رماديةً . . وخيولاً تراوحُ حيناً . . وحيناً تغمَسُ أعرافها
في دمي . .

وتعودُ إلى قريتي في ثيابِ الحدادِ

أحبُّك . . لكنني ورقٌ . . واغترابُ
أحبُّك . . لكنني متعبٌ . . وعصيٌّ على الفرحِ الخُلبيِّ
أحبُّك . . فاختصري وجعَ العمرِ في شجرِ البحرِ . .
واحتكمي للعلاماتِ في الطرقِ الجبليةِ . .
واحتكمي للشواهدِ . . والآسِ . . والغيشِ المعدنيِّ
تصارحُ عينيكِ . . كيفَ . . لماذا؟ يظلُّ حزيناً شذى البرتقالِ
وماذا تخبئُ أقمشةُ العيدِ
ماذا يكونُ التوقُّعُ . . والاحتمالُ

بعيدينِ نبقى

قريينِ نبقى

وينحسبُ الشفقُ البرتقاليُّ فوقَ القبابِ الرتيبةِ
ياخذنا في الشحوبِ النقيِّ إلى الليلِ . . يأخذنا في اتجاهينِ
يجمعنا بينَ . . بينِ
يبعثنا مرّةً في الدخانِ
يرافقنا مرّةً في الجبالِ

وأُخْرَى يَعْلَقْنَا فِي مِرَاثِي مَبْكِرَةً . . أَوْ سَمَاءٍ حَدِيدِيَّةٍ . . وَسُؤَالُ
 أَقَايِضِكَ الْآنَ شَبَابَةً بَغْزَالُ
 وَأَعْطَيْكَ مِنْ ذَهَبِ الْقَلْبِ بَارِقَةً . . وَرَغِيْفًا . . وَكَأْسًا مِنْ
 الْخَمْرِ . .
 زُوَادَةً لَطْرِيْقٍ مَقْطَعَةً بِالسَّكَائِيْنَ . .
 فَاتَنْظِرِي كِي أَوْدَعَ مِنْكَ يَدًا
 أَوْ قَمِيصًا وَأَمْنَحُكَ الْآنَ صَمْتِي . . وَصِرَّةَ ذِكْرِي . . وَقَبْلَةَ
 أَطْلِي قَبِيْلَ أَنْشَطَارِ الْخَلَايَا عَلَى الزَّمَنِ الْمَتَوَسِّطِ ، وَالْغَضَبِ الْمَتَوَسِّطِ
 وَالْجَسَدِ الْمَتَوَسِّطِ بَيْنَ الرَّحِيْلِ . . وَبَيْنَ الْإِيَابِ . .
 أَطْلِي . .
 فَشَبَّاكُنَا مَقْلَةً لَا تَنَامُ . .
 وَتَلْقِي إِلَيْكَ بِشَالٍ . . وَأَشْرَعَةً . . وَهَلَالٍ . . وَرَمَانَةً تَتَفَجَّرُ بَيْنَ
 يَدَيْكَ فِضَاءً . .
 وَسَرَبَ حَمَامٍ . .
 سَأَنْتَظِرُ الْآنَ أَغْنِيَتِي فِي الْجَزِيْرَةِ . . وَالْوَقْتُ يُشْهَدُ أَنِّي أَجْمَعُهَا
 حَبَّةً حَبَّةً . .
 وَتَغَادِرُنِي حَبَّةً حَبَّةً . . ثُمَّ أَطْلِبُهَا لَاهْتًا . . فَتَغِيْبُ
 وَأَصْرُخُ مِنْ صَوْتِهَا . . أَتَدَاخُلُ فِي الصَّخْرِ ، وَالْمَوْجِ ، وَالسَّنْدِيَانِ
 وَأَشْعُرُ أَنَّ الْجَزِيْرَةَ فَارِغَةٌ . . فَأَخَافُ قَلِيْلًا . . وَأَمْشِي أَسَاوِرُ
 أَصْدَافِهَا . . وَأَدْنِدُنُ بِأَسْمِكِ . . أَرْتَعِشُ الْآنَ فِي الرِّيْحِ أَشْعَلُ
 نَارًا . .

وأبدأُ من جذعِ زيتونةٍ في المسيرِ . . ولكنَّ دربُ الجزيرةِ يوصلُ
للبحرِ . .

والبحرُ متصلٌ بالنهاياتِ . . بينهما الأزرقُ المترامي . .

وبينهما عتمةٌ ورمادٌ . . ولا سفنٌ في الموانئِ . .

لا وجهَ للاتجاهِ الذي أبتغيه ولا صوتَ ينبئُ بالوقتِ . . أو
بالأمني . .

تلقتُ . . حولي تحترقُ المكتباتُ ، وشاهدةُ العصرِ ، والغابةُ
الحجريةُ . .

كانتَ فلسطينُ ماثلةً في السهادِ المعتقِ . . بالدمِ . . والعشقِ
والعلمِ العربيُّ ينظفُ ألوانه في الدموعِ . . فأدركتُ أنكِ مسرعةٌ
في التَّواري عن المشهدِ المتنامي على أفقِ يتمحورُ في بؤرةِ القلبِ ،
مُنتشرةً في الشرايينِ حتى النخاعِ الأخيرِ . .

أرى الآنَ أغنيتي في ثيابِ الشجرِ
أراها توزعُ أوراقها بالتساوي على البحرِ . . والنهرِ . . والسهلِ
نحوَ التلالِ . . وعندَ الجبالِ
وتبحثُ عني في ضوءِ منفاي . . لكنها لا تراني . .

هي الآنَ في القلبِ مني
ولكنني جسدٌ في حجرٍ
ولكنني جسدٌ في حجرٍ
ولكنني جسدٌ في حجرٍ .

مرثاةٌ على زجاجِ النافذة

وقفَ الفتى الكهلُ الحزينُ
مطرٌ وقبلتها بنفسحٍ
مطرٌ . . وينفتحُ الفضاءُ . . على الفضاءِ ، وتبتدي طرقُ معقدةً ،
ويتتحرُّ الهواءُ قبيلَ أوردتي فأهوي بين أطرافِ الأصابعِ ،
لعنةُ حجريةٌ وسُدَى . . وطينُ
ليلٌ . . ورائحةٌ . . ولونٌ باردٌ . . وغرابَةٌ والشمعدانُ الأخضرُ . .
الموتى يردُّونَ الحجارةَ ، والترابُ . . ويدخلونَ عظامه يتجوَّلونَ
من النخاعِ إلى ملامحِ
صفحةِ الأجرِّ والسفنِ التي ترسو على قاعِ المحيطِ

وقفَ الفتى
وأدارَ بينَ يديه صورتهُ . . وضاعُ
وقفَ الفتى
نقرٌ على جلدِ الهواءِ . .
وأدارَ بينَ يديه غرْبتهُ . . وقبَّلها . . وحدَّقَ في المياهِ
وفي المرايا . .
وانحنى في الذكرياتِ . . وعادَ ينتظرُ الهدايا . .
فاستراحَ على سريرِ الطمي
فكرَّ أنَّه جسدٌ من الزيتونِ والليلك . .

وفكرَ أَنَّهُ نائمٌ
وفكرَ أَنَّهُ للبحرِ متَّجهٌ . .
وفكرَ أَنَّهُ ضوءٌ يغازلُ كنزَهُ . . ويطيرُ
فكرَ أَنَّهُ عرقٌ من الحجرِ الكريمِ
وظنَّ يداً مثابرةً ستلقفهُ
وفكرَ أَنَّهُ يتعجَّلُ الأحداثَ . . فانتظرِ المسافةَ ، وانتحى ركنًا على
السيفِ المؤجِّلِ . .
فاعتراهُ الخوفُ من زمنٍ يطولُ . . فلامسَ النارَ التي في صلبِ
صخرتهِ وغابُ

وقفَ الفتى . .
لا بيته . . بيتٌ . . ولا من قطعوا قدميه أعداءُ . .
فشدَّ أعمدةً إلى ساقيه . . واعتزمَ الرحيلَ
فشدَّ قامتهِ ، الشراعُ يشدهُ ، الحلمُ المركَّبُ مرَّةً ، ويردُّ عن عينيه
مرحلةً من الفحمِ الممعدَّنِ
ينتمي لمراةِ الشللِ المقيمِ ، يردُّ عن شفثيه ورداً من زجاجِ جارحِ ،
ويصدُّ جائحةً من الرِّقْدِ المعاصرِ والقديمِ . . ويرتدي جسداً من
الفولاذِ ،
والشعرِ الجميلِ . .
ومشى الفتى الكهلُ المشجَّرُ بالحنينِ
وقفَ الفتى . . تجتازهُ الساعاتُ ، والسُّحبُ الثقيلةُ ، والغبارُ ،

وضجَّةُ المدنِ الكبيرةِ
والسنونو، .. والعواصفُ، والدخانُ، وفيضُ أسئلةٍ ..
وموسيقى ..
وموتُ أبيضُ القسَماتِ .. شمعٌ مطفأٌ .. وجرائدُ الصبحِ
السقيمةُ .. محملٌ متهتكٌ ..
وفحيحٌ أفعى، مشجبٌ .. ودمى .. وأشجارٌ من الشفقِ
النبيلِ ..

وقفَ الفتى ..
يصحو على شفّتيه ، تكوينٌ من الليمونِ ، والدفلى وتَفَّاحٌ ..
وخمرٌ من جرارِ الغيبِ ..
يصحو طائرُ الأصواتِ ، والأصواتُ ، صورةٌ قريّةٌ حبلى ، وصورةٌ
برهة الميلاذ
ألواحٌ من الخشبِ المبللِ ، والمدى .. يصحو على جبلٍ ، وحبٌّ
راعشٌ كجديلةٍ
العذراءُ ، شمسٌ مرّةٌ ، شوقٌ .. وتصحو رغبةُ الإبحارِ للزمنِ
البعيدِ ..
وللنجومِ ..

وقفَ الفتى .. خلعَ المكانَ وصاغَ من قدميه أجنحةً وغنّى
فليكنْ زهري المحنّى

وليكن صوتي المعنى . . للجميلة ماستين وللجميلة قبلتين . .
وللجميلة نخلةٌ وحماتين
أو فليكن تعبُ المنافي والدماءُ . . وجوعٌ روحي والرمالُ . .
وكسرةُ الخبزِ العتيقةِ والعتابا
والمناديلُ الملوَّعةُ القلوبَ وزهرةُ المجدِ المحاصرِ . . والكتابةُ . .
والرسومُ . .
وصدرٌ مدفأتي، وكأسي . . والقميصُ،
وضمَّةُ الأَقلامِ . . والورقُ القصيُّ لها وأروقةُ الحريرِ

وقفَ الفتى . .

الوقتُ فيروزٌ . . وفضةٌ حزنه سيفٌ وفاكهةٌ . . وطيرٌ صامتٌ . .
ويدٌ . . وأسلاكٌ

ونهرٌ سارحٌ وعلامةٌ ما بينَ حاصرتينِ من دمعٍ وليلٍ
ضحكتُ نساءَ الرِّيحِ في وجلٍ . . على رجلٍ يقايضُ رأسه
بالوعدِ،

وانتحرتُ على الشباكِ

امرأةٌ تقاتلُ قلبها بيدينِ من سلٍّ . . ومن لونٍ كسمِّ غامضٍ ينسلُّ
في الأعصابِ . .

وقفَ الفتى

لا شيءَ في الكتبِ الجديدةِ غيرُ صورتنا القديمةِ

وجهين من غسقٍ . . وغارُ
وجهين في الصحراءِ . . والدمِ . . والغبارُ
لا شيءَ ينبىءُ أننا نأتي . . ونخترقُ الحصارُ
لا شيءَ . . يا حنونتي . .
جسدي يكفّنُ بالمحارِ
وبالعصافيرِ الغريبةِ . .
جسدي يُوزَعُ في المرافئِ وجبةً للوحشِ في المدنِ الطريدةِ
جسدي يكابتنني ويعزفُ لي نشيدهِ
يا أيُّها الجسدُ المعمدُ بالحوارِ . .
أبكيك يا جسدي وأرقدُ في جوارك ، فانتبه
إنِّي أطلبك القيامةَ قبلَ موعدها . .
وأحترفُ السكينةَ . .
فاغفرْ لصاحبك الخطيئةَ والخطايا . .
واقترَبْ منِّي . . غفرتُ لك العذابُ
وغفرتُ أنْ دمي يحارِبني . . ويتحلُّ الضغينةُ
وقفَ الفتى . .
وأزاغ عن طرقِ الثريا . . الماءَ . . والزيتِ الملبَّدِ . . والعناكبِ . .
والسهادِ
ومضى إلى شأنٍ وفكرٍ برهه . .
هل يرتدي صدرًا المغامرةِ الخطيرةِ . . أم يناورُ في الدوّارِ ، وينحني

بعضاً من الزمنِ الرديءِ . . رأى بأنَّ مصيره في الحاليتين دُمٌّ . .
ومشقةٌ . . فأدركَ بينَ منعطفِ البيادرِ
والجماجمِ ، والحناجرِ أنَّه لا بدَّ من ضوءٍ يقيسُ به الخطى ، فتناولَ
الجسدَ المسجى
في ظلالِ البرتقالِ
وأضاءَ في غبشِ العيونِ . . وفي البلادِ
وأعدَّ من قلبينِ مكحلتينِ للعشاقِ
شدَّ ربابهً من مشهدِ الأسماءِ . .

شردَ الفتى . . فأحيطَ بالكلماتِ . .
أفلتَ لحظةً وهوى إلى زمنِ الحجارةِ والظلامِ ، تناوبته معاصرُ
اللحمِ الطريِّ
وأُمَّهُ انقلبتْ إلى فكٍّ يبعثرُ ذكرياتِ الطفلِ ، يطحنها كحلوى العيدِ
في شبقٍ ،
فيصرخُ صوته في القاعِ . .
يا قلبي الذي يغتاله الوطواطُ
هل مرَّتْ به ندابةُ الأسفارِ . . أم عصفتْ به ريحُ بلونِ الليلِ
والأخبارِ فامتدَّ الفتى كالموتِ . .
يا أمَّ الفتى لا تندهي الغيابَ . . أو لا تندهي أحداً ،
فتحتُ ملاءتي خيالةً ويعلقُ الأطفالُ
آثارِي على سقْفِ . . وفوقِ جدارِ

وقفَ الفتى

نُجْمَانِ يَغْتَسِلَانِ بِالْمَطَرِ الشَّجِيِّ ، وَبِالْأَنْبِيَنِ

نُجْمَانِ مِنْ تَعَبِ الْقَصِيدَةِ

يَنْسَجَانِ عِبَاءَةً مِنْ يَاسْمِينِ شَاحِبٍ ، وَنَدَىٍّ . . وَظِلِّ بَحِيرَةٍ
خَضْرَاءٍ . .

يَحْتَرِفَانِ صَمْتًا مَزْمِنًا وَمَسَافَةً لَا تَنْتَهِي ، وَيَلْمَلِمَانِ عِظَامَ أَغْنِيَةٍ
مِنَ الْوُدْيَانِ . .

وَالصَّحْرَاءَ وَالْقَهْوَةَ

نُجْمَانِ يَخْتَلِجَانِ فِي الرَّحْلَةِ . .

نُجْمَانِ جَوَابَانَ مِنْ مَنْفَى إِلَى مَنْفَى

نُجْمَانِ بَيْنَ الْقَوْسِ . . وَالطَّلَقَاتِ . .

بَيْنَ الزَّبَقِ الدَّمَوِيِّ . . وَالْفَسْفُورِ . . وَالرَّايَاتِ

نُجْمَانِ مِنْ زَغَبِ الْفَرَاشِ

نُجْمَانِ يَحْتَرِقَانِ فِي قِبْلَةٍ . .

وقفَ الفتى

لَا تَسْأَلِيهِ عَنِ اتِّجَاهِ الرِّيحِ . . وَالغُرَبَاءِ وَالْقَتْلَى

لَا تَسْأَلِيهِ عَنِ احْتِضَارِ الْعَشْبِ . . وَالنَّسْمَةِ

لَا تَسْأَلِيهِ عَنِ الْمَعَارِكِ وَالصَّدَى

أَوْ تَسْأَلِيهِ عَنِ الرَّمَادِ

جَرَسٌ يَتَابَعُ ظِلَّهُ . . فَيَرَفُ فِي وَهْنٍ وَيَسْقُطُ فِي الْهَوَاءِ

غصناً من الزبد المعرّي . . يستطيلُ على الشواطئ والجبال
ويرتدي صوتَ البحار . . مغازلاً قَمَمَ المساءِ
ويشتري ذهباً بوهمٍ
يشتري مدناً بسهمٍ
وهو يزرعُ في البراري جثَّةً . . ومحارةً جلياً برغوتها . . ويحتلُّ
القبابُ
الموتُ أصفراً . . والطفولةُ . . والوباءُ
وخريطتي خطرٌ . . وشارعها يضيقُ
بين الطفولةِ . .
والطريقِ
والموتِ مزولةً تُورِّخُ صفحةً لحبيبتني عني . . فأبكيها . .
وأنتحري . .
وأذكرُ أنني لوَّحتُ قبلَ رحيلها خلفَ المراكبِ والضبابِ
ردتْ يدي . .
ففردتُ أوردتي على سقْفِ الهباءِ
وقفَ الفتى . .
مرجٌ من الخرزِ الملوّنِ . . والمشاعلِ في طفولته . . وحلوى
مرجٌ من التبغِ المذهبِ . . والحقولِ
خيلٌ . . وأوديةٌ . . ودورٌ

وقفَ الفتى . .

لا شيءَ يَخترقُ الظلامَ سوى القبورِ
لا شيءَ . . وانكفأ الفتى الكهلُ المتأخماً للسماءِ . . وللحقولِ
قمرٌ على كتفيه . . مخزونٌ ومثقلٌ
قمرٌ عصيُّ الدمعِ . . مبسمٌ . . وحنظلٌ

صرخَ الفتى . .

يا أيُّها العطشُ المؤلِّفُ من عيونِ حبيبتِي
وظفولةِ الصحراءِ . . والأسرى . . ومن تنكِ المخيمِ
قمرِي يمرُّ ضوءُه بدمي . . ويمضي

وقفَ الفتى الكهلُ المكلَّلُ . . واتكأ . .

ثلجٌ ونافذةٌ على شمسٍ بعيدةٍ . .
ورصاصةٌ في الفجرِ . . أغنيةٌ . . وصمتٌ . .

موسمُ الصعودِ إلى الفجر

(إلى فجر - طفلتي المولودة العام (1965) - في هجرتها الأخيرة)

لفجرِ التي تغتربُ . .
وفجرِ التي تقتربُ . .
وفجرِ التي سوفَ تأتي إلى دمها . . من دمي . .
أو لفجرِ التي بعثرتها الشظايا . . كما بعثرتني . .
وفجرِ التي لملتتها البقايا . . وما لملتني . .
وفجرِ التي تستحيل طيوراً من البرقِ عبرَ الشرايينِ
من برهةِ القتلِ . . حتى انفجارِ الحكايا . .
- يا يمةً . . ويا يابا . . يا يمةً . . ويا يابُ . .

هنا شجرٌ للكتابة
ورمانةٌ للعتابا . .
وجيشٌ من الحزن . . والشمسُ تعبرُ قوسَ الربابة
ويعبرني صارخاً في البراري البعيدة
- يمةً . . ويا يابا . . يا يمةً . . ويا يابُ

أُغني لفجرِ التي تبتعدُ . .
وأرسمُ أسئلتي . . وأنادي على زعتري الجبليِّ
وطيري العصي . .

وأكتبُ في دفترِ القلبِ . . وجهَ صَفْدٍ . .
وأجدلُ من شوقِ أُمي . . وشوقي إليها حبلاً
وأبني جبلاً . . وغيماً . .
وأمشي على الماءِ . . والجمْرِ . . أمشي . .
وأسقي ظمأَ العَصافيرِ
أسألها : أينَ عصفورتِي
ما الذي سوفَ يبقى سوى دمها . . واصلتُ هجرةً
أوجفتُ . . . ما الذي يبقى لنا . .
أوغلتُ في السدى . . أو سرتُ في الورقُ ؟
يايِّمةَ ويا ياباً . . يايِّمةَ . . ويا يابُ . .

وبالرغمِ من صدأِ الوردِ . . والخنجرةُ
لفجرِ . . الغناءِ
لفجرِ التي تأخذُ الآنَ أشياءها . . وتعودُ مساءً . .
وتسرعُ قهوتها في الطريقِ
وتشربُ بينَ الثيابِ . . وبينَ الحريقِ
وتلقي إلينا مواويلها . .
ثمَّ تُشرعُ قامتها في المرافئِ . . من مرفأٍ في الوقائعِ . . أو مرفأٍ في
الذرائعِ
حتى ارتدادِ المدافعِ . . تُشرعُ من إصبعها نشيدَ اليتامى . .
وتعلنُ . . لا . . ثمَّ تدخلُ في فورةِ السنبلةِ . .

وتوغلُ في الوقتِ . . والوقتُ يصعدُ في النارِ . . والدارِ
يصعدُ من جنباتِ الغبارِ
ويكتبُ : إن فلسطينَ تجتازُ محتتها في الركامِ
وتصعدُ من موجِ أطفالها . .
وهيَ تحملُ أثقالها . .
فتزلزلُ فوقِ السنينِ . . وتعصفُ بالسجنِ . . والقمعِ
والجلجلة . .
يايمةٌ وهيَ ويا يابا . . . يايمة . . ويا ياب . .

- ترابٌ . . ودمٌ . .
ثيابي . . وبينني . . وبينك ما سوف يأتي . .
وما سوف يمضي . .
وما سوف يبقى عصياً على الموتِ
بينني . . وبينك . . أنت
وحقلٌ من الرزبِقِ العربيِّ . . الذي سوف يطالعه . . الهمسُ
والقنبلة . .
- هي يايمة . . ويا يابا . . ويايمة . . ويا ياب . .

وسوف يظلُّ الغناءُ
لفجرِ التي حملتني على جرحها . . وانحنتُ بينَ جرحي . .
وبيني

أُعْنِي . . أنا المتعبُ المترامي الغريبُ . . يداً في نخيلٍ من الوهمِ
قلباً يطيرُ إلى الغيمِ . .

عينين مفتوحتين على شفقِ الحزنِ . . مغلقتينِ على الحلمِ
والوقتِ ليلٍ . . وتبعُ . . ونأيٍ . . .

ولا أحدٌ في المرايا . . سوايُ

ولكنني مبصرٌ بين وجهي . . والبحرِ . . إنَّ الدماءَ تقومُ
وتنشرُ في الأفقِ خارطةً . . ودروباً . . وتنشرُ مليونَ قافلةً

ستحاربُ من قبةِ القدسِ . . للنيلِ . . أبصرُ هذا

وأعلنُ من ساحةِ في المخيمِ . . أنَّ الذي كانَ . . كانَ

وأنَّ الذي سوفَ يأتي . . يمدُّ ذراعينِ بينَ المكانِ

وبينَ الزمانِ . . ويأتي على معبرٍ من دماي . .

وأنَّ الذي بينَ كفي . . ومنفائي . . سرُّ . . وفجرُ . .

ودوريةٌ في الحصارِ . . .

وما راوحتُ في الدَّوارِ

- يا يمة . . وهي ويا يابا . . يا يمة . . ويا ياب . .

- هي الريحُ لوَاحَةٌ بالمناديلِ

فوَاحَةٌ بالمواويلِ

أسئلةٌ في الشروقِ الجميلِ

ومكتبةٌ للقراءاتِ في الرَّمْلِ . . بعدَ الرحيلِ

وتأخذُ منِّي أصابعها . . وتمرُّ بشعرِ الجميلةِ . . تختصرُ الشوقَ

في برهةٍ كالوعولِ . . فيفتحُ الأفقُ عن رقصَةٍ وخيولٍ . .

وينفتحُ الوجدُ عنها كرمانة في انفجارِ الدهولِ
- يا يَمَّةَ . . وهي ويا يابا . . ويا يَمَّةَ . . ويا ياب . .

لها الآن . . أنهضُ

أصعدُ . .

أشربُ نخباً سخياً . .

وأمتدُّ بين الحنينِ البكائيِّ . . والوردِ . . والياسمينِ المغنيِّ

لفجرِ التي تأخذُ الآنَ سمّتَ الفراشاتِ . . والشوقِ

تلكَ التي تنهضُ الآنَ بينَ كانَ . . والمسألةُ . .

- يا يَمَّةَ . . وهي ويا يابا . . يا يَمَّةَ . . ويا ياب . .

هو النهريُّ يسترقُ السمعَ من ضفتيه

ويعمضي إلى حيثُ موئلُهُ في أريحا . . أريحا . .

سنصمدُ في الزمنِ الصعبِ . .

نستقبلُ الشعَرَ . . والنبضَ . . بالنبضِ

والعرقَ المتحجراً . . بالدمِ

نستقبلُ الأرضَ بالسيرِ فيها . . إليها . .

وأستقبلُ الآنَ كأسَ النبيذِ المعلقِ بينَ الأصابعِ . . والشفقتينِ

بجرحي الغنائِيِّ . . أشربُ نخبَ الملايينِ في آخرِ الليلِ

من شاطئِ الأطلسيِّ . . وحتىِ أريحا . . أريحا . . أريحا

- يا يَمَّةَ . . ويا يابا . . ويا يَمَّةَ . . ويا ياب . .

لها الآن نـصعدُ من نخلة في الأـقاصي
ومن صلـية في الأـمـاسي . .
ومن فرحة في الصـباح الرصاصي
من جرس في الـوريد النحاسي
أو من سـكون المراسي . .
- يا يمة . . ويا يابا . . يا يمة . . ويا ياب . .
لفجر الصُّعود العـصي . . النبيل
أجنحة للربابة . . لي يـيرق . . ودليل . . ولي ما لديها من
الـخـمر . .
والدفء في اللـيلة الباردة . .
ولي غابة من نخيل
وأغمض عيني . . أحلم أن المكان أليف
وأني أنام طويلاً . .
وأصحو على قهوة مرّة في صباح قديم . .
وأقطف من شجر العـمر ورداً . .
وأرشفه في المسافة بين الضفيرة . . والـصدر
بين المدينة . . والبحر
بين السكاكين . . والنحر . .
أضحك من كل قلبي . .
فتضحك . . ثم أبادلها قبلة . . بسلام
- يا يمة . . ويا يابا . . يا يمة . . ويا ياب . .

ويا فجرٌ . . يا صدرَ أمِّي الصغيرةُ
يا غربةَ الماءِ بينِ الندى . . والجزيرة . .
بينَ الحريقِ وبينَ البطولة . .
يا فجرٌ . . إنِّي أناديك . . فابتعدي بينَ قوسين . . واقتربي بينَ
قوسين . .
كوني كما أنتِ أو لا تكوني كما هم يريدون . .
وابتعدي في الأصيلِ لكي تهجمَ الشمسُ . .
أو يشرقَ الدمُ . . كوني . . نكون احتمالاً . . فيقتربُ الموجُ من
شاطئٍ لا يسافرُ خلفَ
الحدود . . ولا يستريحُ إلى الموت . . أو يستجيبُ إلى الخوف . .
يا فجرُ هاتي
ذراعيك . . وارخي المجاذيفَ يفتحُ الآنَ بينَ المراتِ نهرٌ - ليغرقَ
كلَّ الحقائق - تنفتحُ
الآنَ بوابةٌ في الجبال . . لتعلنَ أنَّ الطريقَ إلى القدسِ مفتوحةٌ
بالتقалу . .
- يا يمة . . ويا يابا . . يا يمة . . ويا ياب . .

وتنهمرُ الآنَ أسئلةٌ كالتي تعترينا
هو الآنَ ينحتُ صورته في الجدارِ
ويعضي إلى صورة في الجدارِ
ويعضي إلى صورة في المدارِ

ومتنصف الليل . . وقت المسير . . ووقت الكتابة . .

متنصف الليل بين المدى . . وخريف الكهولة . .

ها إنه الآن يصعدُ نحوك

يصعدُ في غابة . . ساتراً جرحه بيديه

فيمتدُّ . . يمتدُّ . . من أول الماء . . حتى نهاية منفاه

يدخلُ شمسَ الظهيرة . .

يصعدُ . . يصعدُ . . للفجر

يصرخُ في جسد الصمت . . لا ينحني

- آه من يرسلُ الآنَ صحوي إليَّ . . ويمطرني بالدوالي

ويأخذ قلبي إليها . . ويكتبُ لي دمعَةً . . ونشيداً يخيمُ في

الروح . .

من يجرحُ الآنَ صدري . . وينشرُ لي في ثيابي سماءً من العشق . .

من يسحبُ الآنَ مني حدائي . . إلى قريةٍ في الأعالي . . ومن

يقتفي أثري إذ أهاجرُ

من دورةِ النفي . . والقهر . . من ذا الذي يستجيبُ لخارطةٍ من

دمائي . .

ومن يرفعُ الآنَ كفاً ويومئُ للقادمينَ ورائي ؟

لينهضُ إذاً . . أو لينهضُ إذاً

في الصحارى التي تتأكل بين العويل . . وبين التناهي . .

لينهضُ . . لينهضُ . .

فهذا هو الوقتُ يرسمُ أسواره حولنا . . ثم يُلقي بنا في محيط

العلاقاتِ بين البلادِ التي توغلُ الآنَ في الخوفِ . . أو بين تلكِ

التي ترجعُ الآنَ للمكتباتِ . . وتلك التي تستعيدُ
ملامحنا في مخاضِ المفاتيحِ بينَ الصدى . . والرّدى . .
والرمال التي أطلعتُ زهرها في تراويدِ امرأةٍ من دمٍ . . وطيورٍ
من الحجرِ العربيِّ
هُوَ الصوتُ يأتي . . ولا يقبلُ الاعتقالَ أو الموتَ . . يأتي
فيا أيُّها الصوتُ . . يا أيُّها الصوتُ . . اذهبُ قريباً واذهبُ بعيداً
سندهبُ حتى فلسطينَ . . اذهبُ . . وخذني . .
أنا الآنَ قوسٌ . . وسهمٌ . . ورمانةٌ . . وقصائدُ مفعمةٌ ونشيحٌ
من البرتقال . .

- يا يمة . . ويا يابا . . يا يمة . . ويا ياب . .

لسيدةِ الحزنِ خذني . .

وخذني لفجري . .

أنا الفرحُ المتوقِّعُ بينَ الرمادِ . . وبينَ الحدادِ

وبينَ الخطوطِ التي تبدأ الآنَ من برهةٍ في الجمالِ إلى برهةٍ
الاغتيال . .

هنا يسقطُ الليلُ فوقَ المخيمِ قبلَ الأوانِ

ويدخلُ في النومِ طيرٌ حزين . . وطفلٌ جميلٌ . .

ويعبرُ أيلولُ بينَ الأزقةِ

والطقسُ بردٌ . .

ويغلقُ بابٌ . . ونافذةٌ . . لا يردّانِ عن طفلةٍ طلقه

لا . . ولا بلطة . .

إذ هي الآنَ تحلمُ بينَ الغرابةِ . . والدفءِ . .

أَنَّ الطَّفُولَةَ تَحْمَلُ لِي جَمْرَةً . . . وَرَغِيْفًا
 وَتَحْمَلُ لِي سِلَاحًا . . . وَزَهْرًا . . .
 وَتَحْمَلُ لِي ظِلًّا دَالِيَةً . . . وَسِلَالًا
 وَصَيْفًا . . . وَبِحْرًا . . .
 وَفَجْرًا . . .
 وَغَابَةَ أَيْدٍ
 فَأَذْكُرُ أَنِّي تَدَقَّاتُ بِالنَّارِ يَوْمًا . . . وَيَوْمًا بِكَأْسِ نَبِيدٍ . . .
 وَيَوْمًا بِشَالٍ مِنَ الصَّوْفِ - بَرْدٍ - وَأَدْخَلُ فِي رَعِشَةِ الْقَلْبِ . . .
 أَشْعُرُ بِالْدَفِّءِ
 بَعْضًا مِنَ الْوَقْتِ أَكْتُبُ شِعْرًا . . . وَأَشْعَلُ سِيَجَارَتِي وَأَنَا مِ
 هُنَا لَيْسَ لِي حَائِطٌ . . . أَوْ طَرِيقٌ . . .
 وَلَا فِي يَدَيَّ سِوَى الْوَعْدِ . . .
 إِنِّي الْمُقِيمُ . . . وَإِنِّي الْمَغَادِرُ مَا بَيْنَ رَفَّةِ جَفْنٍ . . . وَأُخْرَى وَإِنِّي
 الْمُحَارِبُ . . .
 لَكِنِّي لَسْتُ أُدْرِي . . . إِذَا كَانَ مِنْغَايَ يَقْبَلْنِي . . .
 أَوْ يَرُدُّ دَمِي . . . لَسْتُ أُدْرِي . . .
 سِوَى أَنَّنِي سَوْفَ أُوْغَلُ فِي طَرُقٍ أَوْ صَدُوهَا عَلَيْنَا . . .
 وَأَعْلَنُ أَنَّ الطَّرِيقَ إِلَى قَرِيَّتِي الْعَسَلِيَّةِ لَيْسَتْ تُضَيِّعُ وَإِنِّي أَحَارِبُ
 مِنْ آخِرِ الضُّوْءِ
 حَتَّى مُشَارَفَهَا . . . ثُمَّ إِنِّي أَحَارِبُ مِنْ زَهْرَةٍ فِي الْجَلِيلِ . . . إِلَى
 صَخْرَةٍ فِي الْخَلِيلِ
 إِلَى مَدَنٍ فِي أَقَاصِي السَّجُونِ . . . وَمِنْ وَطْنِي الْمَشْرِقِيِّ

إلى وطني المغربي . . .
 وعن برهة سوف تأتي محمّلةً بالرين . . وفوّارةً بالحنين
 أغني لك الآن يا فجر . . .
 إن تسأليني . . أجيبك
 أو تقبّليني . . أصلي
 وأرفع عيني نحوك . . .
 أسألك الآن أن تشريني على رثيتك . . وحيداً مجيداً . . كبيرق
 أمي الحزين . . .
 أنا مجدك الجبليُّ المحاربُ حتى فلسطين . . .
 إنني أسميك . . فارسةً
 فانهضي مرةً حيث أنت . . .
 وأخرى إليك
 وكوني كما أنت في الصبر . . كوني . . سننهض . . .
 - يا يمة . . ويا يابا . . يا يمة . . ويا ياب . . .
 وها إنني أستميحك عذراً بأن تقرئي ورقّي الباليّ وقلبي . . .
 وشيبي . . .
 وأن ترتدي فوق كتفيك أوسمةً من جبال
 وأن ترفعي في يديك المفاتيح
 وأن تومئي للرجال . . الرجال . . .
 - يا يمة . . ويا يابا . . يا يمة . . ويا ياب . .

(الأول من كانون الثاني - 1986)

دَمِي .. نَخِيلٌ ..
لِلنَّخِيلِ

العُودِيسَا

(إلى سهيلة زوجتي ورفيقة دربي)

(1)

عائِدٌ من مساءِ الحروبِ . .
ومن نجمةٍ في شمالِ الغروبِ . .
ومن جمرةٍ في رمادِ الجنوبِ . .
عائِدٌ من رحيلي . . ومن طرقٍ لا تُؤوبُ . .

*

عموديَّةٌ هي الشمسُ / وظلِّي /
بينما دمي إلى الصقيعِ / درجةً / درجةً /
وواقفٌ هو المكانُ /
وفي عقاربِ الساعاتِ / تحملني الرياحُ / أرحلُ وحدي /
القرى في جسدي / والمدنُ المدمرةُ التي لم تتبعُ أنبياءَها /
وبعيدةٌ هي الآلهةُ / بعيدةٌ هي نجمتي . . والحنينُ قهوةٌ / ونبيذُ /
ورائحةُ تاريخٍ . . وجغرافيا . . ووحيدونَ همُ الأنبياءُ . . /
وغرباءُ . . /
عائِدٌ والدروبُ موزعةٌ والرؤى . .
والمدى متعبٌ . . والصدى . .
موغلٌ في الردى . .

والحجارةُ ماطرةٌ ويدي أبدعتُ قمراً من قذيفتها . . أو . .
ومن خمرة الظل . .
من وجعِ الطل . . قبلَ السقوطِ على العشبِ . .
قبلَ الصعودِ إلى الغيمِ . .
من برزخِ بين . . بينَ
ومن خيمةِ كالجناحِ الكسير . .
ومن حقلِ أسئلة . . وجوابِ أصيلٍ
عائدٌ ويدي وردة . .
ودم . .
ونخيل . .
عائدٌ في الصهيل . .

*

ويتبعني الغبارُ الدائمُ / غريباً / ومنتشراً كأجنحتي
الرصاصية / كالطرقِ العديدة / ضائعاً / ومختلفاً / كالطرقِ
الوعرة / منتشراً من أوّلِ الماء / إلى آخرِ اليابسة / إلى
البيارقِ المحترقة في القلبِ حيثُ يذهبُ الغبارُ / والدمُ الذي
يفجّرُ الصورَ الصاعقة / والنواعيرَ /
وحدهُ الغبارُ منّي / والرحيلُ / ومخلفاتُ القتلى / ولا أعرفُ
الجهاتُ / .

*

طافحٌ وشتاءٌ يجسدني . .
 وبعيدٌ أنا في مدارِ الجزائرِ . . معتقلٌ في أظافرها . .
 ورقٌ في مصارفها . . أو ذهبٌ . .
 فضةٌ أو حطبٌ . .
 بينما قمري في وليمتهم . . والمساء دمي . .
 أو من الماءِ سُورته . .
 وصغيري يبعثرُ جمرةً . . ويرى . .
 أنَّ مَنْ يعثونَ بخبزي . . وخمري . . لصوصٌ . .
 وأيديهم جربٌ . . وحديدٌ . .
 وأعينهم من صديد . .
 يرى أنني مغرقٌ في البعيد . . وملتجئٌ للبعيد . .
 فيلجأ للصخر . .
 والبحر
 والرمل . .
 يرى أنني في مغرقٍ في البعيد . . وأضربُ في التيه . .
 مرتحلاً حولَ روعي . . وأعمى . .
 ولا صوت . .
 - صمتٌ - سوى صورتي في مداخلِ بيتي . .
 تمرُّ سريعاً . . وتخبو . . وتشرق . .
 في شجرٍ من حريق . .
 أرى ولدي يستديرٌ إلى حكمة

فيناورهم . .
ثم يأتي إلى الناس . .
يرمي لهم قلبه . . وأساه . . وأغنية . .
ثم يمضي إلى البحر . .
يفتح فيه حواراً . .
يُعبئه البحر بالموج . . أو بالنشيج . .
فيهدر في وجه من يولون . . على قمري . .
ثم يبحر نحوي . .
أنا في الجزيرة يا ولدي . . آه . . يا ولدي . .
صرخت أمه «وردي» آه . . يا ولدي . .

*

القصف وحده يعرفها . . / وطقوس القتل . . /
في القرى / والمخيمات / ومدارس الأطفال
المقاومة /
الطرق أبداً مغلقة /
وأبداً مفتوحة بالمنجنيقات الصغيرة /
والمنشورات . . /
وجسدي عائد في موكبه / إلى المنحنية
على نولها / وحجارتها /
ولدها الوحيد محاصر في المداخل / والممرات

الصعبة / بينكم / وما هو بينكم /
 منكم هو / وليس معكم /
 محاصرٌ بالأبيض / والأسود / في غيابِ
 قوسِ قزحٍ / وحضورِ كوفيةٍ / وصفائرٍ /
 حلمٌ طالعٌ من فوهةٍ بندقيةٍ صدئةٍ / .
 ومن فوهةٍ بندقيةٍ جديدةٍ /
 ومن حجرِ صوانٍ / لم يجمِّلُ نفسه أمامَ مرآةٍ /
 وأتيكِ يا ولدي . . فانتصبُ في دمي . .
 انقسمَ الجيشُ . . والناسُ . . واقتتلوا . .
 انكفأتُ مدنٌ خلفَ ردتِّها . .
 مدنٌ أخلفتُ وعدِّها . .
 فانتشرتُ وحيداً ومنكسراً . .
 عائداً في مدى الماءِ والدمِ والبحرِ في داخلي . .
 والصراعُ . . وماساً أصيرُ . . فأُخرجُ . .
 وجهَ الفضاءِ . . وأنهضُ بيني وبينَ السماءِ
 دماءً . . وقصفٌ . . يحاصرني الوحشُ . .
 أنهضُ . .
 أسحبهُ من نواصيه . .
 أغرقه . .
 وأمدُّ ذراعاً إلى الأرضِ تنجدني . .
 فأنامُ في ظلِّ زيتونةٍ . .

لا تخبيُّ أعداءَها . . بينما حلمٌ كالندى . .
ماثلٌ في يقيني . .
فأصحو على صوتِ طيفٍ . . ونخلة . .

*

يطلعُ من أصابعي / ومن لحمي / يطلعُ من قراءةِ سوطٍ /
وكتابةِ حربةٍ / ومن عتمةِ الزنازينِ / يخرجُ / بينَ رصاصتينِ
وقذيفةِ غازٍ / وأسلاكِ مشحونةٍ / تجفُّفُ الدمَ / والدموعَ /
الأنسجةَ / والعلاقاتِ / البشرَ / والأفكارَ / والحنونَ / في
المعتقلاتِ المسيجةِ / والمفتوحةِ على جحيمِ المواسمِ التي تَقْلَعُ
الأطفالَ من أسرَّتِهِمْ صدفةً / وبرصاصِ القنصِ /
ليولدوا مرةً أخرى / كابتسامةٍ / وعزاءٍ /

*

عائدٌ فيك . .
لا سفنٌ في الخليجِ . .
ولا شجرٌ مثمرٌ . .
أو جيوشٌ مجرَّبةٌ . .
أو بلادٌ تلوِّحُ . .
ولا شيءٌ غيرُ الجروحِ على جسدي . .
قريةً . . قريةً . . قريةً . . رايةً . . رايةً . .

والقروحُ . .
ولا شيءَ . . غيرُ رحيلِ سيفضي إلى خيمةٍ . . ورحيلُ . .
فانتبهُ يا فتى . . وانتبهُ . .
فالحصارُ الذي في دروبي توجهَ نحوكَ . .
بالجند . . والكلمات . .
احترسُ في الرماد . . وفي الخبز . .
يا ولدي . . واحترسُ في النبات . .
عائدُ فارفعي نذرنا . .
وانشريه على الساريات . .
جيني وداعُ جديدُ . . يؤدِّي وداعاً قديماً . .
وأدخلُ في هجمة . . وردي . .
خبأتني لعينيك رمانةُ النار . .
في طعمها المرُّ . .
ثم أفرقتنا . . وقلتُ سأصطادُ قلبي في المرة القادمة . .

*

في الرماد الذي خلفهُ القصفُ / أعودُ . .
مخلفاً ورائي السعداءَ في الحاناتِ / والفنادقِ
السياحية من أغاديرَ / إلى طابا / إلى لبنانَ /
إلى المقاصفِ المؤسسة على الحجارة الحضارية
وألواحِ الرُّقْمِ الآجريةِ / والأعمدة التي تنامُ /

أو تموت واقفةً وسط الصحارى / والقلاعِ العامرةِ بالمجدِ القديمِ

*

جرسٌ في الفضاءِ على موعدي . . ورياحٍ على جسدي . .
وأضيء . .

إنني الآن أرفعُ فأسِي / وأهوي على شجرٍ يابسٍ . .
وأشدُّ القلوعَ إلى نجمتي . .
مدركاً أنها القارعةُ . .

*

المستنقعُ ممتدُّ / والمساءاتُ الرياضيةُ / وعباءاتُ
الطحالبِ / والرمادُ / الرمادُ / الرمادُ . .

*

الذي خلفَ القصفُ
والعسفُ
إنني أرى طالعي . . في إناءٍ من الدمِ والزيتِ . .
في الرقصِ والموتِ . .
في خطوتي . . عائدٌ . . في غيابي الأليمِ . .
عائدٌ في صباحِ الترابِ الحميمِ . .
ولستُ بُميتٍ . . ولا مستحيلٌ . .

ولا أنتَ راوحتَ بينَ الرِّحيلِ . . وبينَ الرِّحيلِ . .
عائدٌ . . ولدي الآنَ في عرقِ الضوءِ . .
يركضُ في صحوةِ الشمسِ . .
هاجسةٌ كحنينِ السهولِ إلى الغيمِ في القحطِ . .
أو كجنونِ الصحارى لوهمِ من الظلِّ . . والماءِ . .
أو كإشعالِ الدهولِ قبيلَ اليقينِ . .
عائدٌ . . ولدي كأنفجارِ الخيولِ . .
عائدٌ في الصخورِ . .

*

وننتظرُ كلَّ على حافة /
أنتَ تطرِّزينِ ثوبكِ الفلستينيَّ /
وأنا أغنيُّ /
وعلى قلبي تصحو الكتبُ الثلاثةُ /
كتابُ النيلِ / وكتابُ البحرِ والأرضِ / وكتابُ الحروبِ
القادمةِ . . /
وأنتِ الفاتحةُ للنيلِ / والبحرِ / والأرضِ / والحروبِ /
لم يندبُ أيُّ منا الآخرُ /
ولكم يرسلهُ بالمراثي / أو يعدُّ للحدادِ ثيابهُ /
وجلدُهُ / ملامحُه / وأغانيه / والعصافيرُ /
تجهشِنُ فتجهشُ الجبالُ /

والسهولُ /
والأنهارُ /
والبيوتُ الصغيرةُ
والمخيمَاتُ
والأزقةُ
وأطفالُ الفقراءِ / والحجارةُ الغنيةُ بالينابيعِ / والمناجمِ /
يجهشُ العشبُ / والشجرُ . .

*

أرى مطراً . .
وأرى طرقاً . .
وأرى شجراً . .
وأرى غيمةً خبأت رعدَهَا . .
وأرى . .
أنَّ موتاً يُحمَلُ موتاهُ فوقَ الجمالِ الصبورةِ . .
يمضي إلى مشهدٍ لا يجيء . .
ويمضي إلى زمنٍ لا يمضي . .
ويدخلُ في الموتِ دونَ وداعٍ . .
يراوغُ بعضاً من الوقتِ . .
لكنَّه يتوارى على صفحة من سماءٍ
تؤدِّي له طقسها . .

ثم تفتحُ كهفًا بلا ذاكرةً . .

*

وأناديكَ /

أنتِ بينَ خيطِ الحريرِ / والإبرةِ / والصبيِّ
الواقفِ ظهرًا إلى البحرِ / وصدراً إلى الرشاشاتِ /
أطلقني إذاً أغنيتينِ /

واحدةً بأجنحةِ فراشةٍ / أُخرى بأجنحةِ قلبٍ /
أردُّ لكِ صوتي في المسافةِ /

*

وأدعوكِ ناظرتي . .

وأسميَ الرحيلَ إياباً

أسميَ الدروبَ عتاباً . .

وموتي ذهاباً . .

أعدِّي لي الشمعَ . . والمائدةَ . .

فلي من يديكِ عشائي الذي لن يكون الأخيرَ . .

*

وأربعونَ مسافةً هيَ الفاصلةُ بينَ عاشقينِ /

أربعونَ من أمراءِ الحربِ /

بينَ العقدةِ الأولى / والمرفأُ /
بينَ الحجارةِ / والأهدافُ /
أربعونَ يحتشدونَ في ذاكرةِ الحجرِ /
في الوطنِ المشغولِ بعدَ الأيامِ /
والقتلى / والجرحى / والمعتقلينُ /
أربعونُ / ..
والعلمُ الفلسطيني لا يترجّل من فضائه / أو من الزنازينُ /
وينفتحُ المشهدُ على حمامة بيكاسو /
في الملصقِ النازفِ دماً /
وشقائقُ /
وركاماً في المدى المُجدي للجرفاتُ /

*

بأيِّ الحكاياتِ أبدأ ..
أو أنتهي ..
عائدٌ من مرايا الخديعة ..
من دفترِ الوجد ..
من قمرِ الرعد ..
من رؤيةِ الوعد ..
من خبرِ عمّمته الإذاعاتُ عن مقتلي .. في كتابِ الرحيل ..
تري أيقظتني القنابلُ ..

أم صحوة الموت . .
متصل الروح . . مرتعشاً تحت صمت الكواكب . .
والماء . .
والبرتقال . .
عائداً . . من خطوط الزوال . .
- استند في عظامي . .
- استندتُ
تراني على لوحة في الجدار . .
على برهة في القفار . .
على موجة من حجارتها . .
أو تراني . .
غريباً كظلي على الباب . .
في فسحة الضوء . .
ظهري إلى زمن موغل في التراب . .
وصدري يحارب من ساحة في الخراب . .
إلى ساحة في اليباب .

(نيسان - 1989)

(2)

واقفٌ في تخومِ الصباحِ . . وزنبقتي في الحدادِ . .
واقفٌ تحتَ سَقفِ الرياحِ . .
وزنبقتي من دمٍ . . ومدادٍ . .
واقفٌ . .
والسماءُ مسافرةٌ من عروقِ المنافي . . إلى وطني المستباحِ . .
واقفٌ . .
والجبالُ ميممةٌ صوبَ قلبي . . البيوتُ . .
المواويلُ . . ليلٌ طويلٌ . .
ونسغُ الينابيعِ . . جيلٌ عصيٌ . .
وموجُ المحيطِ . . شجيُّ الصدى . . والخطى . . والجراحُ
هديرٌ . . يمدُّ هديرًا . .
وأُنصتُ . .
دُوري بنا يا منافي . .
انفري يا شجونَ المرافي . .
سأتيك محترقًا . . أو رمادًا . . سأتي . .
وأشرعةً في الرياحِ . .
ودوري بنا يا رمالَ الفيافي . .
تدورُ الحوادثُ . . والأزمنةُ . .
لينهضَ فيها الرجالُ . .

البواريدُ . . والميجانا . .
 فهل سوف يأخذني الآنَ هذا الدوارُ . .
 إلى الدار . .
 والدار قَفْرٌ . . وجفرا حكايتُها . .
 والسؤالُ . .
 فضاءٌ . ومغلقةٌ . .
 أو شتاءٌ . ومجزرةٌ . .
 أو عراءٌ . .
 وعامرةٌ بالعذاب . . مزنةٌ بالشباب . .
 الدروبُ خرابٌ . .
 وأبارها آسنةٌ . .
 وأذكر أنني توجَّهتُ للبحرِ . . فالبحرُ مني . .
 ويحملني البحرُ . .
 تأخذني خيله - آه - تشرعُ أعرافُها في دمي . .
 والصهيلُ . . لهيبٌ . . ويعدو . .
 يسابقني . . حيثُ تمضي النوارسُ . .
 والبحرُ يسرجُ هودجهُ . .
 والمراراتُ هاجمةٌ . .
 واقفٌ . .
 - أيها البحرُ خذني . .
 فإن أتشظى على الغيمِ . .

أو أتلفني على الضيم . .
 لا تتعد . .
 واتئد . .
 أو تشكّل . .
 وحلق بأجنحتي . . أو يدي . .
 وكن صاعقاً . . عاشقاً . . وانفجر . .
 - عاشق يا طيور الردى . .
 عاشق . . في يديه الندى . .
 عاشق . . يا يمام . .
 يا نشيد الغمام . .
 مرّبي مرتين . .
 وأعطني . . قبلتين . .
 مرّة في المساء
 مرّة . . بين . . بين
 فالرحيل . . فضاء المدى . . والرحيل سدى . .

*

بين قلبين تشردّ الحكايات / وتنتشر الليالي كوطاويط الفاجعة/
 ومبعثرة شظايا الصوت في الأروقة الخاوية / والملصقات المتأخّرة/
 وفي المستنقعات الواعدة بالموتى / بين قلبين مجملين باليباس
 الذهبي / هذا الفتى الكامن في ضلال القباب / والأجراد / في

الأقواس / وفي بريق الحراب / هذا الفتى المشدود إلى الساعة ذاتها
/ في المواجهة وتوقعاتها / هو الحجر بين نارين / النار بين
حجرين / ويومين / واحدٌ عليه والآخر له / في التقاويم الجديدة
هذا الفتى المعبأ بالغار / ولدي / والحارسُ أمّه على حافة البحر /
وبين يديها حببتي لا تتعبُ من تطريزِ ثوبها الفلسطيني / أو من
الصبر / وقذائفِ الغاز / وعيونِ القتلة / وآلياتهم /

*

- آه يا سيّدي البحرُ
أو يا أخي .. وحببي ..
ويا ولدي - قف - سأحملك الآن ..
ها إنني فيك .. سيّان ..
بحران من تعب .. ونهوض ..
وبحران من لهب .. وغموض ..
وبحران من جسد الماء .. والصخر .. والشمس ..
والميجانا .. والدمار ..
وبحران من غسق .. واخضرار ..
وبحران .. أغنية .. ردّدتنا ..
- أُحبُّك .. قبل رحيلي ..
وبعد .. أُحبُّك ..
فوّارة بنخيلي ..

وأدعوك أن زغردي لي . .
وأذهبُ نحوك . . كي لا أميلَ
وكي لا تميلي . .
فضمِّي إليكِ اغترابي . .
وضمِّي إليكِ شروقي . .
وُردِّي عليَّ أصيلي . .
فها نحنُ بحرانِ يأتلقان . . ويعتقنان . .
وينفجران على الأفق . .
يستوعبان المسافة بين المראה . . والرملِ
بين الشرارة . . والحملِ . .
والفرق بين الكرامة . . والعار . .
بحران - يا صاحبي - وانتظار . .
وبحران من شجر «الدوم» والأفحوان . .
ومن فرح العائدين إلى البر . .
من لهفة الأرملة . .

*

- ينادي المنادي . .
تردُّ البوادي . .
هو الصوتُ يفضي إلى شجر الأوف . .
يمضي إلى موعدٍ في البلاد التي هدَّها الخوف . .

لا يرتدي زرداً . .
يرتدي معطفَ الوقت . .
لا يتعجَّلُ رُمَانَةً، قبلَ موسمها . .
إذ يُفيءُ إلى نبضها . .
ويشدُّ على خصرها راقصاً . . ويطوفُ . .
وبحران يا صاحبي . .
والعلاقةُ ما بيننا قدرٌ . . ورحيلٌ عن الشطِّ . .
عبرَ رحيلٍ إليه . .
العلاقةُ ما بيننا قدرٌ ممكِنٌ
قدرٌ مستحيلٌ . .
فيا سيِّدي البحرَ . . يا ولدي . .
إن تَبَحَّ . . سأقلُّ
لسوفَ نغادرُ هذا الأفلَ . . إلى مشرقٍ مختلفٍ
وبعدَ الذي كانَ . . سوفَ يجيءُ الذي لا يقفُ . .
فشدَّ ذراعيَّ . .
شدَّ إليكَ غنائي . .
فأيامنا رحلةً . . ستطولُ . .
وها نحنُ في حضرةِ الذاكرة . .
خيولاً من الماء . . والقشِّ . . كانوا . .
ومن معدنِ الظلِّ . .
والوهمِ . .

ثلجٌ . .

وفي وهجِ الشمسِ . . هانوا

*

الخبيبةُ / السقوطُ / الهزيمةُ / الماءُ / الرحيلُ / الرمادُ / العويلُ /
المستنقعاتُ / الحدادُ / الأصيلُ / المنافيُ / المشهدُ / مدنُ بلا
ذاكراتُ / ولا مدنُ / غربةُ / بواباتها المسورةُ بالفولاذِ / والنوافذُ
ذهبُ / وفضةُ / غربةُ نساؤها «البلاستيك» / ورجالها القطعانُ /
غربةُ واجهاتها التي ترفعُ علامةَ الدولارِ / بدلاً من علامةِ النصرِ /
وعلمةَ القهرِ بدلاً من علامةِ الثورة . .

*

والذي بيننا زمنٌ من مرايا الدماء . .

الذي بيننا زمنٌ لا يُرى . . أو يحدُّ . .

الذي بيننا الكلماتُ . .

الذي بيننا . . موتُها . .

ونباحُ الكلابِ . .

رصيفُ الأغاني الرديئةِ . .

والواجهاتُ القميئةُ . .

هذي الصحارى التي خَلَقْتَنَا من القار . .

أو ورثتنا من العار . .

من كَوْنَتْ من عظامِ الأَحْبَةِ . . والأهْلِ . . رملاً
 ومن أَطْلَعَتْ دَوْلًا فِي الفَنَادِقِ . .
 من عَمَّرَتْ فِي الزَّابِعِ أَوْهَامَهَا . .
 بَيْنَمَا طَائِرَاتٌ حَقَائِبُهَا . . سَفْنٌ . .
 وَالْعَوَاصِمُ فِي سَفَرٍ . .
 أَوْ عَلَى سَفَرٍ . . بَيْنَ مُؤْتَمِرِينَ . .
 وَخَارِطِينَ عَلَى وَرَقٍ . .
 وَرَقٌ حُبُّهَا . . حَرْبُهَا . .
 وَرَقٌ . .
 وَخَرِيفٌ مُوَاسِمُهَا شَجَرٌ . . مُحْتَطَبٌ . .
 وَرَقٌ شَعْرُهَا . . نَثْرُهَا . .
 ثُمَّ يَصْدَأُ فِي المَكْتَبَاتِ . . وَفِي القَلْبِ . .
 يَأْكُلُ أَصْحَابُهُ مَرَّةً فِي شَعَابِ المِتَاهَةِ . .
 أُخْرَى عَلَى عَتَمَةِ المَعْتَرِبِ . .
 - وَهَا قَدْ هَبَطْنَا مَعًا - يَا بِلَادِي - . .
 - أَقُولُ : هُوَ اللَّيْلُ
 قَلْتُ : نَرَوْضُ بُكْرًا مِنَ الخَيْلِ
 نَسْتَطْلِعُ الأَرْضَ حَوْلَ الجِبَالِ . .
 وَنَدْعُو الرِّجَالَ . .
 إِلَى بَرَهَةِ سَطَعَتْ . . وَسؤالٌ . .
 فَحَوْصَرْتُ بَيْنَ الصَّدَى . . وَالصَّدَأِ . .

وغابت أناشيدنا . . في الظمَّاء . .
- حزين أنا يا ضفيريته . . وغريب
وزهر الكلام حزين . .
فلا مرفاً للحنين . .
عتابا لناطرة . . وحبیب . .
وكرمي . . لها . . وردة من دمي . . لا تغيب . .

*

كاذب الزيفون / وبخيل / بينما جذوري مجدولة بالسنديان /
والنخيل / والزيتون / والجبال التي لا تنام / كاذبة مواسم الغضب
العابر / وكاذبة الأغاني المفردة كشباك الصيادين / بينما القتلى
حقيقيون / لكنني معتصم بأعمدة الصواري / وصورتها المحفورة
على سفوح القلب / وفي شغاف البيارق / والبحر صاحبي / . .
- أناديك . . يا أيها البحر . . خذني . .

لك الصدر مني . .

ولي منك قبري . . فخذني

قبلك عايشت قهرين . . قهر التراب . . وقهري . .

فخذني لسيدة الضوء . .

خذني لمن سبقوني . . ومن سابقني إلي . .

المسافة عمر يطول . . وعمر يؤول . .

وعمر يضاف إلى الدم . . والماء . . والهيم . . والزيت . .

والنار . . والخبز . . والأوف . .
عمرٌ لسهلي . . وداري . . ونهري . .
يصبُ دماً . . والحصادُ لغيري . .
الغناء . . طيورٌ محرّجةٌ . . وشجرٌ . .
والبكاءُ . . مطرٌ . .
شدّني للخطر . .
ليتني نيزكٌ . . أو حجرٌ
طلقةٌ . . أو شررٌ . .

*

إنّني مبحرٌ بين شيبتي . . وبينني . . دمي في العيونِ الزجاج . .
دمي في العجاج . .
دمي في المصارف . . أو في الشوارع . . والسوق . .
ردّ الصدى . .
- يا دمي . .
- آه . . يا حادي النوق . .
يا وجعاً عتّفته السكاكينُ . . أو عتّفته البروقُ . .

*

حاضرٌ صوتها / حاضرةٌ صورتها / وحيدةٌ / وقصيةٌ حبيبتني /
وأقربُ إليّ من دمي والهواء /

ويا بحرُ أطعمكَ الذكريات . .
وأطعمكَ البرقَ . . والرعدَ . . والضوءَ . . خبزاً
وأعطيكَ صبري . . وخمري . .
وأمنحكَ الآنَ كسرةَ قلبي . .
وأُنصبُ مائدةً من قرابينِ رُوحِي . . وحنيني . .
عتابا لكرَمِ الخليلِ . .
وتينِ الجليلِ . .
عتابا موزعةً بينَ شوقِ الثريّا . .
وطلعِ النخيلِ . .
عتابا لموسمنا المتجددِ قبلَ الإيابِ . .
وبعدَ الرحيلِ . .
عتابا لموكبِ أعراسنا . .
يا عتابا . . لمولدِ دربِ . . وجيلِ . .
إليها الدروبُ التي حوصرتُ . .
والدروبُ التي أغلقتُ . .
والدروبُ التي غيّبتُ . .
والدروبُ التي انفتحتُ . .
والدروبُ التي لا تيينُ . .

أنا دربُها / من أظافري المقتلعة / إلى هواجسي وحنيني / إلى
الشجرِ المقتلعِ الشجرِ المحلّقِ / والشجرِ الواقفِ / الشجرِ العتيقِ /
ومن غرسِ الدوالي / والزعترِ / والعشبِ / إلى الشجرِ العريقِ /

والبراري الطافحة بشقائق نيسانُ / درُبها أنا/ في الطيورِ العائدةِ
على رماحِ الشمسِ / وفي القممِ / وفي تلكَ الأسيرةِ بأقفاصها/
والتي بلاَ أجنحةِ / من ناسِ المخيماتِ / إلى ناسِ الأزقةِ/
والحواريِ / وبيادرِ الخبزِ واليابسِ / إلى القرىِ المزدحمةِ بالملثمينِ/
والزجاجاتِ الحارقةِ / . .

درُبها أنا/ ولا تأخذني الأغاني السحريةُ الخلبيةُّ / ولا تأخذني
اللغاتُ / فأمتدُّ إليها منتشراً / ولا أضيعُ / .

*

- آه . . يا سيّدي البحرُ . . يا جسدي . . أيُّها المتداخلُ في
اليابسة . .
ويا أيُّها الأبيضُ . . الأحمرُ . . المتطرّفُ . .
يا أيُّها البحرُ . .
كنْ عالمي . .
ولتكن أنتَ دربي الذي في الشرايينِ . .
دربَ الملايينِ . .
وغادرِ إهابي . . مني . . إليَّ . . إليها . . خلاصاً . . يقيناً . .
أنا البحرُ . . أو أنتَ . . سيّان . .
لا تنتهي أو نزولُ .

*

ويا بحر أنت الذي تتجدد في البرهة الواحدة . .
وأنت الذي لا تبدد في الموجة الواحدة . .
وأنت الذي أحتويك . . احتويني . .
كلانا يملح أحزانه . .
ويخبئها . .
ثم يخرج عنها . .
ويخرج بعد عليها . .
ليعتصر الأرض في المد . . والجزر . .
حيث يظللان في جسد . . واحد . . وهطول . .
فيا سيدي البحر . . أو يا أخي . . وصديقي . .
أحبك إذ أكره المبحرين إلى الوهم . .
والجث الطافية . .
- شمالاً . . جنوباً . .
وشرقاً . . وغرباً . .
رياح البحار . .
ولؤلؤتي في المحار . .
هنا أغنياتي . . تصاعد نحو القرار . .
وشمسي تمزق موج الغبار . .
فنكتب صورتنا في جبين الفتى . . والنهار . .
وبين يدي أمه . .
وعلى صدرها . . ورؤاها . .

ونمضي إليها معاً - يا صديقي - على الطرقِ العاليةِ . .

*

هو الوقتُ يرهصُ فينا . .

ففرعهُ موجةً . . موجةً . . ونهاراً . .

ونحصدهُ في الليالي . .

ونطرحُ غلَّتَهُ في الدوالي . .

*

وفوقَ حدِّ الحلمِ أشرعُ جبهتي / والألم / أشرعُ ذراعيَّ /

والأعلام / متدفقاً / ومغسولاً بالفرحِ والضوءِ القادمينَ من

المناخاتِ الآتيةُ / بينما عصافيرُ الفرِحِ في بؤرةِ القلبِ / تفرخُ

أعشاشها في العيونِ العاشقةِ / وفي مطارِحِ الأقدامِ العاريةِ /

وذاكرةِ البكاءِ / هو الوقتُ يكشفُ عن وجهه فينا . . / وعناً . . /

كذلكَ تسقطُ الأقنعةُ / . .

على أصابعِ السماسرةِ المحترفةِ / . .

*

واقفٌ لا أراوحُ

في كتفيَّ جراحي . . وأوسمتي . .

البحرُ أسئلتي . .

البحرُ . . . طعمٌ . . . ولونٌ . . . ورائحةٌ . . . ودمٌ في الطريق
إلى السيِّدة . . .

وصغيري المحاصرُ بين الرصاصِ . . .

وبينَ النعاسِ

يوسِّعُ خطوته . . . ومداهُ . . .

ويشعلُ من جرحه . . . ورؤاهُ . . .

يحاصرهمُ مرَّتينِ . . .

مرَّةً في قتالِ الشوارعِ . . .

أخرى بأحلامه . . . والجبالِ . . .

- لكِ المجدُ . . . يا أمَّهُ . . . ولنا . . .

وللبحرِ هيلًا . . .

العتابا سيوفٌ على البرِّ . . .

ظلَّ البكاءُ جميلاً

وللمبحرينِ إلى شطِّها . . . ميجانا . . .

ميجانا . . .

ميجانا . . .

ميجانا . . .

(دمشق - 1989 - 1990)

(3)

لم أكن ميتاً . . غير أنني تشظيتُ . .
في دفثري . .

والرسائلِ . .

والحبِّ

والميجانا

والزمانِ الرديءِ

انتشرتُ . .

وكانت خيولي تنشرُ أعرافها . . وتطيرُ . .
وظلَّت طيوري . . تودِّعُ أفرانها . . وتُغبرُ . .
إن يكنَّ شارعي مقفراً . .
أو يكنُّ برقههم خلباً . .
لي دروبي التي لا تمرُّ بهم . . أو لهم . .
فليكن . .
إنَّهم عابرونُ . .

*

لم يغب وجهها . . لم يغب قلبها . .
حسبها أنَّها مزَّقتُ ثوبها . .
لوَّحتُ بالصفائرِ . . لا للمذلةِ . . والموتِ . .

لا للخراب الكبير . . ولا للهزائم . . لا . .
ونعم للعذاب النييل . . نعم . .
فالتلال صليل . .

*

هي الآن مشرعة الصدر لليل . .
والسيل
والغرباء
ومشرعة للهواء الخضيل . .

*

وهذا سؤال يعتقه الصمت . .
والخوف من سقطة الراجفين . .
المذابح . . والنازلات . .
ويأتي على حذر ماثلاً في الحروف . .
ويأتي . . على هيئة شككتني . .
وقاربت الصمت بالصوت
والحي . . بالميت . .
واللاء . . بالليت . .
يأتي على هيئتي عامراً . . بالقصائد . .
إن السموات تدنو . .

وبوابة الغيم مفعمةً بالقناديل . .

والورد

والنائحات . .

وطافحةً بطقوسِ الموات . .

*

لم أجدُ جسدي . .

قلتُ:

ليست شواطئنا من هباء . . ولسنا . .

وليستُ جبالُ بلادِي . . زيدُ . .

أنا الآن في جوهرِ النخلِ . .

والتين . .

في قامةِ الزيتِ مرتحلُ . .

والغناءُ معي . .

والأسى . .

والسؤالُ المدورُ . .

والنهرُ . .

والقبرَّاتُ . .

وأمي

وجدُّ أبي

والحصي . .

والرواةُ القدامى

القصاصدُ

والشعراءُ

المراثي الشجيةُ

والحظُّ

والشهداءُ . .

معي الذكرياتُ . .

ووجهي يذكّرني . . بالسُّباتُ . .

ويذكّرني عندَ قبوري . .

ويذهبُ في طرقٍ لا تردُّ . .

يذكّرني بالرحيلِ الطويلِ . . يذكّرني في الرفاتِ . .

هو الآنَ وهمُّ بكاءِ . .

ونزفُ نداءِ . .

يحنُّ أزهاره نجمةً . . نجمةً . .

في المسافةِ بينَ الهواءِ . . وبينَ العراءِ . .

دمي الآنَ يوقدُ ناراً لمن سوفَ يأتي . .

ومنُ سوفَ يولدُ من ظهرِ محنته . .

أو بقايا . . البقايا . .

ومنُ وقته المترامي البطيءِ . .

ومنُ لا أحد . .

ويوقدُ شعلتهُ في صباحٍ يرى حدّه في الأبد . .

على الصواري نشرت جسدي / وجهي إلى الشمس وظهري /
هو الغنيُّ قلبي / كهذا الجرح العظيم / وكعينيك يا سيّدي العذبة
المعذبة / إليّ مديّ ذراعيك فالظلمة أفقٌ . .

ويمتدُّ / والغناء الآتي من الشواطئ البعيدة كذبٌ / أما الموتُ الذي
أقاومُ / فهو الجزرُ الطافية كالطحالب / والجثثُ / هذه حالةٌ . .
شجرٌ في الرماد الرمادي . .

والأحمر العربي . .

ويولدُ من سغبٍ في البياض . .
بياضٌ يقابله . .

المشهدُ الآن نصفان

نصفي . . ونصفي . .

نشيجي . . وخوفي . .

وبينهما مشهدان . . الملوحة . . والموتُ . .

بينهما رؤيةٌ . . ورؤى . .

إنّما شجرٌ في حرائقه بين قلبي . . وبينني . .

له مرفآن . . الندامة . . والصوتُ . .

من مدن هشة . .

أو إشاعة حربٍ مكررةٍ في الصدى . .

*

هل أنا الآن محترقٌ؟ أم نسيتُ الطريقَ إلى جسدي . . ؟
هل نسيتُ بأنَّ انكسارَ الشعاعِ عليه . . انكساري . . ؟
وهل . . إنَّ روحيَ مشخنةٌ بجروحي . . ؟
وهل يا بلادي البعيدةُ سوفَ تلاقيني . . ؟
في زمانٍ يجيءُ قبيلَ فواتِ الآوانِ . . ؟
وهل سوفَ - والبحرُ- تلتقيانِ . . وتشتعلانِ . . ؟
أنادي . . عتاباً . .
الحكاياتِ هاجمةً . . والبراري العصيةً . .
قبراً أبي . .

والربابُ

مناحةٌ أهلي . .

وأمِّي . .

هو اجس «بيسان»

أشعارها . .

وركام البيوت . .

الدروب . .

وصوت الذين سيأتون . .

أوجاعُ يافا . .

«الشباري»

البواريدُ

والبرتقالُ

الدوالي ..

وغاباتنا ..

البحر يُغدو محيطاً ..

يجيئك مغتبطاً .. والأغاني ..

تجيءُ إلى لغتي ..

وإليك، تجيءُ ..

وفوق بروجِ المقابر ..

وفوق المنائر تأتي بروق الحطام ..

وتأتي الأماني ..

الشمال أنت / الشرق والغرب / المرتكز والأفق / النهار / والليل /

النهر / والبحر / الأرض / والهواء / الناس / والعذاب / أنت /

فلسطين في الروح / والجسد / في الفصول أنت تقومين / في

الحضور والغياب / أنت لا تموتين / والوعد لا يموت والغراس /

وأذكرُ كنت .. أنك أنت .. وأني أنا الآن أنت ..

وأنت أنا .. أننا من .. ومكان .. وعشق ..

أوزعك الآن خبزاً .. هواءً .. وزيتاً ..

وألقي بظهري إليك ..

كما الحلمُ يسندُ نوماً ..

كما النومُ يسلمُ عيناً إلى الحلم ..

كما الوجدُ يأوي لأعشاشه ..

كالأغاني التي اكتشفتُ طرقاً في الذهابِ إلى الناسِ ..

كالعشب . . أو السكينة
كالعزفٍ مشتعلًا . . في خيوط النحاس . .
من تُرى سيجيبُ السؤالَ . .
هو الحبُّ من أين يأتي . . ؟
أحاولُ . .

أسندتُ رأسي إلى الضوء
ظلَّ المساءُ حميمًا برغمِ الأسي . . والمحالِ . .
أحاولُ . . .

فَتَحَّتْ عيني . . ثمَّ أنحنيتُ . .
انتصبتُ أراقصُ قُليينِ بينَ الرمالِ . . وبينَ الجبالِ . .
عبرنا إلى الماءِ . .

ظلَّ المساءُ حزينًا . . ويحنو على جسدِ الرصاصِ . .
تشطَّيتُ في شجرنا هاض . . وفضاء وأبحرتُ ما بينَ نجمةِ قلبي . .
وأشرعتي . .

واعتصرتُ دُمائي . . على حربةِ الرمحِ . .
فوقَ زنودِ النساءِ . . وتحتَ عيونِ الرجالِ . .
لم أضعُ . . صرتُ هذا المغني . .

الحمامُ على كتفيه . . وبينَ يديه الصقورُ التي لا تنامُ . .
وأعطتهُ من روحها . . فأضاءَ بعينه يومَ الفجيرة . .
ثمَّ أضاءَ على الماءِ . . والراءِ
مرَّةً حصادُ الرحيلِ . .

وَمُرَّةُ حِصَادُ الْغَنَاءِ . .

وَمُرَّةُ حِصَادُ النَّخِيلِ . .

حِصَادُ الذَّهَابِ . .

الْإِيَابِ . .

الْعَتَابَا . .

الْكَتَابَاتِ . .

وَالْمَكْتَبَاتِ . .

الدَّخُولِ . .

الخُرُوجِ . .

الدَّرُوبِ . .

المَرَاقِبِ . .

مُرَّةٌ دَمِي

وَجْهٌ أُمِّي . .

وَأَخْتِي . .

وَأَطْفَالِي اللَّاهِثُونَ مِنَ الْبَيْتِ لِلْجَامِعَةِ . .

وَمُرَّةٌ حِصَادُ الشُّوَارِعِ . . وَالْفَاجِعَةُ . .

*

وَهَذَا دَمٌ مِنْ دَمٍ قَادِمٌ . .

لَا يَسَاوُمُ . .

يَأْتِي إِلَى دَمِهِ . .

ثمَّ يذهبُ من دمه . . . لدمٍ لا يغيبُ . . . ولا ينشي . . .
 لا يموتُ . . . ولا ينطوي . . .
 لا يخافُ . . . ولا ينحني . . .
 ليس ينسى ويحضرُ في وقته . . .
 وهو متصلُ النبعِ . . . من مرفأ في الغمام . . .
 - السماءُ . . . وأنتَ . . . شمسٌ . . . وأرضٌ . . .
 تحطُّ جناحيك في صوتها . . .
 أو تحطُّ عذابك في صمتها . . .
 أنتَ نجمٌ يطيرُ إلى الشعرِ منتشرًا في البراري . . .
 وملتحمًا بالحواري . . .
 على هيئةِ الناسِ أو ورقٍ نافرٍ كجياذِ النحاسِ . . .
 إنَّ يربُّكَ الراجعونَ . . .
 ويحتفلُ الخائفونَ . . .
 ويمضوا بعكسِ اتجاهك . . . لا ترتعشُ . . .
 ولدي . . .
 إنَّهم ذاهبونَ . . .
 السواترُ من ذهبٍ . . . أو غبارٍ . . .
 وليستَ تردُّ الصقورُ . . .
 افترقُ . . . واخترقُ صفهمُ . . .
 ثمَّ رتلُ مع الطيرِ . . . سورةَ صقرٍ قريشٍ . . .
 وصورتها . . .

يوم تحترقان . .
 وتفترقان على جدل في العلاقة بينكما . .
 والمناخ الذي يتألف من همج . . ولصوص . .
 ومن صحف ونصوص . .
 ولوح / شارتك هي السائدة / والزمان
 لك شاسع وفسيح / الزمان بستان
 الصبر / والمكابدة / لا يقف / ولا يتلكأ
 ولا ينتظر / الزمان ملعب الآتين على
 الثوابت / والموروث / والظماً /
 لم أكن صارخاً . . في البراري . . لكنني من تخوم الجنون . .
 أناديك . . يا ولدي . .
 أن تصالح حدسك . .
 أو صبر قوسك . .
 أو صبرك المتألف . . والرعب . .
 ذلك الذي أشعلك . .
 ثم أشعل لنا شارة في الجبال . .
 لتشعل لنا شارة في السهول المديدة . .
 اشعل لنا شارة في المخيم . .
 اشعل لنا شارة في القرى . . والمدائن . .
 اشعل لنا شارة في السجون

*

لم أكنُ حاضراً . .

لم أكنُ غائباً . .

لم أكنُ يومَ مرؤاً . . أضيعُ . .

فقلبي يدقُّ مرارته . . ويجوعُ . .

وأنتِ تغنينَ لحنَ الرجوعِ . .

هيَ الرِّيحُ تُغلقُ كلَّ الممراتِ / تغلقُ قلبي وعينيَّ وفمي بالرمْلِ /

تغلقُ / النوافذَ التي تفتحها القنابلُ / القصفُ / تغلقُ صدري /

تنحتُ فوقه الكوابيسُ / تغلقُ الأقلامَ / والدفاترَ / والكتبَ /

والمنابرَ / هيَ الرِّيحُ / أو الرِّيحُ / أو الرِّيحُ /

رمانةُ القلبِ ناشفةٌ من بكائيةٍ لا تغادرهُ . .

من صباحِ الغيابِ

إلى ليلةِ القتلِ . .

حتى صحارى الركامِ . .

*

- لا يراني أبي . . أو يظنُّ بأنِّي أجيءُ . .

لا يراني أحبةً قلبي . .

يرون ارتحالي القديم . .

تراني التي طرّزتُ قلبها . .

غيرَ أنِّي أشاغلها في التوقعِ . .

أسألها . . أن تردَّ الستائرَ عن شرفتيها . .

فتنهضُ مشغولةً بالحريرِ . . ومشغولةً بالرصاصِ . .
ومشغولةً بالحديدِ . .

ومشغولةً بالعذابِ الوضيءِ المرادفِ للروحِ
والحبِّ

تهجسُ

لا تكونُ الجبالُ على رؤوسها / ولا يكونُ البحرُ سماءً / ولا
السمواتُ بحاراً / أو الطيورُ زواحفَ / ولا السلاحفُ طيوراً /
ولا المرأةُ رجلاً / ولا يكونُ الرجلُ امرأةً / ولا الناسُ قطعان
مواشي / . .

- لا أقولُ سوى ما تقولينَ . . ما قلتُ . . قد علمتني الحروبُ
الهروبَ

الجنازاتُ . . مثقلةٌ بالخطايا . .

ومثقلةٌ بالذنوبِ

فلا تقفي في فراغِ المسافةِ بين الترابِ

وبين الهواءِ . .

دعيها تمرُّ

وهاتي جناحيكِ كيما أحلقَ أبعدَ من موسمِ الموتِ هذا . .
إليكِ . . وأنتِ تردِّينَ عنكِ الذئبَ . .

(دمشق - 1991)

مَغْنَاةٌ إِلَى نَاجِيِ الْعَلِيِّ

لناجيِ العليِّ جسدُ الشجرة . .
لها وردةٌ . . وله طلقتانُ . .
لنا شاطئٌ من جحيمٍ له أوَّلٌ في المنافي . .
وآخرهُ خيمتانُ . .
خيمةٌ في رمادِ الحرائقِ . .
أخرى على الماءِ . .
بينَ البلادِ التي نصبتها . . وبينَ البلادِ التي ضيَّعتها . .
وتُقلعُ من صرختينِ . . إلى صرختينِ . .
إلى صوتِ ناجيِ العليِّ . . والزمانُ

*

وناجيِ العليِّ ضاربٌ بينَ قوسينِ . .
بينَ عدوَّينِ . .
عيناهُ مرسلتانِ إلى قريةٍ كلَّما اقتربتُ . . أبعدوهُ . .
فيمشي إليها ويبدُ الخطأ . . حالماً بالحنانِ . .
بينما يصلونَ . . أحباؤهُ . . يصلونَ
فيومئذٍ أن احملوني . . خذوني إليها . . إلى الشجرة . .
فارساً لا يراودُ مهرتهُ للوقوفِ . .
ولا يرتدي زرداً . .

هنا أمه . . وأبوه . .
من النهر للبحر قال: فلسطين
لكنهم قتلوه . .
وفي الأفق طائره متعب . .
باحث عن مكان له شكل بيت . .
وقنديل زيت . .
فيرسّمه . .
وبه شبه من طريق يعود إلى بدئه . .
وطريق سيذهب من رتيه إلينا . .
ويمشي الهوينى . .
فندرك أن الذي قال: حق . .
وتبعه في حدود الجرائد . .
نتركه في حقول المصائد . .
ننساه ليلاً . . ونعبره في النهار
فتصرخ بين يديه القفار . .
ونصت . . ثم نغيب . . ونلقاه أنى التفتنا . .
وأنى ذهبنا . . نرى دمه سابقاً . . وعنيداً . .
ولسنا هنا . . ثم لسنا هناك . .
ونحن على كتفيه . .
وفي مقلتيه . .
ونحن الذين تركناه يذهب للقتل

كُنَّا هُنَا . . أَوْ هُنَاكَ . .
وَكُنَّا نَعُدُّ بَيَانَاتِنَا . . أَوْ نَهَيْئَهَا لِلْبُكَاءِ . .
وَكُنَّا بَعِيدِينَ . .
فَرَّ الْمَخِيمُ مِنْ بَيْنِنَا غَارِقًا بِالدَّمَاءِ . .
وَنَاجِي الْعَلِيِّ شَاهِدٌ . .
وَالنَّوَاظِدُ مَغْلَقَةٌ دُونَهُ . .
فَيَمُرُّ عَلَى النَّاسِ بَيْتًا . . فَبَيْتًا . .
نَدَاءً . . نَدَاءً . .
وَكُلُّ النَّوَاظِدِ مَغْلَقَةٌ . . وَالسَّمَاءُ . .
أَجَلٌ كَانَ بَيْنَ الرِّصِيفِ . . وَبَيْنَ الرِّصِيفِ . . وَحِيدًا
وَصَعْبًا . . وَكَانَ . .
يُحِبُّ الْغَلَابَا . .
وَيُرْوِي الْعَتَابَا . .
وَيُصْهَلُ فِي دَمْعَةٍ . . وَاغْتِرَابُ . .

*

سَأَحْكِي لَكُمْ يَوْمَ حَدِيثِهِ . .
كَيْفَ قَالَ :
بَأَنَّ الرِّجَالَ . . الرِّجَالَ . .
يَشْدُونُ كَتْفَ الْوَطْنِ . .
وَأَنَّ الْمُحْنَ

قدرٌ للرجال . .
تناولُ معطفهُ في المساءِ الضبابيِّ . .
لم يلتفتْ خلفهُ
وتجاوزَ بابَ المدينة . .
تمتمَ شيئاً حزيناً . . كبيتِ العتابة . .
وهرولَ مرتجلاً لوحهً بينَ غربته . . والغرابة . .
قال :

سلامٌ على الأهلِ . .
حربٌ على الوحلِ . .
شعبٌ إلى النصرِ . .
إنَّ فلسطينَ في الجمرِ
إنَّ الحصارَ . . حصارانِ . .
والقهرَ . . قهران . .
فاحتكموا للعذابِ

*

وأرسلَ ريشته في المحابرِ . .
أخرجها من وريدِ ذبيحٍ . . وأشهرها
فاستوى حنظلةً .
في مدى المسألة . .
أو مدى المجزرة . .

ظلَّ ناجي العلي
 راح يرسمُ بعضَ الوجوهِ التي لاحقتهُ على وقعِ ريشته . .
 منذُ أن ميَّزتهُ . .
 وألقى بأوراقه في الشوارع . .
 لم يرتعشُ واطمأنَّ إلى أنَّها شوهدتْ في الصباحِ . .
 كما شوهدتْ في المساءِ . .
 وشوهدَ ناجي العلي وحدهُ واقفاً
 كانَ جيشاً . . وكان . .
 يديرُ إلى القتلِ كتفينِ ناحلتينِ . .
 ويوغلُ في مطرٍ موحشٍ . .
 ويمدُّ ذراعينِ مثختينِ على ذرورةِ المجزرةِ . .
 سلامٌ له . . وسلامٌ عليه . .
 ومجدُّ له . .
 لا المراثي تليقُ به . . أو يليقُ بها . .
 فانهضوا . . واحملوه . .
 انهضوا واتبعوه
 أقولُ لكم قتلوه . . وما قتلوه . . ولكنهم قتلوه . .
 فأسرى إلى بقعةِ الحبرِ . . أو بقعةِ الدَّمِ . . سيَّانِ
 فاتسعتُ في المكانِ . . كما اتسعتُ في الزمانِ . .
 لتشحنَ كلَّ المواويلِ ضوءاً . . وناراً . .
 وتسترسلُ الخيلَ . . والليلَ . . من جهةٍ لا يروها . .

فتأتي على أثرِ دارسٍ من بقايا الخيام . .
ونأتي خفافاً سوى من دمٍ لا ينام . .

*

هو الآن يصعدُ فينا . . جميلاً . . شجاعاً . .
وينهي ضياعاً . .

ويسري إلى قرية في الجليل . . وفي الحلم . .
لم ينتظرُ أحداً . . ثمَّ لم ينتظرُ أحداً . .
مرَّ من جرحه . . واستدار . .

يعذبه أنه لم يصلها . . وأنَّ الطريقَ الذي قطعتَه الرصاصةُ
لم يلتئم . .

إنَّه غائبٌ في الحضورِ الخضيل . .

حاضرٌ في الغيابِ الطويل . .
يعذبه أنه منصتٌ ويرى . .

فتنفرُ من عينه دمعةٌ لا ترى . .

ويفرحُه أننا قد أحطنا به . . وأحاطَ بنا . .

فاستراحَ إلى الشجرة . .

*

وقيلَ بأنَّ جناحيه من حبره . . ودمه . .

وقيلَ بأنَّ سباتاً طويلاً ألمَّ بنا . .

فدلفنا إلى عتمة . . أخرجتنا إلى عتمة . . ثم أفضى . .
إلى مشهد دموي . . على ركنه غابةٌ فمشينا . .
عبرنا شريطاً من الهمس . . كانوا على هيئة القتالين . .
وكانوا همُّ القتلة . .
وكان الذي صوبوا نحوه . . حنظلة . .

*

صحونا على صوته هاتفاً . .
اتبعوني . .
خذوا من دمي . . واستضيئوا به . .
أو خذوا جسدي . . وامنحوني لكم . .
واستردّوا الطريقَ الذي لغموه . .
الطريقَ الذي ضيّعوه . .
اتبعوني . .
أنا شاعرُ الفقراء . . أنا الشجرة . .

*

هو الآن يذكرُ كيفَ التقينا به . .
واحترسنا معاً . .
ومشينا معاً . .
وانتظرنا معاً . .

واحترقنا معاً . .
وؤقتلنا معاً . .
ثم قمنا معاً . .
وعبرنا الحدودَ على موكبٍ من رمالٍ . . فمالَ بنا . .
واستحلنا إلى موكبٍ في المحالِّ . .
ويذكرُ أنا فرحنا . .
وأنا بكينا . .
وأنا يسنا . .
ولكنه ما استقال . .
وظل يثابراً في الحزن . . والموت . .
ظل يثابراً نحوَ الجبال . .

*

لناجي العلي صحوتان . .
صحوةٌ في المنافي . .
وأخرى على مدِّ فجرٍ سيطلعُ من قلبِ هذي الفيافي . .
ولا شكَّ في فجره . .
وهو يدركُ أنَّ المدى رحلتان . .
رحلةٌ في ترابِ فلسطين . . أخرى إليها . .
تواكبها بين شبر . . وشبر . .
وقبر . . وقبر . .

ودمع . . وحبير . .
 سجونٌ ومعتقلاتٌ . . وقتلٌ . .
 توأكبها محتتانُ . .
 محنةٌ في الخروجِ الحزينِ . .
 وأخرى على طرقٍ لا تبيّنُ . .
 ويصبرُ في المحنتينِ بأنَّ المدىَ خطوتانُ . .
 تناولَ قهوتهُ من صباحِ المخيمِ . .
 ملممَ أوراقه . .
 وتعلّمَ أنَّ الطريقَ دمٌ . . فمضى . .
 في ثيابِ الصدى . .
 إذ تسلَّلَ من وهديةِ النفي . .
 (عار) . . سوى من يديه . .
 ومن بصرِ نافذ . . وسؤالِ عصيِّ الإجابة . .
 مستدرَكاً أنَّ ريشتهَ أعلنتُ حربها . . فمضى . .
 راحلاً . . راحلاً . . من جحيمٍ يسلمه لجحيمٍ . .
 ومن شارعٍ . . لقطارٍ . . ومن مرفأٍ لمطارٍ
 ومن واحةٍ . . لصحارٍ . . ومن بلدٍ ظنَّه وطاناً . . لحصارٍ . .

*

تباركُ ناجي العلي . . .
 وتباركُ من يشربُ الآن من نبعه . .

وتبارك من مدَّ بين المخيم والأرض أضلاعهُ . .
وتبارك هذا الدم الواقفُ الآنَ بالبابِ . . لا يستريحُ . .
وكانتُ رسالتهُ في الصباحِ على شكلِ فاتحةٍ للمعاركِ . .
مشعلةً للصواعقِ . . مطلعةً للزنابقِ . .
كانتُ مؤلفةً من حطامِ المخيمِ . . والناسِ . .
والوقتِ

مقدوفةً بين خطين للموتِ
معلنةً أنَّ ناجي العلي ليس يؤخذُ بالصوتِ
والسوطِ . . أو بالرصاصِ . .

*

وفي غفلةٍ من نعاسِ . . وناسٍ يحبونهُ . .
أولموا في الظلامِ الغبيِّ على دمِ هذا النبيِّ المطاردِ . .
واحتكموا للمسدسِ . .
ثمَّ اختفوا خلفَ شعرِ كذوبِ
وخلفَ اختلاطِ الدروبِ

*

تكونُ الكتابةُ في مثلِ وقفتهِ في المعاركِ أو لا تكونُ . .
تكونُ المراكبِ في مثلِ رحلتهِ كبرياءً . .
وفي ضوءِ عينيه . . أو لا تكونُ

تكونُ المرايا . . منايا . . إذا غيَّبتُ وجههُ . .

وتكونُ فلسطينُ عرساً لنا . .

وتكونُ بها الأرضُ . . أو لا تكونُ . .

*

لناجي العليِّ إصبعٌ راحَ ينمو . .

ويومىُّ للقاتلينَ الذين أباحوا دمَ اللاجئِين . .

وأفتوا لأنفسهم بالجريمة شعراً

ونثراً

وقتلاً . .

وأفتوا لها منذُ أن ركبوا الطائراتِ إلى الغُرفِ المغلقة . .

*

وناجي العليِّ خطرٌ . . وهو حيٌّ . .

خطرٌ وهو يرحلُ من بيننا . .

خطرٌ بعدَ مصرعه . .

خطرٌ وهو ضوءٌ يوزعُ أشلاءه بين أطفاله . .

ويسافرُ في شقفةِ الحزنِ . .

لا يرتدي غيرَ جلدِ رقيقٍ

وشوكُ الطريقِ على راحته

وفي صدره الحربُ معلنةٌ

وتضيقُ الدروبُ . .
ولكنه خطرٌ . . وشجاعٌ كما كان . .
أو بعد كلِّ الذي كان . .
من أجلِّ هذا أهالوا على دمه حفنةً من ضبابِ المدينةِ
لكنه لم ينمُ
وصحاً . .
أيقظتهُ عذاباتُ فاطمة . .
أيقظتهُ عذاباتُ حنظلة . .
هزهُ جارفٌ من ألم . .
أزاحَ بكفيه كومَ الترابِ الغريب . . وقامَ
وأمين . . أمين . .
قامَ من الموتِ ناجي العلي . .
وأسرى إلى شجرة . . وتراب . .
وأسرى إلى دمناءِ اليباب . .
سمعناهُ كان يئنُّ من القهر . . والقبر . .
وما أن من طلقةِ القتل . .
ثمَّ استراحَ على صخرةِ الشجرة . .
تلفتُ إذ حضنتهُ المجازرُ . .
فاجتاز سورَ المقابر . .
لم يتجهُ للمطار . .
ولم ترهُ شرطةٌ في الحدودِ يغادرُ أرضاً . . ويدخلُ أرضاً . .

ولم يره القتلة . .
وفي يده ريشة لم يروها . .
وفي رأسه طلقة . .
آه في صدره نجمة وشعار . .

*

تلفت . .
لا ودعته المرايا . .
ولا ودعته الشظايا . .
ولا ودعته النجوم . .
فأشرع للريح صدراً نحيلاً . .
وهماً طويلاً . . جليلاً . .
وأرسي بهودجه . . للتخوم . .

(دمشق - 1987 / 10 / 25)

دمي . . نخيل . . للنخيل

أوغلتُ . . أم سقط الخريفُ إلى نهايته
وأقلعت الرياحُ . .
ودَّعتُ . . أم هذا الرصيفُ مراوغُ . .
والناسُ من ورق . . ووهم . .
أودعتُ فيهم صورتي الأخرى . .
ووزعتُ الحداد . . على البراري . .
والخواتم . . والأساور . . والعقود على احتضاري . .
وانتحلتُ صفاتي الأولى . .
فكانت نخلتي قمري . .
وصار الوقتُ من نهر بهي الماء . .
صارت فضتي مطراً . . ووجهي عامراً بالطير . . والحنونِ
في كفي أحلامي . . وزهر الليل . . والحناء . .
أسراري التي ودعتها . .
- ونسيتُ وجهي - إذ عبرتُ من الضجيج . .
إلى سكوني . .
وانتشرتُ على الظلال . .
هبطتُ على رثي الجبال . .
صرختُ . . يادما تعال

إنِّي انتظرتُ على وريدي . . واشتعلتُ . .
على براكيني . . فأحرقني زفيرِي . .

*

عَبَرْتُ على جسدي الحروبُ
جاءوا على رِيحِ الغروبِ . . مدجَّجين بلا قلوبٍ . .
زمنٌ يحالفهمُ . .
وأزمنةٌ تخلفنا . . وتمضي . .
ولنا محيطٌ من مغاراتٍ تغربُّها بدواتُها . .
إلى اللغةِ القتيلةِ . .

ولنا أهزيجُ الصراعِ . .
لهم بواخرهمُ . . ومرفأنا مشاعٌ . .
زحفوا من البرِّ العدوِّ على كوارثهم . . عُرايا . .
وسلاحهم تحتَ الجلودِ . . وفي صناديقِ المتاعِ . .
زحفوا تساندَهم على القتلِ المصارفُ . .
ليلٌ لمحتننا الطويلةُ . .
- هي غزوةٌ . . وأقومُ . .
قلتُ تردُّهم رُوحِي . . وتهزمهم دمائي . .
فتوزعتُ جسدي الشواهدُ . . إذ هدرتُ . .
فقلتُ أنهضُ . .
هل كنتُ أدركُ أنَّ خارطةَ الخروجِ معدةٌ . . ؟

فخرجتُ . . ؟
 لم أخرجُ
 وأسرجني مسائي . . .
 صرتُ القتيلةَ . . والقتيلَ . . فوحَّدتني في النخيلِ . .
 وفي الأصيلِ . . كواكبي . .
 وخرجتُ - والمنفى يطاردني ورائي . .
 وصعدتُ من موتي إليَّ . .
 وقلتُ . . تحمّلني طيوري . .
 فتجاهلتُ حلمي . . ولم يحزنْ عليَّ سوى حضورِي . .
 في الرمادِ . . وفي مصيري . .
 صدروا عن الغزو المدوّل . .
 فاتكأتُ على البنادقِ . . والغناء
 وكمنتُ في طرقِ القصائدِ . . والقرى . .
 أخففتُ . . وانتصرتُ جذوري . .
 ثمَّ باركهم نصيري . .
 ودخلتُ في الوجودِ المعمّدِ . . أو خرجتُ إلى المخيمِ
 الموتُ أهونُ . . يوم حاصرني الرغيفُ على الرصيفِ . .
 الموتُ أهونُ . . - نخلتني تاهتُ . . ونجمي في الزوابعِ . .
 وانكسرتُ على العيونِ . .
 روحاً تشظَّتْ في الشوارعِ . . والأزقةِ . . والمخافرِ . .
 والصحارى . . والسجونِ . .

الموتُ أهونُ من متاهتنا . .
أطلتُ نخلتي . . فبكتُ . . ونادتها النجومُ . .
حفرَ الغريبُ على النَّحِيبِ . . رموزهُ . .
وتناولَ الكأسَ الأخيرةَ . . واستراحَ . .
أوصى بأن يرثَ السؤالُ
مهرٌ تشرَّدَ في الجبالِ . .

*

- عرقٌ على الجبهةِ . .
والدمعُ في الأحداقِ . .
يا أمَّه انتشري . .
حزناً على الآفاقِ . .

*

- أوصيتُ للحزنِ الكبيرِ . . بدمعتينِ . .
ولنخلتي . . أوصيتُ بالفرحِ الصبيِّ . . وبالحريرِ . .
أوصيتُ أن تأتي إليَّ . . وتنحني فوقي . .
وتطلقَ همستينِ . . رحيمتينِ . .
أوصيتُ لو جاءت إليَّ . .
أن ترتدي ورداً . . ولا تبكي عليَّ . .
أن تنحني . . وتضمَّ في يديها . . يديَّ . .

أوصيتُ أنْ يأتيَ نهاري . .
جسراً ليعبرهُ صغاري من منافيهم . .
إلى كتيبي . . وأشرعتي . . ورمّاني . . وأشعاري . .
وداري . .
أوصيتُ أنْ لا يطفئوا شمعي . . وناري . .
ولنخلتي أوصيتُ . . بالطقسِ المطيرِ . .
قصرتُ عن وصلِ المسافة . . بالحنينِ . .
من الكهوفِ . . إلى النوافذِ . . والمعابرِ . . والسنينِ . .
قصرتُ . . فأخترقت خطاي . .

*

الناي يافا . .
والجدارُ مدينةٌ أُخرى . . وتصلبني إليها . .
والناي يافا . .
لا يعودُ إلى شواطئها المهاجرُ . .
لا تغادره . . وتأخذهُ لديها . .
والناي . . يافا . .
والعتابا دربها النائى . . ومذبحتي قميصي . .
فوضى من الموت المعجّل . . والمؤجّل . . والأين . .
فوضى . . من الفوضى . .
ومن حمّاً حزيناً

- هي رحلةٌ أُخرى .. إلى جهة الغبار ..

هي عودة أُخرى إلى معنى الخيام ..

هي رحلة أُخرى إلى سغب الحصار ..

وعودة أُخرى إلى نهر اليمام ..

ورحلة أُخرى إلي بيتٍ من الورق المقوّى

والحطام ..

وعودة أُخرى إلى ثلج الطريق .. إلى الظلام

وليلةٌ نصبتُ على مرثيتي سقفاً لمنفى

قلت : أسأله خلاصي ..

فتقاذفت قلبي كآبته .. وأطلقني رصاصي ..

*

- مرّت على جسدي مناحاتٌ .. وأيقظني البكاء ..

ورأيتُ في الصحراء .. واحات ..

ففاجأني الخواء ..

*

- صدأً على التابوت ..

والعشقُ ليس يموت ..

يا ليلُ لو ترحل ..

قلبي .. هو المشعل ..

- البحرُ يسكنني . . ويتبعني ندائي . .
والبحرُ رائحةُ البيوتِ على أوابدها . . وشمسي . .
طلعتُ على جسدينِ من نخلٍ . .
ومن غدها . . وأمسي . .
والبحرُ أسئلةٌ تغيبُ . . ولا تموتُ على التناهي . .

*

- دربي إليك مشقَّةٌ . . ودمي عليكِ
وما حملتُ معي . . سواي . .
فاستقبلتُ جسدي المدافنُ . .
ثمَّ شيعني هواي . .
ورمى عليَّ بيارقي . . ونشيجَ أمِّي . .
فارتحلتُ إلى مداي . .
- إنني أقمتُ على حدودك . . قلتُ: أعبُرُ . .
أستردُّ دروبَ فاتحةِ الدروبِ . .
لكن قتلْتُ . .
فقلتُ أنهضُ . . - لم أكذبُ . -
حتى قتلتُ على المداخلِ . .
قبل أن تصلي إليَّ . . وقبل أن نصلَ المتاهةَ . .
بالمسارِ . .
عبرتُ عليَّ رياحهمُ . .

فدخلتُ في وادي السبات . .
وتناوبتني مرةً - رؤيا - وأخرى
أغلقتُ روحي الماتمُ . . والموات . .

*

ذهب . . وموتى . . والزجاج . .
صفةً لقافلة الضباب . .
دَخَلْتُ إلى ورق العدو . . فعاثَ في دمها العدوُّ
وأحرقْتُ أمِّي مناديلي . . وصاحت . .
الرمل تربتنا العقيمة . . والخرابُ
جزرٌ على مدِّ اليباب . .

*

- من أينَ ينعطفُ الحداءُ إليك . . إذ رجعوا . .
وموكبهم غبارٌ . . ؟
من أينَ والنخل البعيد يموت من ظمأ . .
ويهلكُ في الحصار . .
- صوتي الذي حملته أيامي الرديئة . . لا يفارقني . .
ويحرجني غنائي . .
فبأي جرحٍ سوف أرجعُ . . ؟
والقرى في الأسرِ مجرزة . . وتلفظني سمائي . .

غسلٌ . . . ورملٌ . . . نخلةٌ عطشى . . . وعاشقةٌ
 محاصرةٌ من الصحراء . . . للصحراء . . .
 عزف ربابة . . . تعبٌ . . . وقافلةٌ بلا طرقٍ . . .
 وقلبي ريشةٌ . . .
 ورقبي فضاءٌ موحشٌ . . .
 وصقورهٌ جرحى مشردةٌ . . .
 وهذا شاطئٌ يبكي . . .
 وينصب قوسه في الروح . . .
 يقلع صخره . . . ويصيحُ . . .
 أضرحهٌ على زيد . . . هي الأسماءُ . . .
 والأشياءُ . . . أضرحهٌ . . .
 ولا أصداءُ . . .
 مثقلةٌ مرايا الماء . . . بالأعداء . . .
 خلفَ مقابرِ الشهداء . . . فاحترسي من الكلمات . . . والحلوى
 . . . وشدِّي القلبَ للذكرى . . .
 وردِّي موسمَ المأساة عن رثتيك . . .
 لا أحدٌ يردُّ الصوتَ . . . أو أحدٌ يردُّ الموتَ . . .
 أو أحدٌ سيحملني إلى أيقونة خضراء . . .
 كي أفضي إلى جسدي . . . وأروقتي . . .
 وكي أمضي . . . إلى شباكنا العالي . . .
 وقبة منزلٍ في الغيب . . .

- ياقوتٌ على الكتفين . . أو دمننا على الشطين . .
أو حزنٌ يكاتبني . .

- وصبرٌ . . وردةٌ . . صمتٌ . . وفولاذٌ
نعاسٌ معتمٌ . .

- جرسٌ على حقلِ البنفسجِ - وجهها -
ليلٌ . . ونجمتهُ سجيتتهُ
وأُمِّي منجمُ القصصِ الغريبِ . .

*

- رمحٌ على جبلٍ . . ويسطعُ . .
فارسٌ

مطرٌ على دمه الجميلِ
كتابةٌ . . وحمّامتان . .
يداهِ مشرعتانِ كالبرقِ الخضيلِ . . وكالهديلِ . .

*

- عينٌ على حبرِ القصيدةِ في كتابتها البعيدة . .
عينٌ على دمها المبددِ . . في الجريدة . .
وعلى سياجِ مدينةِ القتلى . .
وإيقاعِ العويلِ . .

- عَبرتِ على الفلواتِ . . واقتحمتِ مداري . .

فتقاطع الشَّجْنُ المصْفَى . . والغريبُ . .

مع النخيل . .

- هي نخلتي . .

كنت انتظرت طلوعها من بهجةِ الفرحِ القديم . .

ومن قراري . .

جئتُ أسألها ثماري . .

فترنَّحتُ في القِيْظِ . . واحتضنتُ مراري . .

والتجأتُ إلى أعاليها . .

فشتَّني . . دواري . .

*

- من يشتري تعبَ الندى . . ورحيله . . ودمي . .

وزهر بحيرتي . . ؟

من يشتري نارنجةَ الروحِ الحبيسة . . ؟

مقفلٌ بابُ البراءة . .

- فاعبري موتي إليك . .

وجاوري جسدي على الأسفلت . .

أو مدِّي يديك . . إلى يقيني . .

- اليوم . . ابتدئُ القراءة . .

- واليوم أكتشف المسافة من قصيدتنا . . إلينا . .

- واليوم يدهشني البكاءُ على الطلول . .

ويضيع في دمنا الغناء . . ولا نقولُ
رُدَّتْ مرارتنا . . إلينا . .

*

- بيني وبينك مكتباتٌ سوف يحرقها الغزاةُ . .
إذا استراحوا . .
- بيننا سحبٌ من التفاح . . مسرعةٌ . . وواعدةٌ . .
وتمطرُ . .
- شجر الكلام يمرُّ من جسدٍ زجاجيٍّ إلى المقهى . .
ويذهب في متاهته . . من القتلى . . إلى القتلى . .
ومن قبرٍ . . ومقبرةٍ . . إلى قبرٍ . . ومقبرةٍ . .
إلى بئرٍ . . وجانحةٍ . .
وماء كاذبٍ . .
من أين تبتدئ البدايةُ . . ؟
لا أفق . . في أفق الحكايةُ . .

*

-إني لأشهدُ كيف تنخرنا الهزائم . .
كيف ينحتنا السدى . .
كيف الطريقُ إليك مقفلةٌ . .
وملح . .

كيف ينسُدُّ المدى . .
- من أين نخرجُ . . والمساءُ معذبٌ فينا . .
ونخلتنا وحيدة . .
أو أين نخرجُ . . والرياحُ شديدةٌ
والحلمُ ألواحٌ من الآجرِّ - لا يأتي - وأعمدةٌ . .
وهجرتنا تطولُ . .
- للبحرِ حسرتُهُ . . وللنخلِ الحصارُ . .
- ولأنَّ سكرنا مرارُ . .
ولأنَّ قهوتنا شريدة . .
نمضي بلا حربٍ . . ولا مجدٍ . . وغارُ . .
سحبٌ فضاءٌ . . ماسةٌ . . وعد الصدى . .
لون المرارة . .
زرقة البحر المعلق . .
والمنارة . . والنداءُ . . وحلم أسئلة الندى . .
في غربة السفر الطويلُ
من نخل غزة . . للرحيل . . هو الأسى . .
والضوءُ في الجسدِ القليل . .

*

ها قد تسلَّقتُ السماءَ . . فأين أنتَ . . ؟
وهل وصلنا . . ؟

-هل أغلقتُ طرقُ الصَّهيلِ . . ؟
وهلُ تعبنا . . ؟
-كلُّ الصغارِ إلى المقابرِ . .
والكبارُ إلى المهانةِ . . والدمارِ . .
وترافع الموتى . . عن القتلى . . فماتوا . .
جثثٌ على جثثٍ . . ويأخذها القفارُ . .

*

- جاءَ الوباءُ من البحارِ . . ومن حقائبهم . .
وجاؤوا بالضغينة للنخيلِ . .
- ذهبَ العدوُّ . . إلى العدوِّ . .
ومشهدى . .
موتُ الشوارعِ . . والحدائقِ . . والمباني . .
والدَّفَاتِرِ . . والسنابلِ . . والأياثلِ . . والخيولِ . .
وموتُ أسئلةِ الخيامِ . .
وموتُ عصفورِ الأمانى . . والحقولِ . .
وموتُ أمِّي . .
موتُ ظاهرةِ الخيالِ . .
وموتُ أحلامِ النخيلِ . .
- يبكي على كتفي النخيلِ . .
ودمي يصيرُ إلى نخيلِ . .

- من أين نذهب كي نكون . . ولا أرى . .
تشكّلين من الأغاني . . والبكاء . . وخضرة
العشب المصادر . . والرؤى . .
تتحوّلين إلى نخيل . .
وتكابدين على الذرى . .
وأنا يعذبني النخيل . .
فَدَمِي نخيلٌ للنخيل . .

(دمشق - الإثنين، 21-6-1993)

للفصول اعترافاتها

في المساء الذي هجرتهُ النجومُ . .

المساء الذي توأمَ الموتَ . .

أوقدتُ ترتيلةَ الشمعِ . .

ضوءٌ عليكِ . .

وظلٌ عليَّ

وتلويحةٌ في الغمامِ . . ووعدهُ

ومشطُ

ورمانة في يديَّ . .

وعمري رحيلُ . .

ووردي أصيلُ . .

وبين يديكِ . . أصلي . . وأرفع كَفِّيَّ

رملٌ على جسدي . .

وليلٌ يصادرُ قلبي . .

ماءٌ يضيءُ المسافةَ . .

بيني . . وبينني سيفُ . .

وبيني . . وبينك سيفُ . .

ومكتبة بيننا . . ونباتٌ سيخضرُ فينا . .

وفجرٌ يؤجِّلنا مرتينُ . .

فنصعدُ في سرِّ نخلٍ يعذبه البردُ . . و«الشردُّ»

نصعد من حالة في البياضِ . . إلى حالة في السوادِ . .
إلى دمننا . .

ونعودُ إلى زهرةِ الجمرِ

نصعدُ في جمرةِ العمرِ

أرجوحةً . . عرشةً . . بينَ . . بينَ . .

في المساءِ المرادفِ للحننِ . . والصمتِ . .

رَيْلَتْ قَلْبِي . . من أَوَّلِ الحَبِّ حَتَّى السَّقَرِ . .

في المساءِ الخريفيِّ . . ناديتُ أسمكِ . . واسمي . .

لم نستجبُ

فاحترفتِ الخروجَ إلى الريحِ . .

حملتُها جسداً . . ذابلاً . . ووحيداً . .

سوى من دمي . .

وارتحلتِ إلى مدنِ غربتني إليها . . وعنها . .

وضاع الطريقُ إلينا . .

انتهينا إلى سكرِ زائفٍ . . فاحترقنا . .

انتظرنا على الصوتِ . .

لم نحتفلِ بحمامِ القبابِ . .

ولم ننتبه لسنونو التخومِ القصياتِ . .

لم نسترح للغيومِ . . ولا للدخانِ . .

ولم ندركِ الفرقِ بينهما . .

وانتظرنا المطرَ . .

في المساء المسمّى . . مساءً
دخلتُ إليَّ . . خرجتُ عليَّ . .
فجاءت إلى تعبي غابةً . .
ودروبٌ مشتتةٌ . .
- رغبة - فأخذتُ . .
ونافذةُ النومِ مغلقةٌ . .
وينوءُ الشجرُ . .
الحقولُ تحيطُ بنا . .
فنمرُّ بها . .
لا تغني لنا . . أو نغني لها . .
شجرٌ غابرٌ . . ورمادٌ . . سماءٌ مصدّعةٌ . . وقمرٌ . .

للغريب هو اجسهُ . .
علّق الآنَ أحزانهُ في الخزائنِ . . علّقها في المداخلِ . .
في لوحة . . ودار . . وسقف . .
ووزّعها في الليالي . .
الرحيلُ - يساورهُ - . .
عن بلادِ تخصُّ المرارةَ في الروحِ . .
ترتدُّ في دمها . . وتجوّع . .
تعيدُ السؤالَ إلى غربَةِ السجنِ . .
أولا يجيء . .

كما لا يفِيءُ إلينا . .

غريبين من خزف . . ونبيذ . .

غريبين من جُلنارٍ شفيفٍ . .

في المساء . . بلادٌ . . تُحمَلُ أشلاءَها في البواخرِ والقاطراتِ

. . وتذهبُ أبعدَ من موتها . .

- قلتُ أسألكَ الآن . .

كيف ستقضيَنَ ليكَ . . ؟

كيف تنامينَ

أين مفاتيحُ حلمك . . ؟

هل تنصتينَ لفيروزَ وهي تغني . . ؟

«بأني ذكرك . .

أم أنت متعبةٌ . . ؟

والطيورُ . . مهاجرةٌ . . ؟

- يا دياراً . . أرسل شرفتها في المغيبِ المدميِّ

فيزهرُ ثوبٌ . .

ويجهشُ قلبٌ . .

أقاتلُ من أوَّلِ البحرِ - بينهما - فأصابُ

على آخرِ البحرِ . . - أسقطُ - . .

إنَّ الدهاليزَ معتمَةٌ . .

لا أرى الآنَ وجهاً لوجهي . .

ولا نجمةً في الرمال . .
ويتشرُّ الليلُ بيني . . وبين السؤال . .
- يظلُّ العدوُّ على السور . .
والخافلاتُ . . الشوارعُ . . والمستنقعاتُ . .
قبورُ . . نهارُ المدائنِ . . والدورُ . .
مرآتها لا تبوحُ به . .
إذ يراؤها . . ويدورُ . .
فتهربُ منها إليه . .
تبعثرنا . . أثراً مائلاً . . وجسوراً محطمةً . .
وبقايا . . ندورُ . .

ديارُ . . وتأكلُ أبناءها . .
وأنادي عليها . .
بلادي . . بلادي . . بلادي . .
يردُّ الصدى لا تردُّ . .
فينهدُّ صوتي لديها . . وأنهدُّ فيها . .
فتخرجُ منها . . عليها . .
ونخسرُ خبزَ المسافةِ منها . . إليها . .
نخسرُ أسماءنا مرتينِ على قحطها . .
ويديها . .
- يا شتاءً . . يواعدنا . . ثم يأتي بكاءً . .
يهجرنا في الرصيفِ . .

فذهبُ فيه على دمناء . . شارة لفضاء يضيقُ . .
- يا ربيعاً يؤجِّلُ خضرتهُ . .
- أيُّها الصيفُ . . لم تأتِ بعدُ . .
انتظرناكَ من كرنفالِ المذابحِ حتى المضيقُ

للفصول اعترافاتُها . .
واعترافُ الفصول الخريفُ . .
في الرمادِ . . رمادٌ . .
فلا روحَ . . في الروحِ . .
لا جسدٌ في الجروحِ
ولا الموتُ . . موتٌ . .
ولا الماءُ . . ماءٌ . .
ولا ثمرٌ . . في الثمرِ . .
في السهادِ . . سهادٌ . .
ولا حلمَ في الحلمِ . .
لا بيتَ . . في البيتِ . .
لا ملحَ . . في الملحِ . .
لا دمناءَ . . دمناءَ . . كي نصيحَ
ولا ضوءَ في الضوءِ . .
لا أرضَ . . في الأرضِ . .
لا بحرَ . . في البحرِ . .

إِنَّ الْهَوَاءَ ثَقِيلٌ . .
وفحمٌ نداءُ المواويل . .
والقلبُ صوانةٌ . . وصهيلٌ . .
وأنتِ الهَوَاءُ النقيُّ النبيلُ . .
ولكنني مزهرٌ في النواح . .
ولي فرحٌ . . في المساءِ الجريحِ . .
ولي وردة . . في الجليلِ
كبرنا . . أضعنا تيمتنا . .
فأضعت اتجاهي . . وطيرت آهي . . شمالاً
جنوباً . .
وشرقاً . . رياحي . .
مساءً هو الوقتُ في النهرِ . . نهرانِ . .
والنهرُ في النهرِ نهرانِ
نهرُ العطايا . .
ونهرُ الأصاحي . .
أناديك . .
سميني الآن ليلى . .
أو ليلى كآياساً . .
قدراً بائساً . . محبطاً . . وصحارى . .
وما شئتِ قولي . .

فإنِّي أهيبُ مرثيتي كي تَغْنَى . .
وَأَمْنَحُ أَوْسَمْتِي لِلْعَذَارَى . .

لِلسَّمَاءِ مَفَاتِيحِهَا . . وَلَنَا . .
لِلجِبَالِ مَوَاقِيْتِهَا . . مِيجَانَا . .
لِلْعَتَابَا حَنَاجِرُهَا . .
لِلغَرِيبِ الْبَحَارُ . .
وَلِلصَّبْرِ أَوْرْدَةٌ . . وَاحْتِضَارُ . .

أَنَا الْآنَ أَنَايَ . . وَأَنْتِ تَغْيِيْبِينَ . .

مَنْ أَيْنَ نَأْتِي إِلَيْنَا . .
وَهَذَا الْمَسَاءُ الْغَرِيبُ . . غَرِيبٌ عَلَيْنَا . .
وَنَحْنُ الْغَرِيبِينَ فِي جِهَتَيْنِ مِنَ الْكُونِ . .
- هَلِ قَلْتِ : إِنَّا رَحَلْنَا . . ؟
وَهَلِ قَلْتِ . . إِنَّا ابْتَعَدْنَا إِلَى كَوْكَبٍ مَطْفَأٍ

وَأَنْتِهِينَا . . ؟

- أَلَا أَيُّهَا الْعَابِرُونَ دَمَ الشَّعْرِ . .
هَذَا دَمُ الْبَحْرِ . .
يَا أَيُّهَا الْخَارِجُونَ عَلَى الْعَشْقِ . .
هَذَا دَمُ الْأَرْضِ . .
يَا أَيُّهَا الدَّاخِلُونَ إِلَى الْمَوْتِ . .

هذا دمُ العاشقين .. على الجسر ..
يهطلُ حباً .. وكارثةٌ في الظهيرة ..
لا تقرؤوا في الدماءِ القصائدَ ..
لا تقرؤوا في الرخامِ الرسومَ ..

سنأتي حبيبتي الآنَ - كاملةَ الحزن -
محلولةَ الشعرِ .. عريانةً كالنخيلِ ..
ولاهثةً في الهجيرِ ..
سنأتي شريدين .. في قهوتين ..
يليقُ بنا الأسودُ العربيُّ ..
ونعطرُ ..

من أين ينبعُ هذا البكاءُ .. ؟
وأين يصبُّ .. ؟

في المساءِ المؤلَّفِ من وطن .. ودم .. وحريق ..
أقولُ: هي الأغنياتُ جراحٌ .. وأنت ..
- بعيدٌ هو الماءُ عن عطشِ الأمهاتِ ..
سلاماً لكلِّ النساءِ الجميلاتِ .. والمتعباتِ ..
سلاماً ترتلُهُ الكائناتُ ..
سلاماً .. سلاماً .. قبيل التماعِ السكاكينِ ..
بعدَ اللقاءِ الأخيرِ .. الحزينِ ..

سلاماً لك الآن . . يا أمَّ قلبي . . وعمري . .
وأقلع من ضفتيك . . إليك شهيداً
يشيِّعني الياسمين . .
في المساء المشكَّل من راية . . وغريق . .
وداعاً . . لكلِّ النساء اللواتي مررن بقلبي . .
وخلفن شمساً . .
وخلفن أسئلةً في اليقين . .
وداعاً لصيف حزين . .
لورد سيدبل في المزهرية . .
قلتُ: وداعاً . .
لورد يُحنَّط في غيمة من غبار العناكب . .
أو في الحقائق . .
في كتب الشعر . .
أو في الحرير . .
وداعاً . . لأمي . . وأطفالي الغائبين عن البرق
والحاضرين مع البرق . . برقاً . .
وداعاً لمن حملتني عذابي . .
فأقلعت عنها . . وحيداً . . وعدت إليها . . وحيداً . .
كدالية في الخليل . .
وداعاً . . لهذا الوداع الكسير . .

مرثيةُ الجسرِ الأخيرِ

ها أنتَ ترحلُ . . قبل أن تصلَ الحبيبةُ . .
من قصائدِها . . إليكُ . .
ها أنتَ ترحلُ . . قبل أن ترخيَ ضفائرها
عليكُ . .
ها أنتَ ترحلُ . . في خريفكُ . . وانكساركُ . .
والسحابُ . . بكاءَ أرملةٍ . .
ووردُ . .
فادخلُ شتاءكُ دونما برقٍ . . ووعدُ . .
وارسلُ شظايا الروحِ . . في وجعٍ . . ووجدُ . .
يا أيها المولودُ في الرؤيا . .
ولا رؤيا لديكُ . .

كتبتُ رسائلها البحارُ على جزائرها
لعشاقٍ أضاعوها . . وغابوا . .
هل كنتَ قاربهمُ . . ؟ فتَّهتُ . . ؟
أم أنتَ جوابُ الضبابِ . . على مشارفها
قُتلتُ . . ؟
فصعدتُ من دمك القديمِ . . إلى ملوحتهِ . .
وغبتُ . . ؟

هوذا فضاءٌ شاسعٌ يدعوكَ . .

فلتلعنُ رحيلكُ . .

إخلعُ ضياءكُ بينَ عينيها . . وبينكُ . .

كي تمرَّ إلى طفولتها . . وحلمكُ . .

واغزل عباةَ حزنكُ الغافي على كتفيكُ . .

عمركُ مثقلٌ بنشيجٍ ما يأتي . .

وليلكُ ضيقٌ . . وسحيقٌ . .

ها أنتِ ترحلُ في الطريقِ إلى حدائقها . .

وأنتِ . .

طفلٌ بلا أمٍّ . . ولا لُعبٍ . . ولا حلمٍ . .

وبيتٍ . .

أنصتِ . .

لا أحدٌ . . ولا جسدٌ . . فضعتُ . .

ذهبتُ مساءاتِ اللآلئِ . .

خلقتكُ على الظلامِ . .

سفرٌ . . ولا يصل الحبيبُ إلى حبيته . .

على وهمٍ . . ولا تصلُ الجسورُ إلى الضفافِ . .

ولا الروافعُ للحطامِ . .

نهران لن يصلا إليكُ . . وخفقتان . .

فأنت أبعدُ . .

وسماؤها الأعلى . . وبحركُما مصفدُ . .

قمرٌ على الذكرى . .

في الليلة الأخرى دمها هو الأغلى

ونهارها . . أسودُ . .

ذهَبَ الغمامُ إلى بدايته . . فوشحها بشال . .

للحزن شارئتهُ . .

تقاليدُ السلاسلِ في لياليها . . لها . .

طقسُ الخضوعِ . .

شدت ربايتها على لحنِ الرجوعِ . .

واسترسلت . .

للحلمِ رحلتهُ . .

وللفرحِ الحبالُ . .

- هل كنتَ قبلك . . ؟ أم رحلتُ . . ؟

من أين تأتي أغنياتك . . ؟

أو كيف تصطادُ المكانَ . . ؟

إن أنتَ علقتَ انتظاركَ في النوافذِ . . ؟

أو أنتَ . . أغلقتَ المنافذَ . . ؟

من سوف يأخذُ من يدك الوردَ . .

أو شجرَ الحكايا . . ؟

من سوفَ في غبشِ المساءِ . . يضيءُ رؤيتها . . ؟
إذا انتحر الحمامُ . . ؟

- هل أنتِ ترحلُ . . أم سواكُ . . ؟

- يا أيها الصمتُ . . الفراغُ . . الرعبُ . . والتبغُ

الرديءُ . .

يا أيُّها الورقُ المسافرُ في الرياحِ . . ولا يضيءُ . .

يا دربَ عاشقةٍ . . يبعثرُها الغروبُ . .

ولا تجيءُ . .

يا بُنَّ . . لا أحدُ . . وموتُ . .

- هل أنتِ بعدكُ . .

من يراكُ . . ؟ وأنتِ تصعدُ في ندائكُ . . ؟

من يراكُ . . ؟ وأنتِ تسقطُ من سمائكُ . .

- لا أحدُ . .

ذَهَبُ السكونِ على جبينك مُطفأً . . وعلى

الكتابة . . والجسدُ . .

إرحل بعيداً - عن جنازتك القريبة . .

في مواويل العبيدِ إلى البحارُ . .

إرحل عميقاً في دمائِكُ . .

واهبطُ جليلاً . . في بكائكُ

وارقدَ جميلاً . . في بهائك . .
قبلَ مذبحه الصبايا . . والجبال . .
هذا نذيرك - أنها احترقت كرايتها على القتلى . .
وغادرها السؤال . .
إرحل غباراً في رمادك . .
وانتشر وطناً . . لسيدة تغيب . .
إرحل على شفق النحيب . .
ليل . .
وحربك - في نهايتها - عليك . .
وإن موتك يشتريك . .
فاصعد بكاء . . في غنائك . . أو غناء . . في بكائك . .
- من أين جاءك مآتمك . . ؟
أو أين تدفن جثتك . . ؟
تلك المقابر لا تريدك . .
والمعابر لا تعيدك . .
فارحل غربياً . . أو بدائياً . . وراية . .
وارحل أصيلاً . . كالبداية . .
واطلق صهيلك . .
أنت من حلم تجيء . .
وأنت من حلم سترجع . .
وهي الطريدة عن مصب النبع . .

- للبرِّ الفسيحِ - إلى عذابات ستأخذها . .
وتُقلعُ . .

رحلتُ طيورُك . . قبلَ موَعدِها . .
وأخطأكَ الرِّيعُ . .
عادتُ غيومكَ دونما مطرٍ . .
وهاجمكَ الصقيعُ . .
فانشَرُ جناحك . . إنَّ شمسكَ تبتعدُ . .
ظماً جسوركما . . وليلُ . .
والصوتُ . . من نارٍ . . وخيلُ . .
تأتي دموعك - مرةً فرحاً وأخرى في الهزيمة . .
فاكتبُ على الزيتون . . أسئلةَ الجريمة . .

ها أنتَ تحملُ روحَ أمك . . ثم تذهبُ . .
دمها على كتفيك . . ذاكرةً . . وأسئلةً . .
ومركبُ . .

وعلى يديكَ طفولةُ الشجرِ المُعذبِ . .
ناحتُ عليكَ يمامةُ الدورِ الحبيسةِ في شرانقها . .
وطارتُ . .

هي ذي تهاجرُ . .
لا تبدلُ ريشها حزناً . .

وترهقها المسافةُ لا حتضاركُ . .
فافرشُ حنينكَ خلفَ ظهرِكَ خيمةً
وارحلُ - إذا ما شئتَ . . أو شاءتُ -
إلى قصصِ الخرافةِ . .
واخرجُ على الموتِ المذهَّبِ . .
للماءِ طعمُ دمٍ . . ولونُ القتلِ . . رائحةُ الحريقِ . .
فاظماً . . على ظمأ عتيقٍ . .
هذا تحوُّلك العصبِيُّ . . إلى سحابةٍ . .

(دمشق - 1993 / 8 / 28)

بكاء . . على جسدٍ لم يصلِّ

لا المراثي سترحلُّ . . أو فرح الموت يأتي . .
- سأصعدُ من جسدِ يابسٍ للندی - قلتُ -
فاشتعلَ النَّخلُ . .

بين تهامة . . والبحر . . أرصفةٌ للغريب . .

وندايةٌ للنحيب . .

رماحٌ على الأفق . .

مدُّ دماءٍ على الرمل . . يكتبني في بلادٍ من القش . .

ينحتني في الكآبةِ والموتِ

واقفةٌ في مداي الفسيحِ دمائي . .

ومسرعةٌ في رؤاي النعوشِ النديَّةِ بالبرتقالِ

من الماء . . للماء . . حلم قتيل . .

وليلٌ ذليل . .

تضيئُ المداخلُ في العشق . . والدور . .

كلُّ الغيومِ غبار . .

وكلُّ الغبارِ غيوم . .

لا الكتابةُ تعرفني . . وكتابي سيخذلني . .

لا ترابي سيأخذني . .

والمنافي ستهجرني . . والعزاء . .

لأهلي دكاكينهم . . في الحوارى الصغيرة . .

همسُ النواصي . .

احتفالاتهم بالغناء الحزين . .

لهم ما أراد العدو . .

ولي ما يصادرُ في البر . .

أمضي . .

طريداً أكون . .

فلا مهرةٌ في القصائد . . أو فارسٌ . .

ليل قلبي طويل . .

ولا مطرٌ عتمةٌ . . وخرابٌ . .

ولا قمرٌ . . وغرابٌ . .

ولا نجمةٌ ستضيءُ التخوم . .

لا . . ولا ورقٌ واعد . .

قلت . . أصرخ . .

أقلعت الريح . .

ظلَّ المدى مقفلاً . . ويصيحُ:

- ارجعي يا سفينته . .

فالدما . . دخانٌ . .

في البقايا . . بقايا الكتابات في الطين

زهرٌ حنين إلى القرية الجبلية . .

في الناي أهل . . وذكرى . .

وفي الناي سهلٌ . . . وسلوى . . .

وفي النايِ نجوى . . .

وبلوى . . .

وفي النايِ صورته في الجبال . . .

وصورته في الرمال . . . وصورته في السنينِ

وفي القهرِ

في النايِ دمعٌ . . . وجمعٌ . . . وذاكرةٌ . . .

واحتراقُ اليبادرِ في الريح . . .

نزحُ الينابيع . . . والناس . . .

في النايِ أرملةٌ . . . وشريدٌ . . .

وفي النايِ شجوٌ قديمٌ . . . جديدٌ

وفي النايِ طفلانٍ من لؤلؤٍ . . . وجمانٍ . . .

وردةُ الروحِ ذابلةٌ . . . والبكاءُ فضاءٌ . . .

- كي نغني . . . سنبكي كثيراً . . . ونبكي طويلاً . . .

نمضي إلى جبهتين . . .

وحيدين في طقسنا العربي . . .

وكيما نعودُ . . . سيأخذنا إليه في زمنٍ موغلٍ

في الشقاء . . .

جسدٌ سيّدٌ في السلاسلِ . .
مُحتَضِرٌ . .
والسنابلُ مقبرةٌ . . والهواءُ . .
جسدٌ مرَّ بيّني . . وبينك . .
منتشرٌ في الحروبِ . .
يُحاولُ أشجاره في المسافة بين الغروبِ . .
وبين الشروقِ . .

احتوته المساراتُ . .
فاختطفته القنابلُ . .
ثم استوى في النخيلِ . .

جسدٌ ساورته الهواجسُ . .
فاختار سيف الرحيلِ . .

ليلٌ أمي يؤرّخني . . والخريفُ الشقيفُ . .
حزنٌ أمي عتاباً . . وبيتي رصيفٌ . .
يا بلادي . .
البداياتُ مذبوحةٌ . .
والسؤالُ العصيُّ . . ختامُ الحكاياتِ . .
مختزلٌ في الرغيفِ . .

لا حقولٌ لنا . . أو جسورٌ . .
ولا القدسُ أجنحةٌ . . أو خيالٌ . .
ولا مدنٌ في التلال . .
جبالٌ مُخبَّأةٌ في المنازل . .
أسئلةٌ في الصغار . .
دروبٌ مهاجرةٌ في الجرائد . .
دورٌ تُعلَبُ أبناءها . . ومغيبٌ . .
شبابيكٌ من عتمة . . وصراخٌ . .
كأجراسٍ نرجسةٍ مُرَّةٍ في الرصاص . .
على دفترٍ من نحاسٍ . .

لا قبورٌ لنا . .
أو زهورٌ وآسٌ . .
ورقٌ ناحلٌ . .
والنخيلُ الجميلُ يفاضلُ بين الذهب . .
وبين الغياب . .
وبين الحريق . . وبين اليباس . .

- لا تقولي وداعاً . .
هو القتلُ يأخذُ شكلَ الوداع . .
وشكلَ الضياع . .
وشكلَ المسافةِ عبْرَ الصهيل . .
لا تقولي تعبنا . .

هو الموتُ . . يأخذُ شكلَ التعبِ . .
- لا أحبُّ الليالي التي تبدأُ الشعرَ بالخوفِ . .
أو تبدأُ الحزنَ من دندناتِ الغناءِ . .
لا أحبُّ الليالي التي تعشقُ الحلمَ . . في الحلمِ . .
أو تتعزَّى بوهمِ الشتاءِ . .
لا أحبُّ الشوارعَ ضاحكةً في الكوارثِ . .
بائعةٌ صحوها للنعاسِ . .

لا أحبُّ دمي ساكناً . . وبعيداً . .
أحبُّ دمي جارحاً . .
والزلازلَ . . رؤيا نبيِّ . .
أحبُّ جراحَ المواويلِ . . في الحبِّ . . والحربِ . .
والطائرِ الرَّحْبِ . .
حينَ يصيرُ أناشيدَ من غضبِ . . ولهبِ . .
أحبُّ الأغاني مرَّجةً . . في الصدى . .
والهوى عامراً بالوعولِ الطليقةِ . .
والوعرِ . .
والبحرِ . .

إنِّي أحبُّكَ عاليةً . .
لا أحبُّ الليالي مقايضةً عشقنا بالزجاجِ الملوّنِ . .
أو بالحصيِّ . .

والمرايا . .

وزيف الأمان . .

أحبك - أو أنت تدرين - يا امرأة . .

أزهرت من حرائقها في الرماد . .

وهزت مواسمها للحصاد . .

لا أحب الكتابة على الرمل . . والماء . .

فاشتعلي . .

لا أسمىك عاشقة من براري . .

ولا امرأة من سماء . .

لا أسمىك عاققة من ورود . .

ولا امرأة من ضياء . .

هل أسمىك عاشقة من رسائل غامضة . .

أورياح . .

أسمىك عاشقة من شتاء . . وبوح . .

أسمىك . .

كي لا أسمىك . . امرأة كالنساء

- هل تكونين من فضة الزيفون . . ؟

ومن ذهب الموت قلبي . . ؟

أُسميكِ حَمْحَمَةً فِي الشَّقَاتِقِ . . وَالدَّمِّ . .
غَيْمَةً حَزْنٍ . .

صَبَاحًا ذَبِيحًا يَرِفُ . .

وَأَحْجِيَّةً مِنْ سَرَابٍ . . وَمَاءٍ . .

هَلْ أُسْمِيكِ أَسْتَلَّةً . .

أَمْ جَوَابَ شَطَايَا مَوْزَعَةٍ فِي الْجِهَاتِ

كَطِفْلٍ يَطَارِدُهُ الْقَتْلُ . . فِي النَّخْلِ حَتَّى اخْضِرَارِ

الرَّفَاتِ . .

- هَلْ أَقُولُ لَكَ الْآنَ . . كَيْفَ أَمُوتُ . .

وَكَيْفَ أَعْدُو . .

وَكَيْفَ تُعْرِشُ فِي الصَّدْرِ عُقَيْقَةَ النَّهْرِ . .

كَيْفَ النَّهَارُ . . بَدُونِ النَّهَارِ . .

لَا أُوَدِّعُكَ الْيَوْمَ . .

إِنِّي أُوَدِّعُ مَرِحْلَةً مِنْ بَكَاءٍ عَلَى طَلَلٍ . .

وَبَكَاءٍ عَلَى جَسَدٍ لَمْ يَصِلْ . .

وَعَذَابِ الدُّوَارِ . .

أُوَدِّعُ مَرِحْلَةً سَوْفَ تَأْتِي مَسْرِبَةً بِالْمَتَاهَاتِ . .

وَالْعَقْمِ . .

وَالْكَرْنِفَالِ . .

هل نفتح قلوبنا بالحبّ . . ؟
أم هل نصارحُ غريبتنا . . باكمال الحصار . . ؟
هل نغادرُ جيلين . . في قفزة الموت . .
أم هل نصارحُ أحلامنا . . بالدمار . .

(دمشق - 23-1-2007)

وداعٌ . . هو الوقت . .

سأبتعدُ الآنَ . .
لكن . . سأخذُ جرحي معي . . وقميصي . .
سأخذُ آخرَ صوتٍ . .
وآخرَ موتٍ . .
وقبلتنا في الحريقِ الأخيرِ . . ووردي . .
مغامرةَ الحلمِ . . تبغي . . وقهوتنا . . ونبيدي . .
وأخلعُ عن رثيتك نزيفي . .
- وداعٌ هو الوقتُ بينَ المحيين . .
مختصرٌ في الرسائلِ . .
وهمُ خطوطٍ . . موزعةٌ في الفراغِ . .
يطيرُ اليمامُ المنحني . . فأُتبعهُ . .
ليلنا جاهلٌ . .
والنواعيرُ فضفاضةٌ . . كالرثاءِ . .
أودّعُ أغنيةً لا تقاومُ قاتلها . .
وتخاتلُ رمانها . .
كي ترممَ بنيانها في الفناجينِ . . والقهوةِ الباردة . .

- سكونٌ ظليلٌ على النَّبعِ . . شوكٌ على جسدٍ
صابرٍ . . لا يشاهدُ في الطرقِ المجهدة -

وأرتحل الآن . .

يخرجني من هروبي الصغير . . هروب كبير . .

فأكل لحمي . . ولا أشتري ما يباع . .

ولا أشتري ما يشاع . .

وأدخل في هجرتي عارياً . . ووحيداً بدون متاع

وَمُتَّحِلاً فِي شَرَاغٍ . .

سأرتجل الآن أنشودة للوداع الأخير . .

واكتبها في دمٍ قاصر . . وحرير . .

- عباءة صحوي على الحلم - . .

إني أقوم لألقي إلى النعش إيماءً بيدي . .

ثم أسعى إلى الليل - مقترحاً أن نكون صديقين . .

من ظمأ . . وسواد . .

لسوف أحييم بين المحطات . .

أنتظرُ العابرين . . لأسألَ عنها حقائبهم . .

والبريد . .

وأحزانهم . .

وخطاهم . .

لعلِّي أصادفها في العيون مهربة . . في الزمرد . .

والدمع . .

والشمع . .

بين المناديل . . والشفقِ المعدنيّ . .

- صلاةٌ - هو الصمتُ بين المحيينَ - مدهشةٌ . . والأسى -
من عيونِي ستبكي غداً - سادرٌ . . وعَجولٌ - . .

سأسترق السمعَ عن نبأٍ يستردُّ الضفائرَ

من أسرها . .

والبراءةَ للخبزِ . . والماءِ . . والجسدَ العسليّ . .

الطفولةَ من عرباتِ الجنودِ . .

سيكتملُ الليلُ بعدَ قليلٍ بنجمته . .

أنتِ تكتملينَ بعزفِ الرذاذِ على قصبِ النهرِ . .

والقلبَ بالآس . .

- هل قلتِ يسكنُ . . ؟! إنني أقولُ استراح . .

وودَّعهُ نبضه في سريرِ الرياحِ . .

- أychتفلُ البحرُ بالموجِ . . أم بالعواصفِ . . والنوءِ . .

والتائهينَ - . . ؟

- سأحتفلُ الآنَ بالحزنِ مسترسلاً

في الشعاعِ . .

وتحتفلينَ بليلينِ في غربتينِ . . بلا مطرٍ . .

أو صباحٍ . .

فهاهو جسرٌ . . تهدم في الروح . .
وانتجبت بعدنا في الميادين مخطوطةٌ . . وبقايا جناح . .
تساءلتُ . .

- هل جئتِ حاملةً نهرَكِ الحلو . . ؟

أم بركِ المرِّ . . ؟

أو أنتِ مجنونةٌ بالسفر . . ؟

أستدرجين من الوقت أجملهُ . . ؟

كي تمرَّ القلاعُ على جسدين مموَّهةً بالشجر . .

- أرفرف . .

لو جاء حينٌ عليك من الدهر . .

- أي لم تكوني -

سأتيك مشتعلاً بالصور . . -

أراهن أن العصافيرَ جائعةٌ . . وتغني . .

وأنَّ سهولاً من العشق . . تحترق الآن . .

أن الكواكبَ مطفاةٌ . .

والمراكبَ ما أفلعت . . والخليجَ خطر . .

وإنَّا قصيانٍ يحترفان سؤالاً يواصلُ

تخليقه في الأعالي . .

ويبحثُ عن صوته في البَشْرِ .
وأنَّ الدماءَ تقاومنا . . . وتفيضُ .
وأنَّ البكاءَ وميضُ . .
وعينَ الكتابةِ . . عمياءُ .
والحدسَ أعمى . .
الأكاذيبَ سحرُ . . ومستنقعُ . . وحضيضُ . .

- بكاءُ . . هو الوجدُ . .

مَنْ قالَ يفضي بنا الوعدُ نحو البساتينِ . . ؟
مَنْ قالَ . . كلُّ الغناءِ حينُ . . ؟

سأبكيكِ مقترحاً أن نعودَ إلى الحلمِ . . بالحلمِ . .

كالحلمِ . .

نبحثُ عنَّا . .

ونأتي إلينا . . على صهوة . . أو كتابٍ

لكي نستعيدَ من الموتِ طيرَ الرماذِ . .

وأقترحُ الآنَ بدءاً . . من النارِ . .

ضوءاً ودوداً . .

خيولاً . . وغاراً . .

لنشرَ حقلِ الأناشيدِ . . والعشقِ . .

من غسقِ الماءِ . . حتى الصحارىِ . .

- هي المدن اليوم تكذبُ عريانةً . . في المرايا . .
وتكذبُ خارِجةً . . إذ يجيءُ العدوُّ . .
وتهربُ من سيفها . . في السهادُ -

سأقترحُ الآنَ موتي . .
وأشترطُ المهرَ جانَ الجميلَ . .
لكي لا يموتَ النخيلُ . . وكي لا يميلُ . .
وكي لا يمرُّ المعزُونُ بامرأةٍ غادرتني مبكرةً . .
ثم كي يستمرَّ اشتعالُ القناديلِ في سقفِ بيتي . .
بُعِيدَ الأصيلِ . .

(دمشق - 1/2/1994)

الفهرس

- الجدل في منتصف الليل
- 66 - 5
- 7 - الوجه في الماء
- 15 - سيلة الظهر
- 21 -
- 27 - كتابات على راحة الصبية السمراء
- 33 - الموت خلف الباب
- 36 - اعتراف
- 38 - عن القمر الأحمر والقراصنة
- 41 - عمان (72)
- 44 - كلمات لم تحترق
- 47 - الجدل في منتصف الليل
- 53 - تغريبة بني خولة
- 58 - مواويل بحرية
- وشاهراً سلاسل أحياء
- 125 - 67
- 69 - مواصلة الخروج على قرار التصفية
- 80 - قرطبة في هجرة صقر قريش
- 89 - تقاسيم على البندقية في ليلة العيد
- 97 - القراءة الثانية للنقش في الرصاصة الأولى
- 104 - من دفتر فدائي في قوآت العاصفة
- 115 - الغريب يشدّ سقوط الشجر في ضاحية المدينة
- بيسان في الرماد
- 182 - 127
- 129 - بيسان في الرماد
- 135 - أبو محجن الثقفي .. لا وعد ولا توبة
- 143 - الرؤيا بنظارة ليينا
- 154 - العبورُ نهاراً
- 178 - على الصليب

- 331 - 183 أُسْمِيكَ بَحْرًا ... أُسْمِي يَدِي الرَّمْل
185 - بيروت 78
192 - حوار خاطف مع فتى فلسطين
201 - تلويحة للوجه الآتي
210 - للسيدة الكنعانية أرفع هذا النخب
229 - أُسْمِيكَ بَحْرًا .. أُسْمِي يَدِي الرَّمْل
245 - يا ميجانا صبراً ... يا ميجانا يا ريم
264 - المسافة بين غربيين ... والفتى من رماد
276 - رسالة إلى ليلى الجنوب
289 - أحزان الأيام الأخيرة
302 - توقعات الولادة الثانية
312 - مرناة على زجاج النافذة
321 - موسم الصعود إلى القمر

- 453 - 333 دمي نخيل للنخيل
335 - العوديسا
376 - مغناة إلى ناجي العلي
389 - دمي ... نخيل ... للنخيل
404 - للفصول اعترافاتها
414 - مرثية الجسر الأخير
421 - بكاء ... على جسّدٍ لم يصل
430 - وداع .. هو الوقت ..